ذكريات ناشر متجول

قصة حياة الحاج مدبولي

أحمد موسى قريعي

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

لا يسمح بتحويل هذا العمل إلى أي فكرة درامية أو تسجيلية أو غير ذلك من أعمال النشر والطبع إلا بإذن كتابي من

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : **ذكريات ناشر متجول**

المؤلف أحمد موسى قريعي

رقم الإيداع :

الترقيم الدولي:

الطبعة الأولى 2019

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

«ليسمح لي الحاج مدبولي : أن أروي للناس قصة كفاحه الطويلة في عالم الكتاب والنشر والكلمة المكتوبة حتى يتعلم الجيل الجديد من أبناء أمتنا والإنسانية شعار : «لا وقت للفشل في الحياة مع العزم وقوة الإرادة» وأن أُعبر له عن مشاعر امتناني وعرفاني .. وأن أشكره على كرم ضيافته وسعة صدره ، وصراحته وصدقه فى الرد على استفساراتي وأسئلتي رغم جُرأتها .. عندما كان حيّاً يمشي بيننا ، وأن أُعبر له عن مشاعر حزني وهو قد غادر دنيانا» .

أحمد موسى قريعي
Elabas1977@gmail.com

«مدبولي ناشر استثنائي وسيظل علامة في حياتنا الثقافية»

إبراهيم أصلان

«نحن نحب مدبولي لأنه يحب الكتاب ويتعامل معه كإنسان»

نزار قباني

«لو كُتب تاريخ الثقافة في مصر سيكون لمدبولي نصفه»

أنيس منصور

«ستظل الحركة الفكرية مدينة لمدبولي على مدى السنين بما قدمه من أعمال أثرت على الحياة الفكرية»

«كان مدبولي ظاهرة فريدة في الحياة الثقافية وكان أكثر قدرة على اختيار الكتب التي يقدمها من المثقفين أنفسهم»

محمد سلماوي

رئيس اتحاد الكتاب المصريين

«لا أعتقد أن هناك من خدم الحياة الثقافية والفكرية في مصر مثل الأخوين «مدبولي» بجد ومثابرة وإنكار ذات»

نعمان عاشور

«كان الحاج مدبولي عمود النشر لعشرات الكُتاب ، ولا يمكن تصور حركة النشر الأدبي . منذ الستينيات لولا إسهاماته التي تتمتع بصدق وإخلاص شديدين لمهنة النشر حتى في أحلك الظروف»

الكاتب محمود قاسم

«إن فضل مدبولي على أجيال القراء المصريين والعرب يتجاوز قيمة النشر إلى التأثير في وجدان القارئ»

الدكتور عبد المنعم الحفني

«خدم مدبولي الثقافة العربية أكثر من عدد كبير من المثقفين العرب»

يوسف القعيد

«خسارتي برحيل مدبولي فادحة فهو جزء من تاريخي الشخصي»

بهاء طاهر

«كان مدبولي ظاهرة لها العجب»

صلاح عيسى

رئيس تحرير صحيفة القاهرة

«من لم يساهم مدبولي في جيبه ، فقد ساهم في عقله»

المثقفون المصريون

«تعلمنا في مكتبة مدبولي مثلما تعلمنا في جامعة القاهرة ، وأحيانًا نقترض منه المال حتى تصلنا التحويلات من أهلنا»

بعض الحكام العرب

الذين درسوا فى جامعة القاهرة

إهداء

إلى الـــذين يعلمـــون النـــاس الكتابـــة والقراءة والكلمة الحرة .

إلى روح : الحـــاج مـــدبولي الأب المعلـــم الأول.

إلى روح : الحـــاج أحمـــد مـــدبولي رفيـــق رحلة الكفاح.

إلى روح : والـــدي الـــذي علمـــني حـــب الناس.

إلى أمـــي : زهـــراء محمـــد يوســـف «لعلـــي لم أخيب ظنك» .

إلى أشقائي.

إلـــيكم جميعًـــا أُهـــدي تجربـــة الحـــاج مدبولي في الحياة.

مقـــدمة

كنت أعرف الحاج محمد مدبولي من خلال منشوراته ومطبوعاتـه ، ومـن خـلال الصحف ووسائل الإعلام المختلفة ، ولم ألتق به وجهًـا لوجـه إلا عنـدما فكـرت فى مجال التأليف ونشر الكتب .

وذات مرة كنت فى زيارة للدكتور السفير محسن خليل المفكر العراقي المعروف.

فقلت له أُريد ناشرًا يتولى نشر وتوزيع أحد كتبي فقـال لي عليـك بالحـاج مـدبولي فهو أفضل من يقوم بذلك .. فذهبت إليه وفى صحبتي صديقي«جابر رشدي» رئـيس مجلس إدارة جريدة دنيا الرياضة المصرية . فعندما جلست إلى الحاج مدبولي أسـرني بتواضعه الجم ، وأدبه الفريد ، وأخلاقه العالية ، ومعرفته الدقيقة بالتاريخ .. فلما كان ولعي بالتاريخ شديدًا.. تركت ما جئت مـن أجلـه وطلبـت منـه أن يسـمح لىّ بجمـع وإعداد قصة حياته وكفاحه فى كتاب حتى تستفيد منها الأجيال فقال لي قد طلب هـذا الأمر من قبلك الدكتور جمال حمدان .. فأخذتني الرهبة عند سماع اسم الدكتور جمـال حمدان .. فكدت أتراجع عن الفكرة إلا أن رغبتي فى سبر غور هذه الشخصية دفعتنـي دفعًا وألحت علىَّ بتكرار الطلب مرة ثانية .. وعندها قال لي أمهلني ثلاثًا حتى أفكر فى الأمر وأتخـذ قـراري .. فجئـت إليـه بعـد ثـلاث .. فكانـت الموافقـة التـي اشـترط لاكتمالها أن يكون اسم الكتاب «ذكريات بائع جوال» فقلت له حسنًا عـلى أن يكـون عنوان الكتاب «ذكريات بائع جوال – الحاج مدبولي السيرة والمسيرة» .

وبعد ذلك استمرت مسيرة البحث عن جمع وإعداد المادة التى أخذت منـى أكثـر من نصف سنة .

ضياع الكتاب الأول :

حقيقة تملكني الحزن ،والغضب وأخذتني الصدمة عند سماعي عبارة «الكتاب ضاع!!» وازددت غمًا عندما تذكرت أنى لم أحتفظ بنسخة إضافية من الكتاب.. ولكن ما الحل ؟ هل أستسلم لقدري وأقول هكذا أرادت الدنيا ؟ أم أبدأ عملية البحث والتنقيب من الأول ؟أم ماذا أفعل بالضبط؟ فعلاً مصيبة وطامة كبرى أحلت بى .. وأخيرًا استجمعت قوتي وبدأت فى عملية البحث من أول وجديد وذلك لإصراري على أن أكون كاتب هذه القصة الفريدة .. وبالفعل بدأت مزاولة الكتابة مرة أخرى .. إلا أن مقولة : «إن المصائب لا يأتين فرادى» ظلت تلاحقني وفجأة وبدون إنزار أو مقدمات .. سمعت أن الحاج مدبولي مات ! يا إلهى كيف حدث ذلك ومتى .. فاختلتوازني مرة أخرى وأنا لم أنته من إكمال الكتاب بعد.. لأن الموت حاول أن يضع نهاية لشكل الكتاب فحولني من كاتب لقصة كفاح بطلها الحاج مدبولي إلى كاتب نعى فكتبت «لحن الوداع» بمداد من الحزن والوحشة .

العنوان كلاكيت تانى مرة :

بعد وفاة الحاج مدبولي بعد أن أكمل مسيرة البناء التي ابتدرها منذ قبيل الثورة . فكرت أن يكون عنوان الكتاب الجديد «ذكريات بائع متجول- قصة حياة الحاج مدبولي»

ولكن لماذا الحاج مدبولي ؟ ولماذا أروي قصة حياته؟.. باختصار شديد. فالإجابة تقول أن الحاج مدبولي قدس الله روحه كان تجسيدًا لصورة المشهد الثقافي العربي فى النصف الثاني من القرن الماضي ، فهو الذى كان يبيع كتب اليسار واليمين، وينشر كتب الماركسية والوجودية، ويوزع الكتب الإسلامية وتلك التي لا تعترف بعبارة ممنوع ومفردة رقابة .. وهو الذى خاض معارك التحدي ضد قسوة الحياة لأنه كان متسلحًا بأسباب القوة الكامنة فى روحه والتي كانت تشده بقوة أخرى نحو المحافظة على تراث الأمة الحضاري ضد دعاة صدام الحضارات وتزييف التاريخ الذين يضعون الحضارة العربية بألوانها الزاهية دائمًا فى موضوع الاتهام ووصفها بالإرهاب والتخلف .. وقد عاش الحاج مدبولي حياته متفقًا تمامًا مع أفكاره بوصفه

«ضمير ثقافة العرب» الذى أفاض عطاءًا ودفاعًا عن ثقافة الكلمة الحرة التي تجلت فيها عظمته وكفاحه من أجل الثقافة وأهلها حتى أصبح أداة للتنوير ومساهمًا فى الحركة الثقافية العربية على مدى 70 عامًا .. فكان يمثل عملية التكامل أو حلقة الوصل بين ثقافتنا فى عهد الملكية البائدة وثقافتنا الحاضرة .. ولهذا كله يعتبر مدبولي عالمًا كبيرًا مترابطًا فى مجال صناعة الكلمة والثقافة ، فقد قدم منذ أن كان فى سن الخامسة الكثير من صور العطاء التي ساهمت فى بناء ومد جسور الثقافة العربية حتى ذي اللحظة .

وأعتقد أن روح تعليم وتبصير الناس هي وحدها التي دفعته دفعًا من أجل إعلاء فكرة أو مبدأ.. فهو خير مثال للصورة الأصلية الحقيقية التي تعبر عن ابن البلد.. فلقد استطاع رغم أميته المساهمة فى تبصير الناس والمحافظة على تراث العرب الثقافي .. عندما أعد العدة لمقاومة اليأس الذى دب فى أوصال آخرين فحرفهم إلى طريق اللاشئ .. فتحرك مدبولي إلى الأمام حتى وصل وتخلف الآخرون أو انقطعوا حتى فاضت روحه الذكية إلى خالق الوجود ومقدر الآجال .. ففقدناه رغم حاجتنا إليه .. إلا أنى أطلب فقط من أبنائه الحفاظ على هذا التراث الثقافي الكبير وأرجو أن يكونوا يدًا واحدة «كالمدبوليين»«محمد وأحمد مدبولي» .

قد عمل الحاج مدبولي بكل قوته من أجل إنجاز مشروع الثقافة العربية لذلك عُرف عنه أنه دائم الوقوف إلى جانب قيم العدل والحق والخير والجمال ، فكان يتحرك وفق خطة مرسومة وينأى عن التحرك العشوائي الذى يكون دائمًا بلا هدف .. فقد عاش الحاج مدبولي حياة المعاناة والخوف والتشرد ورغم ذلك استطاع أن يعيش حقيقة ماثلة بيننا .. فعندما نذكر مسيرة الثقافة فى منظومتنا العربية لا نستطيع إغفال دور «ضمير الثقافة» وقلبها النابض الحاج محمد مدبولي فهو أمين الثقافة العربية وضميرها لأنه لم تكن لديه نزعة فردية لاستغلال الثقافة فى خدمة مصالحه الخاصة .. فالمتتبع لمسيرة الحاج مدبولي يتبين له مدى إصراره على مد الناس بكل ما هو مفيد .. حتى أنشأ مكتبته التي تعد من أشهر المراكز الحضارية والثقافية فى الوطن العربي معتمدًا على ذكاءه الفطري .. ولقد كان كل ما يشغل اهتمام مدبولي هو خلق جيل حر مستندًا على عقله

وكريم أخلاقه التي كانت خادمًا لعقله وعلى رأى المعلم «كونفوشيوس» فيلسوف الصين العظيم : «أن الأخلاق هي التي تجعل الفرد صالحًا أو طالحًا، ضعيفًا أو قويًا» وقد حاول مدبولي أن يربى الناس على الأخلاق عن طريق التعليم ووسيلة النشر فقال على لسان «كونفوشيوس» : «علمت معاشر القراء التاريخ كي يلهموا بالعظيم من أعمال الإنسان، وكى يجدوا فى دراسة طبيعة البشر ما يكبح جماحهم ، والشعر كي يكونوا ذوى خيال ، والموسيقى كي يتطرق الانسجام والرشاقة إلى نفوسهم ، وحسن الطباع كي يكونوا سادة » وبالفعل قد نشر مدبولي فى كل هذه المجالات حتى صار معلمًا كسلفه «كونفوشيوس».. فهو صرحًا عاليًا شديد البعد فى دنيا المعرفة والفكر والثقافة .. وأعتقد أن سر مدبولي يكمن فى عقله المنظم الفعال المرن الذى ترك أثرًا كبيرًا على الثقافة والفكر فمكتبته ومن قبلها الكشك والبسطة وفرشة الكتب فقد ساهموا جميعًا فى أن يكون واجهة ثقافية عربية تلقى بظلالها على الإنسانية جمعاء فهو حلقة الوصل بين ماضي الثقافة وحاضرها .. والأن يظل المشهد الثقافي العربي ناقصًا غير مكتمل بعد رحيل الحاج مدبولي ، ولقد تغيرت خريطة النشر وتبدلت . فلقد كان ملمحًا رئيسيًا فى حركة النشر والتأليف وصناعة الكلمة المكتوبة .. ويعتبر موته خسارة كبيرة تخسرها الثقافة العربية لأنها فقدت كفاءة نادرة فى مجال النشر .

ولأنه أيضًا قد ساهم فى تشكيل وعينا أدبيًا وثقافيًا وفنيًا واجتماعيًا وذلك لارتباطه الوثيق بمجتمعه وعروبته ومصره التي نشأ وتربى فى ظلها فهو بلا شك جزء من تاريخ مصر السياسي والاجتماعي والثقافي بوصفه عاصر أربعة عصور سياسية فى مصر التي كان يعشقها ويردد من أجلها أبيات «صلاح جاهين»التي تقول :

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء

أنا مصر عنديأحب وأجمل الأشياء

باحبها وهى مالكة الأرض غرب وشرق

وبأحبها وهى مرمية جريحة حرب

***

وتلتفــت تلاقينــي جنبهــا فى الكــرب

والنــبض ينفضــعروقي بــألف نغمــة

وضــــرب عــــلى اســــم مصــــر

ولقد كان الحاج مدبولي إنسانًا وناشرًا وموزعًا وروحًا ومحبة وكان واحدًا من أكثر الناشرين إيمانًا بالروح القومية الواحدة التي تجمع أبناء الوطن العربي ، وأدواته لفهم التراث القومي كانت الكتاب والثقافة والتراث والكفاح والمصير المشترك .. ولم يكن الحاج مدبولي متعصبًا إلا لتجربة الزعيم جمال عبد الناصر ، كما لم يكن منغلقًا على نفسه بل كان عقلانيًا مستنيرًا ومناصرًا لكل ما هو مفيد وصالح لثقافتنا وروحنا العربية – ولا أُريد الإطالة أكثر من هذا حتى أتركم مع تفاصيل الكتاب التي صنعها الحاج مدبولي ولم يرها مكتوبة على صفحات الكتاب الذى يحمل اسمه وخبرته .. ولكن أقول على لسان الشاعر «حسن طلب» :

ولكن قضى الله ما قد قضاه

وكان الذى لم يكن منه بد

ولا حوللي

كي أوافق .. أو أعترض

ولكن هذا لا يمنع أن أكشف عن رغبتي فى أن يرى الحاج مدبولي الكتاب الذى أبين فيه كيف أن رحلة الحاج مدبولي فى عالم الكتاب والنشر كانت شاقة وصعبة لاقى فيها الهوان وذاق الأمرين وقاس الويلات وتكبد المشاق .. ولأُبين كذلك أن بلوغ عظمته كان ثمنه النوم على الرصيف هو وشقيقه «أحمد» لأكثر من 15 سنة .. وكيف أنه كان يدفع هذا الثمن عن طيب خاطر ودون تردد حتى يمسح عن الإنسانية غشاوة الجهل والظلام والظلمة .. وأن مدرسة الحياة وحدها هي التي جعلت منه مفكرًا وناشرًا عظيمًا.. وكل

ما قلته عن الحاج محمد مدبولي فى هذه المقدمة لهو شيء قليل وصغير عن حجمه الحقيقي .. فهو بلا جدال جزء لا يتجزأ من تاريخ الثقافة فى بلادي ومنطقتنا العربية فهو قد ساهم فى إخراج أسماء لامعة فى مسيرة التأليف فى منطقتنا العربية ، وعرف الناس بمؤلفات آخرين فتبوأ مكانة رفيعة ما كانت تعطى لهم لولا أنه عرض مؤلفاتهم فى «خص الثقافة» فالحاج مدبولي فعلاً عجيبة من عجائب دنيا النشر فى وطننا العربي .

المؤلف

مدخـــل
رحلة فى جلباب رجل

إنها رحلة الحاج محمد مدبولي فى عالم الكتاب وصناعة النشر .. رحلـة رجـل بـدأ كبائع جوال للصحف والمجلات الأجنبية ، وانتهى كناشر عظيم يتصـدر دور النشـر والتوزيع فى المنطقـة العربيـة ، وصـاحب مكتبـة عظيمـة تضـم كـل الكتـب فى كـل المجالات من فستان المرأة فى مجال الموضة والجمـال إلى كتـب الأبـراج والطـبخ وتربية الخيول إلى آخر كتاب فى السياسة والاقتصاد إلى أهم كتاب فى فن الحب أو فن تربية الأطفال .

رحلة رجل يتعامل مع الكتاب مثل ابنه ويخاف عليـه كثيـرًا، ويثـور عنـدما يـرى أحدهم يرميه.. رجل قضى نصف عمره فى التنقل من رصيف لآخر من أجل الكتـاب والكلمة الحرة .. ومن أجل الصدق والأخـلاق والنزاهـة وحبـه لمهنتـه رفـض كـل الإغراءات والضغوط لكى يقوم بعرض وبيع الصحف والمجلات الإسرائيلية وأصر على موقفه .. ولشعوره بالمسئولية وأهمية الكتاب العربي عمل من أجـل أن يصـل إلى العالم الخارجي فافتتح مكتبًا لتسـويق الكتـاب العربـي فى لنـدن .. إنهـا رحلـة رجـل صاحب ضمير وطني صادق وصاحب موقف وحس إنساني متيقظًا داخـل أعماقـه ، وصـاحب عقـل مـنظم مثـل الكمبيـوتر يحفـظ آلاف العنـاوين مـن الكتـب فى كـل المجالات وأسماء مؤلفيها وتاريخ طبعاتها .

رحلة رجل أمي تعلم القـراءة وحـده مـن متابعـة عنـاوين الصـحف والمجـلات

والكتب التي يبيعها ، فكون ثقافة واسعة من خلال تعامله مع الأدباء والمثقفين ، وأساتذة الجامعات ورؤساء الدول وشركاء الوطن بمفهومه الإنساني الكبير من «شيوخ وشباب وطلاب وفلاحين ونساء وأجانب من شتى بقاع المعمورة» .

رجل أصّر على ارتداء الجلباب زي الفلاحين والبسطاء ، فكان سر نجاحه وشهرته التي جعلت أنيس منصور يسعى إليه لأخذ رأيه فيما يكتب ، ويلتقى به الدكتور مصطفى محمود ، ويسأل عنه الدكتور بشير الداعوق، ويراسله الدكتور سهيل إدريس ويقف عنده توفيق الحكيم ، ويمر عنده «صدام حسين » ليسأله عن الجديد فى عالم الكتب .. ويأتي إليه نجيب محفوظ يوميًا على مدى ثلاثين عامًا، وتُرسل إليه أم كلثوم من يشترى لها دواوين الشعر التي كانت تتابعها باهتمام .. ويتصل به الزعيم «جمال عبد الناصر» تلفونيًا أكثر من مرة لطلب مجموعة من الكتب فيرسلها له .

رجل رواد مكتبته وأصدقائه : « يوسف إدريس ، جمال حمدان ، إحسان عبد القدوس ، فاروق شوشة ، سليمان إبراهيم العسكري ، جمال الغيطانى ، نزار قباني ، يوسف القعيد ، صلاح عبد الصبور ، جابر عصفور ، أحمد عبد المعطى حجازي ، أمل دنقل ، يوسف السباعي ، نجيب سرور ، عبد الرحمن الأبنودي ، سيد حجاب ، غادة السمان ، عبد الرحمن الشرقاوي ، نازك الملائكة ، أحمد فؤاد نجم ، الطيب صالح، أحمد بهاء الدين ، لطيفة الزيات ، علاء الأسوانى، الدكتور عبد المنعم الحفني، محمد حسنين هيكل ، زكى نجيب محمود ، عبد العزيز المقالح ، محمد يوسف القصير ، أحمد بهجت ، الدكتور عصمت سيف الدولة ، فكرى أباظة ، محمد سيد أحمد ، الدكتور رفعت سيد أحمد ، أحمد حمروش، محمود أمين العالم ، الفنان محى إسماعيل ، الدكتورة نوال السعداوي ، الدكتور عبد الحميد حمدان ، عطيات الأبنودي ، عبد الرحمن الغيطانى ، جبرا إبراهيم جبرا ، أدونيس ، محمود درويش ، إبراهيم المقحفى ، موسى صبري ، صلاح نصر ، صلاح حافظ ، ثروت عكاشة ، عبد القادر حاتم ، نعمان عاشور ، وجيه أباظة ، إبراهيم بغدادي ، فاروق جويدة ،

عبد الرحمن منيف ، أحمد سويلم ، محمود تيمور ، أحمد زويل ، جمال بدوى ، عفيفي مطر ، عبد الوهاب البياتي ، نادية لطفى ، محمود ياسين ، نور الشريف ، محمود حميدة ، صلاح السعدني ، محمود عبد العزيز ، عزت العلايلي ، فاتن حمامة ، صلاح ذو الفقار ، صلاح قابيل ، كرم مطاوع ، الدكتور أسامة الباز ، الدكتور مصطفى الفقى، الدكتور عمرو موسى ، الدكتور بطرس غالى سكرتير عام الأمم المتحدة الأسبق ، وسميح القاسمي ، وعزمي بشارة ، والمناضل الوطني الراحل زكى مراد ، والوطني المخلص عبد الواحد الوكيل».

رجل أشهر زوار مكتبته «الرئيس محمد نجيب ، السادات ، حاكم اليمن الجنوبي، ياسر عرفات ، نبيل شعث ، عبد العزيز الأرياني ، هوارى أبو مدين ، الشيخ الدكتور سلطان القاسمي حاكم إمارة الشارقة ، والرئيس نكروما ، والرئيس نيريرى ، والوزير مصطفى طلاس ، والرئيس ابن بيلا» .

رجل عاصر «عباس العقاد ، طه حسين ، الرافعي ، مصطفى أمين ، المنفلوطي ، البرنس عباس حليم ، البرنس فؤاد باشا سراج الدين والملك فاروق» .

رجل شهد «مظاهرات كوبرى عباس ، وحريق القاهرة ، ومذبحة الكتاب ، وسور الأوزبكية ، وتأميم قناة السويس ، واتفاقية كامب ديفيد ومنتديات مقهى ريش الشهيرة» .

الرجل الذى من جلبابه خرجت مؤلفات «بيكيت ، كامى ، يونسكو، تشيكوف ، درنمات ، همنجواى ، موليير ، تولستوى ، ديستويفسكى ، البرتومورافيا ، سيمون دي بوفوار ، ماركس ، لينين ، وسومرت موم ، وشكسبير» .

إنه الرجل الذى سلم على «سارتر» حين زار القاهرة فى الستينيات . إنها رحلة رجل اطلع على مذاهب الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، وصار يناقش الفلاسفة فى العبث والوجودية ومسرح اللامعقول ومصطلحات الفلسفة .

رحلة رجل عصامي.. قالوا عن مكتبته فى لبنان والمغرب إنها «بورصة الكتاب والباحث» .

رحلة رجل وصفته المخابرات المركزية الأمريكية «سيأي إيه» بأنه «أخطر ظاهرة فى الحياة المصرية» وأنه «أهم ظاهرة ثقافية فى مصر» بحسب صحيفة «اللوموند الفرنسية» ، وأنه «أحد أبرز ملامح القاهرة بعد الأهرامات والنيل وأبو الهول» بحسب وصف إذاعة الـ «B.B.C» وأنه «عميد الثقافة العربية بلا منازع» بحسب وصف «واشنطن بوست» وأنه «الرجل الذى يتحكم فى ثقافة مصر» حسب شهادة «الهير الدتريبون» ووزير الثقافة العربية غير المتوج بحسب رأى آخرين ..

إنها رحلة الحاج «محمد مدبولي» الذى قال عنه الرئيس محمد حسنى مبارك لسمير سرحان «عارفه بجلبيته كده بكل حاجة» .

أول الطريق

«نعم، والدي كان بسيطًا، متواضعًا يحب الخير لكل الناس، ويعشق مصر من أجل عيونها فقط. وليس غير ذلك».

الحاج مدبولي

كان المكان مختلفًا والزمان أيضًا وكانت مصر محمية بريطانية يجتمع فيها «الخواجات» من كل أصقاع أوروبا ، عندما فكر «مدلولي الأب»في النزوح من أعماق الصعيد من قريته «تريدي أبو حسن» التي تقع ضمن حدود «سوهاج شرق البحر» إلى القاهرة ، وكان دافعه الأساسي لهذه الهجرة هو تغيير حياته البسيطة والثورة على واقعه الذي كان يعيشه – فاستقر بت المقام في منطقة عشوائية بالدقي عرفت «بدابر الناحية» وكان ذلك في عام 1932م. ولما سمع «مدبولي الأب» أن مهنة بيع وتوزيع الجرائد تدر على أصحابها مكسبًا وفيرًا قرر الاشتغال بها بحثًا عن قوت يومه ، فعمل موزعًا ومتعهدًا لبيع الصحف والمجلات العربية والأجنبية في منطقة ميدان «سليمان باشا» – ميدان «طلعت حرب» حاليًا بمنطقة وسط البلد التي لم تكن تطأها أقدام المصريين فيما عدا الذين يعملون في بيوت الأجانب و«باشوات» مصر.

وفي يوم 11 تشرين الأول «أكتوبر» من عام 1938م دوَّت الزغاريد في بيت الحاج مدبولي محمد حسين بداير الناحية ، واختلست النساء النظر من الشبابيك والبلكونات ليعرفن ما الأمر ، فجاءت الإجابة أن «زوجة الحاج مدبولي» رُزقت بطفل اختار له والده اسم «محمد» وشاركت النساء «أم محمد» فرحتها وزغردن فرحًا وسرورًا . ثم رُزق «مدبولي الأب» من بعد «مدبولي الأبن»«أحمد» ثم أربع بنات ، وأخيرًا «سيد» .

عاش مدبولي الابن سنوات عمره الأولى داخل غرفة واحدة بإيجار شهري قدره

50 قرشًا وكان كل شيء فيها مشترك حتى الحمام - قال لي«كنا جميعنا نعيش في حجرة واحدة بالإيجار لأن والدى كان ينتمى إلى الطبقة الفقيرة - طبقة مجموع الشعب الذى كان يعيش تحت القاع - وأعتقد أننا كنا أقل درجة في ظروفنا الاجتماعية » .

وأكاد أجزم أن الحجرة التي عاش فيها «مدبولي الابن» أثاثها سرير واحد في الوسط تكدست عليه الوسائد و«الألحفة» - وبجانبه بعض قصاصات الورق والجرائد لينام عليها مدبولي وإخوته ، وأرى في زوايا الحجرة أرفف من خشب عليها مخزون الشاي والسكر والصابون وبعض مستلزمات الحياة اليومية .

كان مدبولي الابن مختلفًا جدًا عن أطفال الحارة وكان جادًا ومنطويًا على نفسه وكان دائمًا مشغولاً بالتفكير في أمر ما - يتذكر مدبولي طفولته قائلاً :

«لقد كنت طفلاً غير محبوب من زملاء المسكن والحارة فقد كانوا يرفضون أن ألعب معهم أو أشاركهم رحلاتهم.. لذا كنت أهرب دائمًا منهم وأجلس بمفردي حيث لم أكن أملك إلا عقلاً استخدمته وأنا في هذه السن المبكرة في التفكير. كنت طفلاً يحلم أنه سيصبح رجل أعمال ...»

وكان يجلس في المساء إلى والده يستمع إلى قصص الخواجات والإنجليز والإيطاليين واليونانيين والأرمن والباشوات وكان أكثر ما يجذبه الاستماع إلى حكايات باعة الجرائد .. ثم يغفو على فراشه المكون من ورق الجرائد ليحلم بالكتاب والجريدة.

ومدبولي الابن ككل أطفال مصر الذين ينتمون إلى الطبقات الكادحة لم يلتحق بمدرسة ليتعلم الحروف الأبجدية وأرقام الحساب ، بل تعلم القراءة وحده من متابعة عناوين الصحف والمجلات . شيئًا فشيئًا حُفرت في ذهنه صور حروف الهجاء، ثم استطاع أن يكتشف أن كل مجموعة من تلك الحروف ، يمكن أن تشكل كلمة لها مدلول معين ، وكل مجموعة من الكلمات ، يمكن أن تشكل جملة مفيدة . وبدأ لسانه يعتاد على قراءة العناوين الكبيرة للصحف ثم قراءة ما بها من أخبار ،

بالقدر الذى يسمح له بفهمها ومعرفة مضمونها العام .. ولحاجته إلى اللغة الإنجليزية في عملية البيع والشراء حاول تعلمها فبدأ يتعرف على الحروف اللاتينية وطريقة نطقها من أشكالها ، ولقد استعان في ذلك بسلسلة مجلات «كومكس»التي تصدر للأطفال باللغة الإنجليزية . يقول مدبولي الابن : «لم أتمكن من دخول المدارس النظامية نهائيًا ولكن علمت نفسى بنفسي حتى أعرف ما أبيعه ، ولذلك أنا لا أحمل سوى شهادة الميلاد ، وكنت أستوقف المثقفين كييعلموننى القراءة والكتابة . ولقد تعلمت من مدرسة الحياة العديد من اللغات كالفرنسية والإيطالية واليونانية، وتعلمت الإنجليزية عن طريق سلسلة المجلات الكرتونية Comics التي كانت تصدر للأطفال ».

وقد اختاره الله سبحانه وتعالى ليكون من حفظة كتابه الكريم . ففي مدرسة الجمعية الخيرية كان يستمع إلى ملقن القرآن ويحفظ بسرعة فائقة، ولم يكن يفارق الشيخ لحظة واحدة حتى حفظ القرآن العظيم كاملاً : «مع الأيام التحقت بمدرسة الجمعية الخيرية حيث حفظت القرآن بعد شهرين ثم تركت المدرسة لأن مهنة والدى كانت تستهويني... » .

وقد تعلم «مدبولي الابن» من مدرسة الحياة أيضًا الصبر وقوة الاحتمال والعطاء والاكتفاء الذاتي ومواجهة كافة أنواع الصعاب ، واجتياز الأبعاد ، وتحمل الحرمان . فقد استطاع الطفل الصغير مدبولي أن يشكل وجدانه ومظهره من خلال الكتب ، كما أن نشأته في ظل الاحتلال ساهمت في تغذية فكره وأكسبته وهو طفل حب الحرية واحترامها .

ومن صفات مدبولي الابن التي تكشفت للناس من حوله : الصمت والتأمل والحذر واللطف المتناهي والحس المرهف خاصة تجاه الكتاب والكلمة الحرة .. فهو متحمس للأفعال والوقائع وذكيًا يستوعب بسرعة وسهولة، فهو أنيق الهندام نظيفًا رغم بساطة ثيابه.. ووطنيًا شديد الحب لمصريته وعروبته.. وعامل لا يتعب ولا يعطى نفسه وقتًا للراحة فتراه بين الحين والآخر داخل مكتبته وسط الموظفين والزبائن.. وصامتا يجيد فن الإصغاء ولا يتحدث إلا ليقول شيئًا محددًا.. وهو طيب

النية تجاه جميع الناس وهذا هو سر جاذبيته.. ومجتهدًا علم نفسه وساهم في تبصير الآخرين ، والصفات التي كانت في مدبولي ابن الخامسة أو السادسة ، هي نفس الصفات والمميزات التي نراها فيمدبولي الرجل الناشر ابن السبعين عامًا .. فهو إنسان بسيط لا يوحى إليك أبدًا بأنه يضع نفسه في مرتبة الناشر الكبير ، تصرفاته وأخلاقه وصفاته توحى بالاحترام ، فهو يصر أن يتعامل مع جميع الناس على صعيد المساواة وقد التزم بذلك ولم يتغير بل بقيت عاداته وأسلوب حياته وطباعه تمامًا كما كانت . فالحاج مدبولي الابن شخصية فريدة وابن بلد أصيل كأبناء البلد الذى نحكى عنهم فصولاً في حواديت الشهامة .

مدبولي..بائع متجول

«لم تكن المصادفة هي التي جعلتني أبيع الكتب. فقد ورثت المهنة عن والدى الذى كان متعهدًا لبيع الصحف في مصر قبل الثورة»

الحاج مدبولي

جلست إلى الحاج محمد مدبولي في مكتبه داخل «مكتبة مدبولي» أستمع إلى كلماته البطيئة التي يقطعها بين الحين والآخر «دخان سيجارته» أو صوت أحد الموظفين وكانت الابتسامة ترتسم على وجهه وهو يتذكر سنواته الأولى فى مجال الكتاب وصناعة الكلمة المكتوبة .. وبدأنا نفكر بسنوات ليست بالقريبة كان فيها الحاج مدبوليما يزال صبيًا في الخامسة من عمره .. فقال لي مدبولي : « أردت لنفسي وأنا ابن خمس سنوات أن أشارك في تغيير الوضع المادي السيئ لأسرتي فأفصحت لأمي عن رغبتي الكبيرة في العمل من أجل مساعدة والدى .. ».

حوار بين أم وابنها :

عندما فكر مدبولي الطفل في مساعدة والده لم يكن يطمح إلى شيء محدد غير المساعدة وحب العمل ، ولكنه كان واثقًا من أنه سينجح .. ولما سمعت «الحاجة أم محمد» عبارة : أُريد أن أُساعد أبى يا أمي ! قالت في نفسها «مين ده اللي عنده خمس سنين وعاوز يساعد أبوه» ولكنها لم تجب الطفل إلى ما أراد وبعبارة أدق سكتت ولم تبدى شيئًا . ثم كرر الابن العبارة مرة أخرى، وهي كما هي، وفى المرة الثالثة قالت له أبسط إلىَّ يديك، فتقدم نحوها باسطًا يديه. فقالت : «أيدك دول زي الميزان عارف ميزان اللحمة والخضار؟ أجاب الطفل نعم يا أمي . فقالت : «هذه خيرًا وهذه شرًا ، إن عملت خيرًا تجد خيرًا وإن عملت شرًا تلقى شرًا» ثم أردفت : «يلا روح ساعد أبوك» . يقول مدبولي«كلمة الخير كانت في حياتي من ضمن الدروس التي تعلمتها من

أمي ، وهى الدافع الذى يحركنيفي كل نواحي حياتي .. » .

وبالفعل بدأ مدبولي الابن مهنة بيع الصحف والمجلات ولكن ليس لمساعدة المعلم «مدبولي الأب» وإنما لمساعدة عمه «محمود حسين »الذى كان مريضًا . وقد كان العم محمود حسين متعهدًا لبيع وتوزيع الجرائد والمجلات في منطقة الجيزة ، وجسر الجلاء ، وملهى «بديعة مصابني» الذى كان في نفس مكان «فندق شيراتون القاهرة»الحالي . يقول مدبولي عن تلك الفترة : «كنت أقوم بتوزيع الصحف في منطقة الجيزة كلها نيابة عن عمى ، فكنت أتجول بالصحف من منطقة جسر الجلاء إلى شارع المساحة ، إلى ميدان المساحة ، إلى شارع رفاعة وشارع هارون ، وحديقة الأورمان حتى «جامعة القاهرة وبين السرايات وكنت مغرمًا بتلك الجولات» ويضيف «كان أمام كازينو السيدة بديعة مصابني حديقة مخصصة لنزول الصحف وإلى البائعين مثلى ، وأذكر أنى كنت أنام على طاولات كازينو بديعة بعد أن ينتهى الكازينو من عمله حتى أنتظر وصول صحف الرابعة فجرًا» .

وقد سألت الحاج مدبولي عن أسماء بعض الصحف العربية فى تلك الفترة ؟

فأجاب «البلاغ ، الزمان ، الأهرام ، صوت الأمة ، الصباح ، الأساس والنداء» ثم قال لي أريد أن أضيف بعض ما أذكر عن تلك الفترة ، فقلت له تفضل فقال : «حتى لا أنسى : فقد أعطاني عمى محمود حسين في أول الأمر 18 زبونًا أحمل الجرائد إليهم فى البيوت ، وأذكر أن هنالك «بنت وولد» كانا يوزعان الصحف بجواري في تلك المنطقة ، إلا أنى بمرور الوقت أخذت كل الزبائن منهم ، وكان عددهم 108 زبونًا».

وبعد انتهاء تلك الجولات في الساعة الثالثة والنصف عصرًا يتناول مدبولي الطفل الشاي مع عمه في أحد مقاهي وسط البلد إلى حين استلام صحف المساء التي باستلامها تتكر الجولة دورة أخرى تستمر حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما يمر عليهما «مدبولي الأب» ويتجه الجميع إلى المنزل .

العودة إلى حضن الأب:

ولما بلغ «مدبولي الابن» السادسة من عمره أخذه أبوه للعمل معه في«فرشة»

الكتب التي كان يضعها الحاج مدبولي الأب على بُعد خطوات من رصيف «جروبي» وكانت تلك الفرشة مكونة من أقفاص الجريد ، وفى تلك الفترة كان نشاط المعلم مدبولي يغطى منطقة ميدان طلعت حرب، وجاردن سيتي وشبرد وسميراميس «الذى كان مقرًا للقيادة العسكرية لقوات الاحتلال البريطانية» ، وميدان التحرير الذى كان يسمى «قصر النيل» وفيه ثكنات الإنجليز . وأيضًا في ميدان التحرير كان نادى السيارات ونادى «محمد على» قبلة باشوات العهد الثنائي أمثال البرنس عباس حليم والبرنس فؤاد باشا سراج الدين اللذان كان يلتقطان من «الطفل مدبولي» وهما في سيارتيهما الصحف والمجلات الإنجليزية والفرنسية .

وكان عمل مدبولي الابن مع والده يقتصر على ترتيب الجرائد فى أول الأمر وعن تلك الفترة يقول الحاج مدبولي : «في أول الأمر كنت أعمل مع والدى في ترتيب الجرائد لساعات طويلة ، وعندما يدركني التعب أضع بقايا الصحف تحت رأسي وأنام على الرصيف» .

ولما أكمل الابن مدبولي عامه السابع تطور وصار يحمل الجرائد على «كتفيه» ويطوف بها شوارع القاهرة قاصدًا ثكنات الجيش الإنجليزي لتوزيعها عليهم . يقول «كنت صبيًا من صبيان والدى الذين يجرون بالصحف والمجلات في الشوارع ، وقد كنت أحمل «لفة» كبيرة من الصحف والمجلات و «ألف» بها في ميادين الأوبرا والدقي والجلاء وبين السرايات وجامعة القاهرة ، وأذكر أن ميدان الأوبرا الحالي كان اسمه «قشلاق الجيش الإنجليزي» .

وكان مدبولي الابن يعمل مع والده المعلم مدبولي بشكل يومي من الثالثة والنصف صباحًا إلى ما قبل منتصف الليل ، وقد قال لي مدبولي عن تلك الفترة «كنت أعمل مع أبى بشكل يومي من الثالثة والنصف صباحًا من عند كوبرى أبو العلا حتى كازينو بديعة مصابني حيث كنا ننتظر الجراد مع غبشة الفجر ونبدأ في توزيعها عند السابعة صباحًا فيدخل والدى الذى كان معه تصريح دائم إلى معسكر الجيش الإنجليزي ليبيع ما يحمله من الصحف والمجلات الإنجليزية وأنتظره أنا خارج المعسكر لبيع بقية الصحف ثم ننتقل في تمام الساعة العاشرة للتوزيع عند جامعة

القاهرة ثم شارع ملاعب الجامعة ، ثم نعود مرة أخرى إلى كوبرى الجلاء حيث الترومای القادم من الجيزة إلى امبابة .. ثم تبدأ رحلتنا الثانية في التوزيع من الجلاء إلى الأوبرا مرورًا بكازينو بديعة وبين السرايات ، وشارع المساحة بالدقي ونظل فيها حتى الحادية عشرة والنصف ثم نذهب إلى سميراميس حيث مقر قيادة القوات الإنجليزية المتمركزة في القاهرة ، وبعدها يستمر سيرنا إلى «جاردن سيتي» فيدخل أبى إلى عمارات سيف الدين التي كانت مدرسة للجيش الإنجليزية وأنتظره أنا في الخارج ثم نتجه إلى مدرسة «الكونستبلات الإنجليزية» خلف موقع دار روز اليوسف الحالية والتي لم تكن قد بنيت بعد .. وبعد الظهر أبيع أنا بعض الجرائد بجوار سور المدارس ثم أنتظر أبى لنبدأ رحلتنا الأخيرة إلى ميدان طلعت حرب الحالي للتوزيع بجوار جروبى ، حيث فرشة الكتب ، وكانت رحلة شاقة للغاية وعانينا كثيرًا منها .. وطوال هذا اليوم لا نبيع بأكثر من 15 قرشًا « بقيمة 150 جنيهًا حاليًا» .. وكنا نبيع بالمليم والنكلة والعشرين خردة» .

وفى تلك الفترة بدأ مدبولي الابن يتلهف لمعرفة ما في الجرائد من أخبار خاصة وأنه يرى تزاحم المواطنين الشرفاء لمعرفة أسرار المناضلين الشجعان الذين كانوا يرفضون الاحتلال ويقاومونه ، ومن هنا تربت لديه حاسة المعرفة والنزعة الوطنية يقول : «تولدت عندي حاسة النزعة الوطنية عندما سمعت الوطنين يقولون ويتحدثون عن الكيان المصرية والحرية والديمقراطية ، وكنت أرى الرجل في الشارع المصري يتحمل الضرب والإهانة ولا يقبل أي كلمة من أجنبي محتل حتى لو قتل .. لأن المصري لا يباع ولا يشترى حتى بكنوز الدنيا كلها.. وأرى أن الإنسان قبل أن يكون مثقفًا لابد أن يكون وطنيًا».

وفى السنوات بين 1945 – 1950م طرأت على الابن مدبولي فكرة أن تكون له فرشته الخاصة به فاستقر في«فرشة» صغيرة أمام محل جروبى على بُعد خطوات من فرشة المعلم مدبولي الأب ، ثم انتقل إلى الجهة المقابلة بعد تزمر الخواجة «جروبى» الذى كان ينفر من وجود الجرائد أمام محله ، الذى كان قبلة الوزراء والكبار ، ويذكر الحاج مدبولي أنه كان يرى كل وزراء مصر في جروبي : «كنت أرى باشوات ووزراء

مصر وهم يتأتون لتناول وجبة الفطار في جروبي .. ثم يتـأتون في آخـر النهـار لتنـاول القهوة ، وكنت أرى الباشا ومعه «باش شاويش بـ 4 شـرايط وتـاج» كمـا كنـت أرى الملك وهو يلعب «القمار»في جروبى لغاية الساعة التاسعة صباحًا وكان يركب عربية مخططة بأبيض وأحمر وكنت أراه مرة أخرى وهو ذاهب إلى نادى السـيارات الملكـي .. كما كنت أرى البـرنس «عبـاس باشـا حلـيم» ابـن عـم الملـك الـذى كـان مثـالاً للتواضع، وكذلك رأيت عثمان باشا محرم وزير الأشغال الذى بنى مجمـع التحريـر الحالي .. والبرنس «فؤاد باشا سراج الدين» ثم قال «أذكر أن الرجل الذى كان متعهدًا لجميع الصحف في مصر اسمه «فرج الله» وكان يصدّر الصحف إلى الخـارج وعنـدما تنقص يشترى منا الجرائد حتى يكمل النقص .. وأذكر أن جريدة الأهرام كانت عبارة عن غرفتين في شارع مظلوم ، غرفة للإدارة وغرفة مخـزن وأمامهمـا مطبعـة في نفـس مكان جراج الأهرام الحالي فكنا نأخذ منهم الجريـدة ونحاسـبهم بـاليوم ، وقـد كنـا نتكلم مع الإيطالي بالإيطـالي والفرنسـاوى بالفرنسـي واليونـاني باليونـاني، وأريـد أن أضيف إننا أول من بدأ بعرض الجرائد والمجلات على الرصيف في مصر .. » .

كشك مدبولي

■■■

«شعرت بأنني تحولت إلى جثة هامدة وأنا أرى الكشك يحتضر»

الحاج مدبولي

قبل قيام الثورة الناصرية في مصر بعامين أنشأ مدبولي الأب كشكًا لبيع الصحف والمجلات الأجنبية على كورنيش النيل بين فندق سميراميس القديم وشبرد الذى لم يكن قد بنى بعد ، وكان هذا الكشك يحتوى أيضًا إلى جانب الجرائد والمجلات على بعض الكتب باللغات الأجنبية كاللغة الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، واليونانية . بالإضافة إلى المجلات المتخصصة في السياسة، والفن وغيرهما. وقد وصل الأب إلى هذه المكانة المتقدمة بفضل نشاطه وصدقه في التعامل مع الجهات المعنية بالصحف.

وفى هذه الفترة كان مدبولي الأب يجلس داخل الكشك ليتولى عملية البيع فيه ويترك عملية التوزيع والطوّاف إلى الابن مدبولي الكبير وأخيه أحمد فكانا يطوفان على بيوت السياسيين والخواجات في وسط القاهرة لتوزيع الصحف والمجلات عليهم . وكان وسط القاهرة في تلك الفترة منطقة الصفوة سواء من المصريين أو الأجانب ، كما كان المركز التجاري والثقافي والسياسي الذى يضم المسارح والنوادي ودور السينما ، والمقاهي والمتاجر الشهيرة . وفى وسط القاهرة شاهد مدبولي الابن دبابات الثورة وهى تطرد المحتل وأعوانه بعد قيام ثورة يوليو 1952م وقبلها شهد حريق القاهرة ومازال شاهدًا على متغيرات الزمن فى منطقة وسط القاهرة حتى وفاته .

وكثيرًا ما كان المعلم مدبولي يشجع ابنه على العمل ويترك له الكشك أحيانًا حتى تزداد ثقته في نفسه وبذلك يكون قد تقدم خطوات نحو الوصول إلى الهدف وبلوغ القمة .

كشك النقابة:

ولما بلغ مدبولي الابن عامه الثالث عشر وكان ذلك في العام 1951م أي قبل قيام ثورة ناصر بعام واحد . قررت نقابة الصحفيين المصريين بناء أكشاك خشبية تؤجرها للموزعين وبائعي الصحف والمجلات ، لمصلحة أصحاب المعاشات من الصحفيين ، وقد بلغ الإيجار الشهري للكشك ثلاث جنيهات .. أخذ مدبولي الابن واحدًا من تلك الأكشاك مع أخيه أحمد بعد أن أقنعه بترك المدرسة للعمل سويًا .. إلا أن الكشك الذى أخذه الابن مدبولي كان مشتركًا بينه وبين أحد أصدقاء والده ، وذلك لعجزه عن تحمل نفقات إيجار الكشك لوحده فكان الكشك مناصفة بينهما.

وجدير بالذكر أن كل ثروة مدبولي من الجرائد في تلك الفترة لم تكن تصل إلى خمسين قرشًا . وأن جريدة الأهرام هي التي تولت توزيع أكشاك النقابة. والكشك الذى أخذه الأخوان كان على الرصيف المقابل لجروبي أمام مكتبة مدبولي الحالية التي تتوسط ميدان طلعت حرب ، وحوله مساحة مشغولة بأحدث الدوريات والصحف والمجلات والكتب، والمطبوعات الأدبية والفكرية والسياسية من جميع أقطار الدنيا. ورغم وفرة المكتبات ودور النشر في القاهرة فإن «كشك مدبولي» كان يزوره يوميًا معظم الأدباء والشعراء في مصر ، وقلما يمر أديب عربي بالقاهرة ولا يزور هذا الكشك الصغير الذى كان يطلق عليه «نعمان عاشور »«خص الثقافة» وهذا الكشك الصغير كبر واستولى على أحد المحلات التجارية التي تقبع خلفه ، فأفرغها من بضاعتها وملأها بالكتب والمجلات التي يجلبها مدبولي الابن بطموح كل يوم مكونًا له أكبر مكتبة في مصر كما سنرى لاحقًا .

وشيئًا فشيئًا بدأ شريك الأخوين مدبولي في الاستحواذ على أهم ثلاثة أيام عمل بالنسبة لنشاط الكشك ، فصمم مدبولي الكبير العمل على إقصاء الشريك وبالفعل حصل على الكشك وبدأ مع أخيه رحلة عمل شاقة وصعبة فكانا يعملان ليل نهار حتى أصبح الكشك مكانًا مميزًا يعرفه كما أسلفنا معظم المثقفين العرب .. وقد بدأ الأخوان نشاطهما الفعلي في الكشك بعرض ما لا تعرضه الأكشاك الأخرى فأضافا الجرائد المستوردة كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليونانية والألمانية إلى جانب

الصحف المصرية والعربية وبالإضافة إلى المنتجات السياسية والحلويات يقول مدبولي الابن : «لما كانت ظروفنا الاجتماعية تحتم علينا أن نبنى مستقبلنا ويكون لنا شأن في هذه المهنة .. بدأنا في بيع الجرائد اليومية مع تتميم الكشك بكل جديد.. فبدأنا بالمنطقة المحيطة بنا – منطقة وسط البلد وشارع الأوزبكية الذى كان جميع سكانه من الإنجليز واليونان والأرمن اليهود الأمر الذى دفعنا إلى تكثيف جهودنا فى بيع الجرائد والمجلات الأجنبية لخدمة هذه المنطقة» . وقد تعامل الأخوان في تلك الفترة المبكرة من عمر الكشك مع كل من محمد المعلم صاحب دار الشروق الحالية، وشريكه بالتوفيقية، ودار الفكر العربي، ودار المعارف، والخانجى ، والأنجلو ، والوعى العربي .

وقد ابتكر الأخوان طريقة جديدة لعرض الكتب والمجلات والدوريات داخل الكشك حتى تلفت انتباه المارة وبالفعل الأمر تعدى المارة ولفت انتباه مندوب هيئة اليونسكو الذى كتب تقريرًا عن الكشك قال فيه أن كشك الأخوين مدبولي واحدًا من أكثر أربعة أماكن جمالاً شهدها في القاهرة . وقد نشرت هذا التقرير «مجلة إيماج» الناطقة باسم المنظمة .

وعن تلك الذكريات قال لي الحاج مدبولي«أبدعت في تجميل الكشك بالكتب فوضعتها بطريقة مبتكرة ، تلفت نظر المارة ، مما أثار انتباه لجنة اليونسكو التي كانت تمر بالصدفة من أمام الكشك فاعتبرته – في تقرير لها – واحدًا من بين أربعة معالم جميلة في القاهرة . ونشرت هذا التقرير في المجلة التي تصدر عنها ».

وقد نجح الأخوان في استقطاب المثقفين المصريين أمثال محمد حسنين هيكل ، والفيلسوف الدكتور زكى نجيب محمود ، والدكتور يوسف إدريس ، ونجيب محفوظ وغيرهم حتى يكونوا زبائنًا دائمين للكشك . كما أنهما استعانا بعرض كتب كبار الأدباء مثل محمود تيمور وتوفيق الحكيم والعقاد وآخرين ، وفى هذا الكشك تعرف مدبولي الابن على الدكتور أسامة الباز ، والأستاذ جمال بدوى ، والدكتور أحمد زويل ، والدكتور جمال حمدان ، والشاعر والأديب نجيب سرور . وصلا لكل هذا عن طريق العمل المتواصل وعدم الراحة لدرجة أنهما كانا في أيام العيد يفضلان العمل

على الجلوس فى البيت وكان الواحد منهما ينام ساعتين يوميًا على الرصيف لأنهما أخذا الأمر مأخذ الجد والتحدي وأرادا أن يؤكدا للناس أنهما قادران على حمل الراية بعد والدهما ، كما أنهما كانا يعشقان مهنتهما ويحبانها ، ويريدان أن يشاركا من خلالها فى تنمية الوطن ، وحمل الناس على حب المعرفة ، فكانت ثمرة هذا العمل المتواصل أن حصل مدبولي الابن وهو ابن ثلاثة عشرة عامًا على توكيل توزيع كبريات المجلات والصحف العالمية «الفرنسية ، الإنجليزية والألمانية»في منطقة وسط القاهرة منفصلاً عن والده المعلم مدبولي .

وقد ظل الأخوان يعملان في الكشك بالتناوب في إعادة ترتيب الكتب والمجلات آخر الليل وحراسة الكشك والاستيقاظ في الفجر لتنظيف الرصيف «كنسًا ورشًا» فضلاً عن الاستعداد ليوم جديد ، وهذا يعنى أن الأكل والنوم والعمل كله كان على الرصيف وقد استمر هذا الوضع حتى سبعينيات القرن العشرين - تاريخ افتتاح مكتبة مدبولي - قال لي الحاج مدبولي«فضلنا 15 سنة ننام جنب الكشك على الرصيف، وكثيرًا ما اصطحبنا رجال الشرطة إلى قسم البوليس لأن النوم في الشارع ممنوعًا .. وكنا طوال النهار نلف نجيب كل ما هو جديد للكشك، وأذكر أن كل الرؤساء والمثقفين والوزراء العرب الذين كانوا يدرسون في الجامعات المصرية يأخذون منا الكتب بالتقسيط وكان الواحد منهم يدفع ربع جنيه أو نصفه في الشهر ويستعير الكتاب ليقرأه..» .

وفى 26 كانون الثاني«يناير» 1951م اشتعلت القاهرة حريقًا لا يعرف مصدره إلا تكهنًا فعمل الإخوان مدبولي على حماية كشكهما والمنطقة المحيطة به من أعمال النهب والسلب التي كانت مصاحبة للحريق وعملا أو ساهما في إخماد الحريق الذى كان مشتعلاً في كل القاهرة لأن إدارة الاحتلال البريطانية عملت على حماية الأجانب وتركت المصريين أصحاب الأرض . يقول الحاج مدبولي متذكرًا أيام الحريق : «فاجأنا حريق القاهرة في 1951م فقمنا بحماية منطقتنا من النهب والسلب والحريق لأن وجود قوات الاحتلال الإنجليزي كان لحماية الأجانب من يونانيين وفرنسيين وإيطاليين وإنجليز ويهود ، وأذكر أنه كان في كل قسم شرطة «كونستابل»أي مأمور

إنجليزي مخصص لحماية الأجانب دون سائر المصريين ... » .

ولما بلغ مدبولي الابن عامه الرابع عشر قامت ثورة الضباط الأحرار - ثورة يوليو 1952 فتغير كل شيء ودب النشاط والحركة في كل مناحي الحياة . وشهدت مصر نهضة ثقافية كبرى ، فأنشأت الثورة «القومية للتوزيع » «الهيئة العامة للكتاب الآن»والتي كانت تصدر كتابًا كل 6 ساعات، الأمر الذى أدى إلى نشاط عملية الترجمة في جميع مجالات السياسة، والاقتصاد، والزراعة، والطب، وانتعشت حركة البناء والعلم وكان الكتاب من أهم الوسائل التي اعتمدت عليها الثورة لتعميم الوعى، فأنجزت مشاريع علميةكثيرة – خاصة بالكتاب منها «الألف كتاب» و«المكتبة الثقافية» .. إلخ . فكان كشك الأخوين أحد ملامح النهضة والحياة الثقافية التي شهدتها مصر عقب قيام الثورة، وأصبح أشبه بالجامعة التي ينهل من معارفها كبار الكتاب والحكام والسياسيين المصريين والعرب. وأمام هذا الكشك كنت تستطيع أن تقابل نجيب محفوظ في الثامنة صباحًا، وتلتقى بتوفيق الحكيم في التاسعة .. وقد يقابلك أحمد بهاء الدين الذى يمر في مواعيد غير محددة .. ورؤساء تحرير الصحف جميعهم يسألون مدبولي الابن عن الجديد . ويمكن أن تشاهد الكاتب الصحفي أنيس منصور الذى تربطه علاقة وثيقة ووطيدة مع الحاج مدبولي الابن، وأيضًا الدكتور مصطفى محمود، والدكتور أمين العالم، وغيرهم من قمم الثقافة المصرية ويمكنك أيضًا أن تقابل عددًا من الممثلين الكبار مثل الفنانة الكبيرة فاتن حمامة، وصلاح ذو الفقار، وصلاح قابيل، وكرم مطاوع، وغيرهم من الفنانين الذين يحتلون مكانة كبيرة ومتميزة في الحياة الفنية بمصر . لأن كشك مدبولي كان جزء لايتجزأ من النهضة الأدبية والفنية التي شهدتها مصر في بداية الخمسينيات والستينيات، بل إنه كان ملتقى المثقفين والفنانين والمبدعين الذين يتداولون المناقشات والمساجلات الفكرية .. والسياسيين الذين يناقشون قضايا الوطن وهمومه .وقد قال لي الأديب يوسف القعيد أحد الذين عاصروا فترة كشك مدبولي «لقد زاركشك مدبولي عددًا من الأدباء والمؤلفين.. فقد قام بزيارتهم عيسميح القاسم، والطيب صالح، وعزمي بشارة عندما أتى إلى مصر لأول مرة، وإميل حبيبي، ومحمد مهدى الجواهري، وعبدالوهاب

البياتي، وأذكر أن محمود درويش التقط صورة له بالقرب من كشك مدبولي على بعد خمسة أمتار فقط .. ولو أن الحاج مدبولي كان له كاميرا فيديو أو كاميرا تصوير فوتوغرافي، وأخذ صورة لكل من زاره أو تردد على كشكه أو اقتنى كتبًا من عنده من الكُتاب والأدباء والمفكرين لأصبح لديه ثروة نادرة .. » ويضيف القعيد : «كنا في أواخر ستينيات القرن الماضي وأوائل سبعينيات القرن المنصرم، عندما نأخذ مواعيدًا من بعض نجعلها أمام كشك مدبولي .. فكنت أخذ مواعيدي من جمال الغيطانى عند الحاج مدبولي أو كنت أقول له سنتقابل عند الكشك .. » .

وكان الحاج مدبولي دائمًا جاهزًا، فإذا خطر على بال أي قارئ أن يسأله عن كتاب مثلاً لمحمد حسنين هيكل أو مذكرات محمود رياض أو رواية لجمال الغيطانى فسوف يرد عليه مدبولي الابن بسرعة تلقائية مبينًا: إذا كانت قد نفدت أم لا، وما هو محتواها؟! وأي دار نشر أصدرتها. لأن الحاج مدبولي كان يسافر إلى لبنان أو أوروبا أو أي مكان في العالم من أجل الحصول على الكتاب . يقول أحد الصحفيين الذين كانوا يترددون على مدبولي من أجل اقتناء ما هو جديد في عالم الكتب : «في الستينيات كان مدبولي «يجيب» لنا الكتب من لبنان أو من أوروبا أو من أي مكان في العالم .. فكنا نقول له عايزين كتاب في الإخراج المسرحي لهينجني لمز يا عم مدبولي . كان رده بعد أسبوع يكون الكتاب موجود، عايزين كتاب اللامنتمى «لكولن ولسن» بعد أسبوع يكون الكتاب عندك، عايزين كتاب محى الدين بن عربي، عايزين كتاب طه حسين، عايزين كتاب حرب يونيو عايزين كتاب في الموسيقى .. في المسرح .. في الرسم، في الطبخ، في العلوم ... إلخ .. فمدبولي جاهز دائمًا وحاضر دائمًا .. » .

وقد لعب كشك الحاج مدبولي دورًا أساسيًا في حياة المثقفين والسياسيين المطاردين من قبل البوليس السياسي.. قال لي الحاج مدبولي: «أحب أن أضيف أن الكشك لعب دورًا أساسيًا في حياة المثقفين المطاردين من قبل البوليس السياسي في تلك الفترة التي كانت ملتهبة سياسيًا والاعتقالات كثيرة .. فكان أصدقائي من السياسيين والمثقفين يأتون إلىّ وبحمد الله كنت أجد لهم المأوى المناسب لأنى كنت خبيرًا بأمور المنطقة، ولو كنت غير وطني لأرشدت عنهم وفى المقابل أحصل

على مكافآت مالية كبيرة، ولو فعلت ذلك لكونت ثروة من ورائهم .. ولكنى رفضت لأنني أعتبر كل المثقفين أبنائي وأعتبر نفسى واحدًا منهم ...» .

إزالة كشك مدبولي :

احتفظ الحاج مدبولي بعد تأسيس مكتبته الحالية بالكشك القديم المقابل للمكتبة على الرصيف نفسه وذلك لأنه يمثل رمزًا وشعارًا للثقافة وأنه ساهم في بلورة أفكار معظم الكتاب والرؤساء العرب والأفارقة .. إلا أن حكومة السادات أصدرت أوامرها بإزالة الكشك .. وقد تعرض الكشك قبل إزالته للإغلاق أكثر من مرة.. فكانت بلدية القاهرة تغلق الكشك أربع مرات في اليوم الواحد !!

أسباب إزالة كشك مدبولي :

تعددت أسباب إزالة «خص الثقافة» أو ما يعرف بكشك المعلم مدبولي وتباينت فقيل كانت الإزالة بسبب بيع «الحاج مدبولي» ديوانًا للشاعر الشعبي الساخر أحمد فؤاد نجم يحمل نقدًا لاذعًا للرئيس السادات لأن «المعلم مدبولي» كان ماهرًا فى تهريب أشعار نجم الانتقادية اللاذعة إلى مصر بعد طباعتها فى الخارج .. وقيل لأهمية «كشك مدبولي» الثقافية والسياسية .. وقيل أن الكشك يتيح الفرصة للكتاب أن يعبروا عن رأيهم المعارض لنظام السادات من خلال الكتب التي ينشرها لهم مدبولي .. وقيل بسبب رفض الحاج مدبولي نشر كتاب عن «جيهان السادات» وقال بهذا السبب الأديب يوسف القعيد عندما قال لي«عندما أصدر اللواء سعد مأمون محافظ القاهرة في تلك الفترة أمرًا بإزالة كشك الحاج مدبولي .. اتصلت بمكتبه وأخذت موعدًا باللقاء بغرض مناقشته في أمر الإزالة.. وفى يوم المقابلة ذهبت ومعي الحاج مدبولي .. فقال له المحافظ أمامي : «ياريت يا حاج مدبولي لو أنا وقعت في مشكلة في يوم من الأيام ألاقى ناس تتكلم وتدافع عنى زي الناس الذين يدافعون عنك .. ياحاج مدبولي أنا لا أستطيع أن أفعل لك شيئًا لأن القرار تعليمات عليا أكبر من سلطاتي» .. ساعتها فقط والكلام ليوسف القعيد – تأكد لي أن الموضوع مرتبط بكتاب «جيهان السادات » الذى رفض مدبولي نشره ... » .

وعند سؤالي الحاج مدبولي عن السبب المباشر لإزالة كشكه قال لي«بعد تأسيس المكتبة الحالية حرصت على الحفاظ على الكشك القديم وذلك لأنه رمز وشعار .. وقد لعب دورًا أساسيًا في حياة المثقفين المطاردين من «البوليس السياسي» وأنه ساهم في بلورة أفكار معظم الكتاب والرؤساء «وكثيرون منهم كانوا يشترون منى الكتاب بنظام التقسيط».. وأن الاستخبارات الأمريكية ذكرت في أحد تقاريرها أن «كشك مدبولي» هو أخطر ظاهرة في مصر .. فوجئت بإصرار محافظ القاهرة سعد مأمون على إزالة الكشك ، وبعد تدخل عدد كبير من الكتاب لمحاولة منع الإزالة علمتُ أن الرئيس السادات وراء القرار لأهمية الكشك الثقافية والسياسية» .

سقوط كشك مدبولي :

قبل صدور القرار النهائي بإعدام كشك مدبولي .. تكررت محاولات بعض محافظي القاهرة لرفع الكشك ومحو آثاره عن طريق إصدار التعليمات تلو الأخرى للبلدية أو القسم أو رئاسة الحى .. وفى كل مرة ترتفع أصوات المثقفين عالية مطالبة بوقف الأمر وتعطيله وكان على رأس المطالبين بتعطيل القرار الكاتب الكبير أنيس منصور الذى يقوم بالاتصالات وبالكتابة والدفاع عن الكشك لأنه يعلم ككل المثقفين أن الكشك منارة ثقافية هامة ينبغي الحفاظ عليها .. ومن الأصوات التي كانت تنادى بعدم إزالة الكشك أيضًا الكاتب الساخر «أحمد رجب» الذى كتب في جريدة الأخبار الصادرة بتاريخ 2/ 11/ 1977م في 2/ 1 كلمة : «مكتبة مدبولي«يقصد الكشك» – إحدى المنارات الثقافية بشارع طلعت حرب من 40 سنة – قررت المحافظة إزالتها من الميدان . ستنشئ مكانها مطبًا» .. كما كتب الأستاذ نبيل في«دبابيس» : «في الوقت الذى تنتشر فيه الأكشاك التي تبيع البضائع المستوردة والحبوب والعقاقير المنشطة .. وأشياء أخرى أخجل من ذكرها – تمتد المعاول لكى تتهدم وتزيل (كشك مدبولي) الشهير الذى ظل ينشر الثقافة والمعرفة طوال أربعين عامًا .. أرجو محافظ القاهرة سعد مأمون أن يتدخل.. فلا أظن أبدًا أن «الكشك» يشوه جمال ميدان سليمان باشا – «طلعت حرب حاليًا» – بالعكس سيصبح الميدان الجميل قبيحًا جدًا بدون «كشك مدبولي» إلا أن صرخات المثقفين

ومحاولتهم لوقف إزالة كشك مدبولي ذهبت أدراج الرياح .. لقد أُزيل الكشك لا بل سقط وتكدست الكتب فوق بعضها البعض وبكت الثقافة وصرخ الحاج مدبولي قائلاً «شعرت بأنني تحولت إلى جثة هامدة وأنا أرى الكشك يحتضر ..» .

صحافة زمان وسقوط كشك مدبولي:

أحمد رجب ، وأحمد بهجت ، وعبد العظيم رمضان وغيرهم من كتاب التحقيقات والأعمدة والصحفيين كتبوا كثيرًا عن سقوط كشك مدبولي وتسويته برصيف طلعت حرب الذى أصبح أوسع مما كان عليه كشك مدبولي .. كتبوا ككتاب وكصحفيين ، سعدوا بهذا الكشك باعتباره فترينه ثقافية تقدم الفكر والمعرفة كما أنهم قرروا الاعتصام بجوار الكشك يوم الإزالة هم وإخوانهم من المثقفين العرب إلا أن الحاج مدبولي رفض ذلك حرصًا على سلامة الجميع . فقد كتب أحد كتاب مجلة «روز اليوسف» الصادرة في 14 نوفمبر 1977م تحت عنوان «غرزة عم مدبولي» : «الأن فقط تستطيع بلدية القاهرة أن تستريح .. فقد أدت واجبها، وطهرت ميدان طلعت حرب من غرزة عم مدبولي الشهيرة .. التي كانت تحرض الناس علنًا على شراء الكتب والصحف والموسوعات! الأن أصبح الميدان للبوتيكات وحدها .. وأصبح في استطاعة العائلات المحترمة أن ترتاده لشراء البنطلونات الجينز والسوتيانات وارد باريس والبلوزات المكتوب عليها «كيسمي» .. و«لاف مي مور» .. دون أن يحرجها المنظر الفاضح لشاب يقلب في صفحات كتاب أو فتاة عديمة التربية تلبس نظارة وتحتضن نسخة من قاموس.. والأن أصبح مؤكدًا أن أمثال مدبولي سيتعظون ويفهمون أن الأكشاك التي استأجروها يجب أن تخضع للذوق البوتيكى العام، ولا تشوه جمال العاصمة بالمناظر الثقافية الدميمة .. وإذا كانوا متمسكين ببيع الثقافة في الطريق العام فليفعلوا ذلك في بلاد أخرى.. وباب الهجرة والحمد لله مفتوح .

وكل عام يهاجر عشرات من الكتاب والعلماء والخبراء والممثلين والمخرجين .. وباعة الثقافة لن يكونوا أعز على مصر – بالطبع – من صناعها – والحق أن موقف بلدية القاهرة من الكتب لا يمكن اتهامه بأنه سطحي أو مرتجل.. فمكافحة الكتب دستور أصيل لديها، ومبدأ خاضت تحت لوائه معارك تاريخية سابقة.. ومنذ سنوات

سجل رجالها بطولات نادرة في معركتها المصيرية ضد سور الأوزبكية .. وبرغم المقاومة الباسلة التي واجهتها في ذلك الوقت نجحت في تحويل نصف السور إلى بوتيكات ، ثم قبلت الهدنة مع النصف الآخر الذى مازال يبيع الكتب .. ولكن بشروطها هي، ريثما يبتكر خبراؤها أسلحة جديدة تمكنها من نقض الهدنة.ولا أحد يدرى في الواقع سر هذا العداء الأصيل بين البلدية والكتب.. ولا أحد يدرى كيف يمكن التوصل إلى حل له.

هل قتل أحد من عائلة الصحف أحدًا من عائلة البلدية ؟ إذا كان هذا فلا بأس من جلسة عرب تحقق فى الموضوع ، وتعقد الصلح بين الطرفين . وباعة الصحف مستعدون – كما فهمت من بعضهم – لدفع «الدية» .

هل في عائلة البلدية فرع أمي لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يميز بين «مختار الصحاح» وصندوق الأحذية، ونتيجة لهذا لا يدرك أبعاد الفضيحة التي يرتكبها عندما يطهر الشارع من الكتب ؟ إذا كان هذا فلا بأس من فصل خاص لمحو الأمية ينشأ خصيصًا لرجال البلدية ، وينفق عليه من صندوق يموله باعة الكتب .. وستكسب البلدية في هذه الحالة موظفين يقرأون ، ويضمن الباعة ألا يعود أحد يطارد سلعتهم . لأن الذى يقرأ لا يجرؤ على إيذاء ورقة فيها كتابة وإن كان لا يفهمها .

إن الشيء الوحيد الذى فوق القانون في جميع بلاد العالم المتحضر هو الكتاب .. في لندن لا تسمح المسارح باستثمار مداخلها لبيع أية سلعة غير الكتب .. وفى موسكو لا تبيع الدولة سلعة بأقل من ثمة التكلفة إلا الكتب.. وفى لبنان لا يخضع للضرائب الورق الذى تطبع عليه مؤلفات العرب .. وفى باريس نظام صارم لحماية شاطئ نهر «السين» من التشويه، يستثنى من الخضوع له باعة الكتب.. لأن منظر الكتب من وجهة نظرهم تجميل لا تشويه. ونحن بالتأكيد بلاد متحضرة .. بل إن الرأيالعام المثقف في العالم يعتبرنا المصدر الأم لمعظم الحضارات القديمة والحديثة.. ولكن رجال البلدية فيما يبدو متفرغين لإثبات العكس.. كل حملة لتجميل القاهرة عندهم تبدأ بإزالة الكتب.. كل صحوة لتنظيف الشوارع تبدأ بتنظيفها من الكتب.. كل زحف لفرض القانون والنظام يبدأ بسحق الكتب.. كل مشروع لتحسين سيولة المرور يبدأ

بكسح الكتب من الطريق ..

لو كان ميدان طلعت حرب هذا في باريس أو لندن ، أو طوكيو .. لعقد المسئولون عن إعادة تخطيطه عشرة اجتماعات لوضع خريطة تتجنب كشك عم مدبولي ، وتدور حوله وتحافظ عليه باعتباره أجمل المعالم في الميدان ولأعادت توزيع الإضاءة بحيث يكون هذا الكشك أول ما يلفت النظر ، حتى يدرك السائح أنه فى بلاد يحترم فيها الكتاب ، ويدرك ابن البلد أن الصفحات المعروضة حول هذا الكشك أهم كثيرًا من جميع البنطلونات والسوتيانات التي تحاصره من باقي أرصفة الميدان. وقد كانت القاهرة أجدر بأن تفعل هذا لأنها أعرق من باريس ولندن وطوكيو . ولكن إدراك هذه الحقيقة يحتاج بالطبع إلى مثقفين وميزانية البلدية فيما يبدو ليس فيها بند يسمح باستخدام مستشارين من هذا الصنف من الناس !

إن حادثة إزالة كشك الكتب من ميدان طلعت حرب حادث مخجل بكل المقاييس.ونحن في هذه الأيام نكتب كثيرًا، ونقرأ كثيرًا، عن الذين يشوهون سمعة مصر في الخارج. فماذا عن الذين يشوهون وجهها في الداخل ؟

إن هؤلاء هم الذين يقدمون لحملة التشويه الخارجية ما يلزمها من موضوعات ويحرموننا من أي سلاح للرد عليها.. فنحن لا نستطيع أن نقنع العالم بوسامة وجه نتولى تشويهه بإصرار. وإزالة كشك مدبولي جزء من التشويه ، وقصتها ستروى بالتأكيد في الأيام القليلة القادمة .. وستحسب علينا .. لا لأن العالم يعرف مدبولي ، ولكن لأنه يعرف الكتب ولأنه يعرف ، ويكره ، طراز التفكير الذى يؤدى إلى إزالة كشك يبيع الكتب .

ومهما تكن بلاغة المدافعين عن سمعة مصر ، والمستميتين في التصدي للحملات المعادية لها ، فإن العالم المتحضر لن يقتنع أبدًا بأن مصر صارت أجمل بعد أن طردت الكتب من نصف سور الأوزبكية ، وبعد أن أزالت من أشهر ميدان فى القلب التجاري لعاصمتها مترين مربعين كانت تحتلها الكتب . إن الدولة يجب أن تتخذ إجراءً حاسمًا لوقف هذا العداء المخجل للكتب من جانب بلدية القاهرة ..

ويجب أن تستقدم خبراء في الطب النفسي لمعالجة هذا المرض الجديد الذى يجعل موظفي البلدية يفقدون صوابهم كلما رأوا كتابًا على الرصيف ، ولا يرتاحون إلا بعد إزالته .. ومن يدرى ؟ لعل هؤلاء الخبراء ينجحون فى حل العقدة ، وإقناع البلدية ومسئوليها بأن الكتب لا تعض ، وأنه لا مانع من وجودها بجوار الولاعات والسجاير والبلوزات .

ولن يكون ضائعًا أي مال تنفقه على هؤلاء الخبراء،في سبيل إنقاذنا من الفضيحة المؤلمة: فضيحة أن تكون أول بلاد في التاريخ صدر عنها كتاب، ثم ننحدر لنصبح أول بلاد تطارد الكتب، وتطهر منها الشوارع!

جريدة الجمهورية :

كتب دكتور عبد العظيم رمضان في جريدة الجمهورية الصادرة بتاريخ 11/ 11/ 1977م تحت عنوان «محاولة تسوية المكتبة بالأرض» - كان يزورني«مؤرخان مستشرقان من جامعة شيكاغو قد تعودا عند قدومهما إلى القاهرة التوجه إلى كشك مدبولي لتفقد المؤلفات العربية في جميع أنحاء الوطن العربي ، وجاءت مناسبة اعتزام محافظة القاهرة رفع الكشك وتسويته بالأرض ! فتساءل أحدهما : أيهما أفضل وأصلح الإبقاء على معلم من معالم الميدان ظل باقيًا منذ أربعين عامًا يقصد المفكرون والمثقفون أم إزالته لإضافة بضعة أمتار مربعة خالية إلى رصيف الميدان ؟!

مجلة الإذاعة والتلفزيون :

تحت عنوان «معركة كشك مدبولي» كتب محمود سالم في مجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ 12/ 11/ 1977: «في كل يوم تخسر الثقافة أرضًا تحتلها حلل الكشري .. أو قمصان النوم وعلب الكريم المستوردة وأصابع الكباب وساندويتشات الفول.. فقد استطاعت قوات البلدية المدعمة بالطائرات والمدفعية والمصفحات اقتحام أهم قلعة للثقافة في وسط القاهرة «كشك الحاج مدبولي» وسقط أهم كشك كان يضئ ميدان سليمان .. سقط أهم كشك يعرفه مثقفو مصر كلها

والعالم العربي كله.. كشك وقف أمامه جمال عبد الناصر يشترى صحف الصباح ووقف أمامه توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعي، ويوسف إدريس، ويحيى حقي، ونزار قباني والطيب صالح.. وغيرهم وأن الرئيس السادات وقف عند هذا الكشك مرة ومرات يقلب الكتب وينتقى ويشترى .. سقط كشك مدبولي .. وصدق توفيق الحكيم:«نحن نتحول من شعب متحضر إلى شعب من آكلي الكباب».

جريدة الأهرام :

في صندوق الدنيا كتب أحمد بهجت في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ 6/ 11/ 1977م تحت عنوان «كشك مدبولي» : «في عالم لا يتحدث فيه الناس إلا عن الأمراض والمشاكل والنقود ووسط مجموعة البنوك والبوتيكات ومحلات الجزم والشنط والملابس الداخلية وسط هذا كله يقف كشك مدبولي نافذة تطل على الفكر والثقافة والأدب ويرمز الكشك إلى أن أجمل ما فى عالمنا هو حاجات العقل والروح التي يرمز إليها الكتاب .. وفجأة بدأت الإصلاحات في ميدان طلعت حرب ، بدأ توسيع الرصيف وتضييق الصينية ، ثم عدلوا عن هذا إلى ذاك وبدأوا يوسعون ما ضيقوه ويضيقون ما وسعوه وصدرت التعليمات لمدبولي أن يحمل كتبه وجرائده ويرحل .. سأل لماذا ؟ فقالوا سنزيل الكشك ! سأل لماذا ؟ فقالوا أن التخطيط الجديد للميدان ليس فيه كشك للكتب والصحف!! هذا هو الخبر .. وفى المسابقة التي أجريت بين الرسامين الفرنسيين لرسم ملصقات ترمز لباريس ، فازت صورة لم يرسم فيها الفنان غير كشك للكتب في شارع من شوارع موغارتر ، فقد صارت أكشاك الكتب في باريس رمزًا لمدينة النور المثقفة .. هل كشك مدبولي هو الذى يفسد جمال الميدان ويعوق المرور فيه .. نريد أن يكون في القاهرة ألف ألف مدبولي وألف وألف كشك للكتب والصحف .

والخلاصة كما قال أحد الصحفيين : «كشك مدبولي أحد معالم القاهرة الثقافية منذ سنوات كثيرة .. قرر خبراء «السياسة» وخبراء تجميل الشوارع بمحافظة العاصمة إزالته حرصًا منهم على جمال ميدان طلعت حرب بعد أن تبين لهم أخيرًا أن الكتب والثقافة يتنافران مع الجمال.

مكتبة مدبولي

■■■

«الإنسان تاريخ وأنا تاريخي هنا جوه المكتبة دي»

الحاج مدبولي

هي النجمة المتلألئة في سماء الثقافة العربية .. هي الإشعاع الحضاري الكبير الذى يبعث نوره في سماء الوطن العربي من المحيط إلى الخليج ،فهي سفيرة الثقافة العربية، ونهضتها وتراثها الكبير الذى ينهل من فيضه المثقفون والشعراء لزيادة معرفتهم وثقافتهم .. وهى الأعجوبة الكبيرة في العلوم والفنون والآداب والفكر والمعرفة .. وهى هرم الثقافة الشامخ وعنوانها .. وهى الملكة المتّوجة على رؤوس منارات الثقافة والمعرفة .. وهى الجوهرة الثمينة والكنز المعرفي الثقافي الواسع الانتشار الذى ينثر معارفه على جميع المكتبات العربية والدليل : «قلما نجد مكتبة عربية لا يوجد فيها كتاب موقع باسم مدبولي» .. فهي تنشر آلاف الكتب المتنوعة وتقوم بتوزيع المئات.. يقول سامى كليب مقدم برنامج «زيارة خاصة» بقناة الجزيرة الفضائية : «يمكن القول بدون أي مبالغة إنه قلما نُشر كتاب فى العالم العربي دون أن يمر على مكتبة مدبولي أو يستقر فيها ، حتى أصبحت ملتقى لكل أبناء الوطن العربي وفى خلال تصويرنا لحلقة «الحاج مدبولي» التقينا بجنسيات عربية كثيرة داخل المكتبة منهم الطبيب البحريني الدكتور أحمد محمود الذى قال للبرنامج : «بالنسبة لي شخصيًا من الأشياء المهمة عند زيارتي لمصر ، زيارة مكتبة مدبولي للاطلاع على آخر الإصدارات لأن المكتبة تحمل الكثير من الكتب الثقافية .. ولقد تعودت على زيارة مكتبة مدبولي من أيام ماكنت طالبًا في السبعينات .. وأعتقد أن أهم ما يميز المكتبة البساطة وتوفير كل ما يحتاج إليه القارئ أو الباحث فمثلاً إذا سألت عن كتاب في تاريخ الحركة الصهيونية تجد كذا كتاب وكلها حديثة الإصدار» . وهذا دليل آخر على

أن مكتبة مدبولي من أهم وأكبر المكتبات العربية على الإطلاق فكما رأينا فإنه قلما يأتي مثقفًا أو سياسيًا إلى مصر دون أن يزور هذه المكتبة التي باتت جزء من معالم القاهرة بل إنها أصبحت تماثل وتطاول أهرامات الجيزة يقول يوسف القعيد : «مكتبة مدبولي أصبحت تساوى الهرم ، ويصنفها الناس بأنها تمثل المكتبات القديمة في مصر التي لها عبق خاص جدًا ولها جمهورها الذى يقصدها حتى لو كان الكتاب متوفرًا في المكتبة التي تقع إلى جوار منزله .. وأعتقد أن الإقبال عليها سيظل قائمًا مستمرًا لأنها علامة من علامات الثقافة العربية».

ولهذه الأسباب أصبح جزءًا من برنامج السائح العربيفي القاهرة زيارة مكتبة مدبولي والاطلاع على الجديد في عالم النشر والكتاب ، أيًا كان الهدف ، ثقافيًا أم سياسيًا أم كتب أبراج وطبخ . فقد عوّدهم الحاج مدبولي ، على توفير ما يطلبون بدون رقابة أو محاذير سواء في مجال الإبداع الأدبي أو الفكري أو السياسي ، كل هذا دفع المثقفون في مصر والعالم العربي ، وكثيرًا من الدول الأفريقية إلى وصفها ببورصة الكتاب والقارئ والباحث .. ودفع البعض إلى القول : بأن الناس تذهب إلى القاهرة لتستمتع بالنظر إلى نهر النيل وتشاهد الأهرامات ولتستمع إلى كوكب الشرق أم كلثوم وختام الرحلة في مكتبة مدبولي ...» .

ومكتبة مدبولي التي تحتفظ بتاريخ الثقافة المصرية بين رفوفها المتلاصقة لم تكن الوحيدة في مصر قد سبقتها في التأسيس مكتبات : الحلبى ، وصبيح ، ودار الشعب وقد زامنتها مكتبات دار المعارف ، والنهضة المصرية ، ودار الفكر العربي .

تأسيس مكتبة مدبولي :

نتيجة لاتساع نشاط الحاج مدبولي في «ميدان سليمان باشا» – طلعت حرب حاليًا وتعرضه الدائم لحملات شرطة المرافق فكر الحاج مدبولي في تأسيس مكتبة تصبح مقرًا ودارًا لعملية النشر التي بدأ فيها وهو داخل الكشك .. وكانت القاهرة عندما وضع مدبولي الفكرة موضع التنفيذ – هادئة جميلة . وشوارعها خالية من مظاهر الزحام،ومزدانة بالأشجار على جانبي الطريق.. وبالفعل افتتح الحاج مدبولي أول

مكتبة له في عام 1968م عندما اشترى مكتبة «هاشيت» التي كانت تقع في 14 شارع سليمان باشا «بعد ميدان سليمان باشا وقبل ميدان التحرير» بجوار مكتب الطيران الفرنسي في عمارة شركة الشرق للتأمين المواجهة لمقهى ريش الشهير .. وقد استمر الحاج مدبولي بتلك المكتبة خمس سنوات لم يترك خلالها «كشك الميدان» الذى كان أفضل حالاً من المكتبة .. إلا أن مدبولي تعرض لخسارة كبيرة بسبب تلك المكتبة . يقول الحاج مدبولي : «في عام 1968م اشترينا أول مكتبة لنا لبيع الكتاب العربي والأجنبي على ناصية ميدان طلعت حرب الحالي .. إلا أننا خسرنا كثيرًا فبعنا تلك المكتبة.. » وقد اشترى المستشار الثقافي لسفارة العراق بالقاهرة تلك المكتبة وجعلها دارًا للكتاب العربي، ثم أصبحت بعد ذلك مقرًا لوكالة الأنباء العراقية. ثم تم إغلاقها بسبب الاحتلال الصهيوني–الأمريكي الفارسي للعراق .

مكتبة مدبولي الحالية :

يقول الأستاذ يوسف القعيد : «بعد خسارة مدبولي في المكتبة الأولى .. استدان ثم ادخر .. ثم اشترى المكتبة الحالية» وتأكيدًا لكلام القعيد يقول الحاج مدبولي «بعد خسارتنا زاد إصرارنا على تجاوز المحنة وبالفعل انتصرنا عليها واشترينا المكتبة الحالية والتي كان يقع أمامها كشك الجرائد .. ولقد وضعنا أنا وأخي كل ما نملك لتكون المكتبة الجديدة مدعومة بكل ما هو فكرى ، وعلمي ، واقتصادي ، واجتماعي، وسياسي ، وكل ما يلائم جميع نوعيات القراء .. كما كان من الضروري أن يكون للمكتبة اتجاه جديد فقمنا بتزويدها بقاموس اللغة ، وأدخلنا الكاسيت التعليمي لأول مرة في مصر ، ووفرنا المعاجم وكتب الشعراء والتراث ، وأدخلنا الأسطوانات الكلاسيكية لبيتهوفن وموذار..» وهذه حقيقة عندما يدخل القارئ إلى مكتبة مدبولي الحالية يمتلكه إحساس بأنه في إحدى مكتبات إنجلترا أو باريس – فيجد صفوفًا من الكتب مبوبة ومفهرسة ومنظمة : علوم ، فنون ، ثقافة ، تاريخ ، أدب ، فكر ، سياسة ، دين ، كمبيوتر ، أسطوانات كاسيت وسى دي ، دروس علمية، مراجع ، دوائر معارف، أمهات الكتب التاريخية والإعلام والزراعة والكنوز

المصرية والعربية والعالمية .

وقد كان افتتاح مكتبة مدبولي الحالية في عام 1974م وذلك عندما أعطاه الخواجة «ايفرجرين» حجرتين فارغتين بواسطة «إبراهيم البواب» . وقد كانت مساحة الحجرتين 180 مترًا كما استأجر مدبولي حجرتين علويتين في مبنى جرين حولهما إلى مكتبة .. ثم اشترى مكتب سياحة في نفس العمارة وبه تكتمل مباني مكتبة مدبولي الحالية التي دعا لافتتاحها عددًا من أصدقائه الأدباء القاهريين الذين لبوا نداء الثقافة والمعرفة .. وقد زاره بعد افتتاح المكتبة الأديب يوسف السباعي وزير الثقافة في تلك الفترة.. وزاره أيضًا صديقه الحميم الشاعر نزار قباني مهنئًا بافتتاح المكتبة.

وبهذا الافتتاح بدأت مكتبة مدبولي تضع الخطوات الأولى والواثقة نحو النجاح والتفوق والازدهار بعد أن تميزت إصداراتها بالعمق والثراء نتيجة لاعتمادها على المفكرين والأدباء والمبدعين ، وارتباطها بالواقع الفكري والثقافي ومواكبتها لما يدور في المناخ الثقافي العالمي .

لم يقتصر نشاط المكتبة الجديدة على بيع الصحف والمجلات بل بدأ تفكير صاحبها يتجه نحو بيع الروايات والقصص بناء على طلب المثقفين العرب والأجانب.. فعرف مدبولي طريقه إلى بيروت وبدأ يستورد كل جديد في مجالات الرواية والأدب والفلسفة .

ثم ابتدعت مكتبة مدبولي فكرة إعطاء القراء والأدباء والمثقفين الكتب بالتقسيط أو عن طريق البيع بالأجل . يقول الحاج مدبولي : «في بعض الفترات كنا نتعامل مع المثقفين بنظام الدفتر أو الكوبونات –أي أن يشترى المثقف الكتاب بالكوبون وتسديد سعره على فترات أي بالتقسيط . وكانت هناك أحيانًا استعارات للكتب ولم نكن نبخل على أحد بأن يستمتع ويستفيد بالقراءة للكتب. وأذكر في هذا المقام واقعة غريبة جدًا سجلها أحد الشباب في مذكراته موصيًا أخاه بأن يسدد لىّ ثمن كتاب قد أخذه دون أن يدفع ثمنه وتوفى هذا الشاب وسدد أخوه الثمن بالفعل بعد أن أطلعني على المذكرات» . وهذا هو الأديب يوسف القعيد يؤكد كلام الحاج مدبولي بقوله :

«كنت أذهب إلى الحاج مدبولي وليس معي نقود فكان يعطيني الكتب بالأجل وهذا كان شيئًا نادرًا يفعله معي ومع الشباب الذين كان يشعر برغبتهم الحقيقية في تثقيف أنفسهم وتحول دون ذلك قدراتهم المالية » . وهكذا مع الأيام تحولت مكتبة مدبولي إلى أكبر نقطة إشعاع في المنطقة العربية وجامعة تخرج فيها معظم الحكام العرب الذين قال بعضهم : « تعلمنا في مكتبة مدبولي مثل ما تعلمنا فى جامعة القاهرة ، وأحيانًا كنا نستعير الكتاب أو الرواية بل نقترض بعض المال من مدبولي حتى تصلنا التحويلات من أهلنا » .

وهذه حقيقة فمكتبة مدبولي تعد مدرسة علمية وجامعة مستقلة تخرج منها الكثير والكثير من الكتاب والأدباء والسياسيين ونجوم الفن في مصر والوطن العربي ومازالت تمثل مركزًا ثقافيًا للفكر الإنساني الحر.

ومازالت مكتبة مدبولي متمسكة بالشكل التقليدي للكتاب رغم الظهور الفعلي للكتاب الإلكتروني يقول الحاج مدبولي : «مع فجر القرن الحادي والعشرين بكل ما يحمله من تطورات مذهلة فى مجالات تكنولوجيا المعلومات بوجه عام وصناعة الكتاب على وجه الخصوص ، فإن مكتبة مدبولي– ولأسباب معروفة تتعلق بواقع المجتمع المصري والعالم العربي–مازالت متمسكة بالشكل التقليدي للكتاب ، سواء في أسلوب اختيار موضوعه أو مراحل إنتاجه حتى شكله النهائي كمصنف ثقافي يتعامل معه القارئ . فنحن في مكتبة مدبولي ننحاز إلى جانب الكتاب المطبوع ونجد صعوبة في أن نتصور البديل الذى يحل محلّه في كل وقت وفى أي مكان كما أننا بنفس الإيمان نسعى لإصدار كتاب جيد شكلاً وموضوعًا وهذا لا يعنى أننا لسنا مع التقدم العلمي والتطور التكنولوجي إلا أننا نتحدث في فجر القرن 21 وحتى منتصفه على الأقل ونكرر أن الكتاب المطبوع هو سيد وسائل التثقيف .

فروع مكتبة مدبولي:

امتد نشاط مدبولي واتسع حتى وصل إلى أوروبا .. فافتتح في لندن سوقًا تجاريًا

للكتاب عبارة عن دار سينما ومكتبة تولى إدارتها الراحل «أحمد مدبولي» طوال 22 سنة .. وقد تمت تصفية هذا الفرع بعد وفاته .. ثم ساهم مدبولي في إنشاء مكتبة لأبنائه أطلقوا عليها «مكتبة مدبولي الصغير» وعنوانها 45 شارع البطل أحمد عبد العزيز بالمهندسين ، ويتولى إدارتها «محمد أحمد مدبولي» كما افتتح مدبولي فرعًا ثالثًا لمكتبته وهو فرع طيبة 2000 طريق النصر بمدينة نصر .

ومكتبة مدبولي تضم حوالى اثنين مليون كتاب في شتى فروع المعرفة .. إلا أن الحاج مدبولي عندما سُئل عن عدد الكتب التي تضمها مكتبته قال لسائله : «إذا تركنا الأرقام فإنني أستطيع أن أحدثك عن حلمى ، وهو أن تصبح مكتبتي أكبر مكتبة في العالم ، وأن يصلني الكتاب الجديد من أي مكان في العالم ، من المطبعة رأسًا» .

مدبولي ناشرًا

■■■

«إنني على استعداد لأن أموت من أجل توفير كتاب جديد»

الحاج مدبولي

لا يمكن استكمال الصورة الأولية لحركة النشر الخاصة للكتاب في مصر والوطن العربي دون التعريج والوقوف على الحاج مدبولي الذى يمثل حالة نموذجية فريدة يتم الإجماع عليها .. حالة عاصرت عملية النشر من الفترة التي شهدت سقوط الملكية التركية في مصر وإلى الفترة الحالية.. حالة تتعامل مع الكتاب بحياد تام بدون خلفيات أيديولوجية تحكم اختياره سوى الموضوع الذى يحترم عقل القارئ ويضمن نجاح تسويق الكتاب عند عرضه في بورصة الكتاب .

وبداية مدبولي المبكرة في مجال النشر تجعله عميدًا للوراقين والناشرين العرب بلا منازع فهو أكبر الناشرين سنًا وأعمقهم تجربة ، وأوسعهم انتشارًا وشهرة وبراعة .. فهو الناشر الوحيد الذى استطاع تحويل الكتاب إلى خبز للناس جميعًا دون أخذ تذكرة مرور من وزارة الثقافة أو تجمعات وأحزاب المثقفين .. فكان حفيدًا بارًا للوراقين العرب الأوائل، ورجلاً مناسبًا للمرحلة العربية، في ساحته، ساحة صناعة الكتاب ونشره التي جعلته خبيرًا في قراءة المزاج الثقافي السائد.. فكان يعرف قراءه من سيمائهم . يقرأ في عيونهم هواهم الفكري والسياسي ، فيمسك بأيديهم نحو غرف خلفية هي مخابئ الكتب المحظورة التي يحرص على ألا تكون في فاترينة العرض في المكتبة ، ولا في رفوفها الظاهرة ، وهناك يدهشهم بمعرفته بما تحتويه تلك الكتب ، وعلى طريقة همس المحكوم وراء ظهر الحاكم ، كما يقول «جيمس سكوت» كان بوسع الحاج مدبولي أن يقدم فكرة وافية عما يتوقع أن تكون الكتب التي يقترحها عليهم تحتويه» .

ولم يكن الحاج مدبولي مثقفًا ، فهو لم ينل إلا القليل من التعليم ، بل لعله لم ينل منه شيئًا نظاميًا على الإطلاق – لكنه صانع المثقفين بمقدار ما كان العديد من هؤلاء المثقفين نتاج الكتب التي كان يطبعها ويُوزعها ، فهو لم يكن مجرد ناشر وإنما كان دليل المثقفين إلى الكتب التي تُكوّن معارفهم وتصقل مواهبهم أكد هذا الادعاء الروائي الكبير بهاء طاهر بقوله «بالرغم من ثقافة مدبولي المحدودة ، فإن وعيه كان يحسده عليه الحاصلون على الدكتوراه» .

ويظل الحاج مدبولي بورصة الكتاب وبوصلة القارئ العربي مثلما ظلت مكتبته على مدى نصف قرن مزارًا ثقافيًا لكل المواطنين العرب الذين يزورن مصر .. ومثلما ظل هو وحده بمثابة المؤسسة التي حافظت على مصر منبرًا للكتاب وللثقافة في مجال النشر في ظل تراجع دور الدولة وفقدانها المصداقية في مجال النشر.. ومثلما ظل هدفه تعليم الناس ونشر المعرفة بينهم .. يقول الكاتب «إبراهيم أصلان» :«إن مدبولي كان ناشرًا استثنائيًا طوال حياته ، حيث كان يعتمد على إحساسه بالقارئ ويعرف كيفية انتقاء الكتاب الذى أمامه فرصة للرواج لينشره وقلما خاب إحساسه هذا ، كما كان يؤكد بوجوده أن الخبرة المباشرة في عالم الكتب أهم كثيرًا من أي شيء آخر ، رحم الله مدبولي فقد كان وسيظل علامة في حياتنا الثقافية حيث كان في الستينيات مصدر الكتاب النادر والكتاب الممنوع .. كما ظل طوال حياته مؤمنًا بأنه لا حجر على عقل وأن «فرشة» الكتب مثل مائدة فهي لكل الناس فأقدم على نشر عدد من الكتب التي أثارت ضجة وقت نشرها ومن هنا لم يكن غريبًا أن يتعرض للاتهام فيما يزيد على عشرين قضية نشر كما ظل لسنوات طويلة هو المسئول عن اختيار الكتب التي يقوم بنشرها بالرغم من عدم تحصيله لأى قسط من التعليم» .

ويقول الأديب «جمال الغيطانى» : «لعب الحاج مدبولي دورًا كبيرًا دون أدنى مبالغة في خدمة الثقافة المصرية والعربية خلال الـ 60 عامًا الماضية كما أنه كان حريصًا طوال حياته على نشر ثقافة هذا البلد في الخارج لذا فقد شارك في معرض الكتاب في طهران وذهب بكتبه إلى السودان والعلاقات بينها وبين مصر في ذروة توترها» .

ونفس الكلام أكده الأديب «محمد يوسف القعيد» عندما قال: «أعتقد أن هذا الرجل قد خدم الثقافة العربية أكثر من عدد كبير من المثقفين، وكان طموحه لا تحده حدود».

وأكد الكاتب «فؤاد قنديل» : «أن مدبولي كان واحدًا من عشاق الكتب وهى سمة نادرة في الناشرين حيث كان يوزعها بحب شديد وعندما يدخل مكتبته ذبون ليشتري كتابًا كان يقابله بامتنان واعتزاز شديدين ليس لكونه تاجر كتب أو ناشر – وإنما لكونه عاشقًا للكتاب وكاتبه ومن يريد قراءته كما أنه كان يعتمد على عدد من أصدقائه في عدد من دول العالم ممن يعرفونه بأحدث الكتب التي تصدر في بلادهم . وكان يتعجل في استيرادها وتحمل تكاليف ترجمتها وعرضها».

ومدبولي كناشر كان محبًا لعمله ومن أكثر الناشرين التزامًا بالقضايا الوطنية والقضايا التي تهم القارئ قال لي الأديب يوسف القعيد :«كان الحاج مدبولي يقف في مكتبته من الساعة السادسة صباحًا وحتى الثانية عشرة منتصف الليل بنفسه ولا يكلف أحدًا بذلك وهذا الأمر جعله يعرف من الناس والقراء ماذا يريدون من الكتب؟ كما مكنه من معرفة الكتب الرائجة عند الناس ، ومدبولي كان عاشقًا للكتاب واسمه واسم مؤلفه وناشره .. وكان على دراية تامة ومعرفة كاملة بالتيارات المهمة في النشر .. ولقد رأيت «نجيب محفوظ» يذهب إليه مبكرًا جدًا وينادى عليه قائلاً : يا مدبولي هات إلينا الجديد الذى عندك . فيعطيه «سارتر» ، و «كامي» من الآداب المترجمة .. ورأيت عنده الدكتور يوسف إدريس ، والدكتور لويس عوض .. وكان مدبولي من أكثر الناشرين التزامًا بالقضايا الوطنية ، ومازال يعتمد على الخط الوطني في نشره» .

ويضيف القعيد : «اهتمام مدبولي بالتوزيع وبدايته المبكرة به هي التي ضمنت له الاستمرار في عالم النشر .. على عكس الناشرين العرب الذين بمجرد نشر الكتاب يضعونه في المخازن ولا يعتبرون أن الكتاب سلعة لابد أن تصل إلى القارئ ، كما أنهم لا يهتمون بمسألة التوزيع كثيرًا ، وأؤكد أن «الحاج محمد مدبولي» منذ خمسينيات القرن الماضي وهو معنى جدًا بآخر حلقة في النشر وهى التوزيع أي وصول الكتاب

إلى قارئه وهذه ميزته عن الآخرين ، وأعتقد أنه الوحيد الذى يطبع الكتاب بهدف وصوله إلى القارئ .. وأنه بدأ الحلقة من آخرها بدأ موزعًا ثم ناشرًا ثم موزعًا عكس الآخرين الذين بدءوا ناشرين وضل طريقهم إلى التوزيع».

وهذا يعنى أن الحاج مدبولي يمتلك مواهب حقيقية في مجال النشر وعملية صناعة الكتاب حتى أصبح علامة من علامات النهضة الأدبية والثقافية في مصر وعالمنا العربي رغم الظروف العصبية التي مرت به وهذا ما أكده لي أيضًا الأديب الدكتور علاء الأسوانى عندما قال لي : «أعتقد أن الحاج مدبولي كناشر وكإنسان استثنائي جدًا ، إنسان يمتلك موهبة حقيقية ، وملكات ثرية جدًا وإرادة حديدية مكنته من أن يصل إلى ما وصل إليه – وعلينا أن نتذكر أن الحياة لم تُعطى للحاج مدبولي ظروف مواتية منذ البداية وأنه شق طريقه فعلاً بكثير من الجهد والصبر والعناء حتى أصبح من أهم الناشرين في العالم العربي وربما في العالم .. وأعتقد أن مدبولي أضاف كثيرًا لحركة النشر لأنه ناشر جيد وأعماله متسعة .. وأكرر أنه أضاف الكثير إلى الحركة الثقافية .. وأنه إضافة حقيقية للنشر ».

وأضاف الأسوانى : «أعتقد أن استمرار الحاج مدبولي كناشر يرجع إلى الذكاء والإخلاص في العمل، والإرادة الحديدية التي كان يتمتع بها».

ويقول الدكتور عبد المنعم الحفني : «أنا أول من تعامل مع مدبولي منذ البداية ، فأنا أول من نشر له مدبولي .. وقد رأيت منه كل ما يسر فهو أمين على النصوص ، وأمين في محاسباته .. وله فهم ودراية بالحركة الثقافية العربية عامة والمصرية خاصة، ولذلك كان نقاء فيما ينشر.. فهو يختار المؤلفات التي يجد أن أصحابها بهم صدق ووطنية، وإحساس قومي ودراية وثقافة واسعة.. ولم يحدث أن سقط كتابًا واحدًا مما نشره .. وأعتقد أن ما يميزه فهمه العميق للحركة الثقافية في مصر والعالم العربي.. وأفقه الواسع .. وثقافته وأدبه الجم» .

وقد قال لي الحاج حسن محمد حسن نائب الحاج مدبولي في إدارة المكتبة : «أعتقد أن ما يميز الحاج مدبولي حاسته السادسة التي تساعده في اختيار ما ينشره من الكتب والمؤلفات .. وأن اختياره للكتب من الدور والمكتبات الأخرى يكون دائمًا

بطريقة علمية.. وأنه يمتلك من الجرأة ما يجعله يقدم على عمل لا تستطيع المؤسسات الكبرى أن تعمله ومثال لذلك موسوعة أطلس العمارة الإسلامية ، وسلسلة تاريخ البطارقة» .

ونفس الكلام أكده لي الأستاذ رؤوف عشم أحد مسئولي النشر بمكتبة مدبولي بقوله «الحاج مدبولي له نظرة ثاقبة في اختياراته للنشر لأنه يعرف معنى الكتاب وكثيرًا ما يسافر من أجل الحصول على كتاب واحد فقط حتى وإن كان في أقاصي الدنيا .. لأن الكتب هي ماله الحقيقي وفرحته.. وإنه يعامل المؤلف الكبير والصغير على قدم المساواة.. ويختار ما ينشره بدقة، ويمتلك من عوامل النجاح:الصبر، وطول البال، والاستماع إلى كل الآراء».

ويقول الأستاذ أشرف محمد بركات مسئول المبيعات والعلاقات العامة بمكتبة مدبولي : «الحاج مدبولي علامة مضيئة فى تاريخ الثقافة العربية وذلك لتميزه بالعمل الجاد .. وأعتقد أن طبيعته الجادة هي سبب نجاحه كناشر بالإضافة إلى عقليته الكبيرة، ونظره الدائم إلى الأمام واستراتيجيته المستقبلية في اختياراته للكتب وانتقائه للمطبوعات ، وتعامله مع الناس .. وصفاته التي لا توجد عند غيره من الناشرين».

رب ضارة نافعة :

بالرغم من أن حرب العدوان الثلاثي التي فرضتها «فرنسا وبريطانيا وإسرائيل» على مصر في عام 1956م قد أصابت عمل الحاج مدبولي بالكساد إلا أنها كانت الضارة النافعة التي غيرت مجرى حياته بعد ذلك وخلقت منه ناشرًا عملاقًا .. وذلك أن تلك الحرب قد تسببت في هجرة الكثير من الأجانب من مصر. وقد انعكست تلك الهجرة سلبًا على بيع الكتاب والمطبوعات الأجنبية التي كان يعمل فيها الحاج مدبولي وهذه هي الضارة التي أصابت مدبولي . أما النافعة هي التي جعلت مدبولي يتجه إلى النشر حتى لا يظل مجرد عارض لما تخرجه دور النشر الأخرى . يقول الحاج محمد مدبولي : «كنا نبيع إلى جانب المطبوعات المصرية المطبوعات الأجنبية بكل اللغات حتى أخذت شهرتنا في الصعود لدرجة أننا كنا نعانى من الازدحام

الشديد على بضاعتنا من قبل المشترين .. ثم جاءت الطامة الكبرى – عدوان 1956م- الذي تسبب في هجرة الأجانب من مصر ، ومنع دخول المطبوعات الأجنبية إليها فأُصيب عملنا بالكساد .. إلا أن حرب 56 غيرت مجرى حياتي كلها لأنني بدأت في تلك الفترة في شراء ما أستطيع شراءه من كتب وموسوعات أجنبية حينما بدأ الأجانب في مغادرة مصر.. وقد ساهمت بتلك الكتب في بناء العقول لأنه كان لدى طموح مشاركة الثورة في بناء الإنسان المصري.. وكانت مساهمتي تتمثل في بيع الكتب بالتقسيط حيث كان لدى دفتر أدّون فيه أسماء القراء وعناوين الكتب التي اشتروها ، وقيمة ما دفعوه من أقساط .. حتى أنى كنت أبيع كتابًا واحدًا على مدار سنة بأكملها».

وهذا صحيح فبعد حرب 1956 وخروج الأجانب من مصر ، توقفت الصحف الأجنبية عن الصدور والتوزيع في مصر ، وفرضت علينا الدول الأوروبية حصارًا اقتصاديًا إضافة إلى الحصار الثقافي ، فنبهت قيادة الثورة الناس إلى ضرورة الاعتماد على أنفسهم ، وترسيخ مفاهيم الوحدة الثقافية والقومية وفى تلك الفترة بدأت حركة الترجمة والنشر التي كان يقودها مدبولي وإلى جواره القومية للتوزيع التي كانت تهتم بنشر كتب التاريخ والفلسفة .. ومؤسسة فرانكلين الأمريكية التي كانت تنشر الأعمال الأجنبية المهمة .. ولجنة التأليف التي بدأت في نشر جزء من التراث مثل قصة الحضارة لديورتن ، وقصة الفلسفة ، ودراسة التاريخ القومي .. والألف كتاب التي كانت تصدر كل شهر أربعة كتب مترجمة.. والنهضة المصرية رائدة النشاط الفكري صاحبة كتابي مقارنة الأديان لأحمد شلبي ، وتاريخ الإسلام .. ودار الأنجلو المصرية التي كانت متخصصة في الكتب والمقررات المصرية والأجنبية . يقول الحاج مدبولي «علاقتي بالنشر بدأت بعد حرب السويس أي بعد عام 1958م .. حيث كانت الثورة قد استطاعت أن تنعش الحياة الثقافية وقتذاك، وظهرت الحركة الثقافية الكبيرة التي أنجبت أهم رموزنا الأدبية.. وظهرت سلسلة الألف كتاب ، والمكتبة الثقافية ومؤسسة فرانكلين والقومية للتوزيع التي تغير اسمها بعد ذلك إلى «الهيئة المصرية العامة للكتاب» ثم لجنة التأليف .. وكانت القومية للتوزيع تطبع كتابًا كل ست ساعات !! وكانت تلك الكتب تنفد فور صدورها» ويضيف «وفى تلك

الفترة كان هناك وزراء ثقافة يعملون على قيام نهضة ثقافية لبناء مصر ، فكانوا يختارون لنا أعمالاً من الكتب التي تعمل على التنمية الفكرية حيث كان الحس الوطني والقومي موجودين في عهد الزعيم جمال عبد الناصر ، وكان كل إنسان يحاول أن يبنى «طوبة» للبلد من أقل مستوى حتى أعلى مسؤول ، ونحن بدورنا أخذنا مهنة النشر وطورناها حتى أصبحت صرحًا علميًا لأن بناء الإنسان ثقافيًا يأتي قبل كل شيء» .

والجدير بالذكر أن الحاج مدبولي بدأ كناشر تحت اسم «دار المفكر العربي» وكان آنذاك لا يمتلك سوى الكشك ورغبته في نشر الوعى والثقافة .. قال لي الأديب يوسف القعيد : «بدأ مدبولي النشر وهو ليس لديه إلا الكشك ، الذى كان بداخله عقود المؤلفين الذين ينشر لهم ، ودفتر تليفونات الأدباء والمثقفين العرب التي كنا نلجأ إليها عندما نحتاج أحدهم» .

رغم أن الحاج محمد مدبولي بدأ مزاولة مهنة النشر في العام 1958م إلا أن سنوات نضجه وميلاده الحقيقي بدأت مع 1956م كما تقدم وهذا ما يؤكده الحاج مدبولي مرة ثانية بقوله : «سنوات النضج كانت في 1956م: فيها عبد الناصر يؤمم القناة .. ويومها بكيت ، يومها فرحت ، يومها حضنت الجرنال . يومها كان عيد. فرح. حد اتولد تانى جوه الجلابية .. الإنجليز خرجت . الفلوس لم تقل الذى يعمل يكسب والمادة مش كل شيء . ومصر أم الدنيا .. المجلات الأجنبية يشتريها عدد قليل جدًا. البريطانيون سافروا .. اليونانيون سافروا .. اليهود مشيوا .. قلت لأبى الذى كان مرهقًا «تسمح تسيب الشغل واحنا نلعب في السوق» ولعبة السوق ليست بالأمر الهين السهل .. إنها ديون بلا حدود .. أخذت الديون التي على والدى وبدأت أقسط الديون للمؤسسات .. وقلت لنفسي أبدًا يبقى لي كتاب.. كنت أسمع كلمة «القومية» أفتكر إنها ناس كتير أصحاب فكرة واحدة عايزين يحققوها .. قلت لنفسي أنا أبيع أي كتاب عن الحكاية دي . سألت لقيت كتاب عن القومية للأستاذ «ساطع الحصري» بدأت أشتريه وأبيعه .. أحلام كتيره دارت في رأسي عن الكتاب ده .. وعن عبد الناصر.. مصر بتضحى ومصر بتبنى .. وأنا قاعد طول الليل أفكر في الكتب.. جه

دكتور «سهيل إدريس» شاف كتب «ساطع الحصري» بتبيع .. عرض عليّ كتب دار الآداب بدأت أبيعها – بقيت أبص في الكتاب أعرف من الفهرس والمقدمة أهم ما فيه إيه .. أبص جوا الكتاب .. أقرأ فصلاً أو اثنين.. بيروت شافت مصلحتها عندي.. بدأ الناس يبعتوا لي بكتبهم .. وجمهور مصر مشتاق يعرف.. أوعى تصدق أن بلدنا مفيهاش قراء .. أنا نفسى أقول بصوت عالي الناس بتقرأ كل واحد وله لون يقراه .. أصعب كتاب في السياسة بيروح منه على الأقل 50 نسخة .. وأنا نفسى أفرش شوارع مصر كلها كتب .. والناس حاتقرأ .. الكتاب ده حب والله .. حب كبير وغويط وبحر محتاج لمساعدة ربنا وقبطان يحب الشغل» .

وفعلاً قد فرش الحاج مدبولي شوارع مصر والعالم العربي بالكتب والثقافة والمعرفة والفكر من أجل القارئ ومن أجل المساهمة في بناء العقول وتبصير الأفئدة .. وحبه إلى الكتاب كان يدفعه إلى بيروت كل أسبوع من أجل الجديد في مجالات الرواية والأدب والفلسفة.. فهو والكتاب صديقان .

مدبولي وترجمة روائع الأدب العالمي :

كان مدبولي أسبق من المؤسسات الحكومية والأهلية في ترجمة روائع الأدب العالمي مستعينًا بطلبة أقسام اللغة الإنجليزية والفرنسية ، وطلبة الدراسات العليا من المصريين والعرب الموثوق في ترجمتهم . فكان يجلسهم بجوار الكشك ليترجموا له ما يقدمه لهم من روايات ومسرحيات عالمية . وذلك لن مدبولي أدرك في وقت مبكر جدًا أهمية المسرح العالمي بالإضافة لحرصه في نقل الأدب العالمي لمصر واستجابته لتلبية رغبات المثقفين .. وذلك لأنه في الفترة ما بين 1958–1959م كثر تساؤل المثقفين عن كتب المسرح والسينما والسياسة الأمر الذى شجعه لترجمة الاحتياجات المطلوبة من الأدب الأجنبي .. فأصدر مؤلفات سارتر وكامى وصمويل بيكت وديرتمان فكان يطبع الغلاف في مطبعة والكتاب في أخرى ، ويبيع الملزمة الواحدة «ورق صحف» بقرش صاغ . يقول الحاج مدبولي : «في أوائل الستينيات طرأت على ذهني فكرة الترجمة فكنت أحضر بعض الأشخاص الموثوق في ترجمتهم وأجلسهم بجوار الكشك ليترجموا لي ما أقدمه لهم من روايات ومسرحيات

.. وأول ما تمت ترجمته كانت بعض الأعمال من المسرح العالمي لسارتر وكنت أعطى للمترجم على الكتاب 30 جنيهًا .. وكان يتم جمع الكتاب على صندوق من الحروف فى يوم أو يومين حسب سرعة «الجميع» وكنت أبيع الملزمة المكونة من 16 صفحة بقرش واحد .. وكان أول كتاب نشرته بعنوان «جان بول سارتر .. حياته وأدبه وفلسفته» للدكتور عبد المنعم الحفني .. وبعته بـ 20 قرشًا .. وقد نشرت لأحمد عثمان مسرحية «أنصاف الأقوياء» التي كانت تباع بـ 5 قروش.. وقد نشرت أيضًا لاثنين من الشباب أحدهما روسي والآخر أمريكي كتابًا عن فن لعبة الشطرنج.. ثم توالت الأعمال المنشورة حتى تجمع لدينا كما ترى كل كتب الأدب العربي والعالمي».

وقد قال لي الدكتور عبد المنعم الحفني . وهو أول مؤلف يغامر مدبولي بنشر أعماله بعد سنوات طويلة ظل مدبولي خلالها مجرد بائع كتب – قال لي : «بدأت التعامل مع مدبولي عام 1958م وكان أيامها يتحول من بائع كتب إلى ناشر .. وذلك عندما طلب منى أن ينشر لي كتابًا من مؤلفاتي وقد سعدت جدًا بهذا العرض لعلمي أن مدبولي رجل مستنير بالمعنى الحقيقي ، كما أنه صاحب «كاريزما» ويستطيع إقناعك بمنطقه الواضح والبسيط فى التفاوض وبالفعل تم الاتفاق وأصدر لي أول كتاب فى حياته وهو كتاب «جان بول سارتر .. حياته وأدبه وفلسفته» وقد لاقى هذا الكتاب رواجًا شديدًا وأحدث «فرقعة» بلغة السوق لأن سارتر أيامها كان صاحب موضة فكرية ، كما أن أعماله لم تكن متداولة على النحو الذى حدث بعد ذلك وبعد هذا النجاح طلب منى مدبولي إصدار كتاب جديد عن «ألبير كامى» بنفس العنوان وحدث ذلك بالفعل واللافت أن مدبولي تلقى الآلاف من الخطابات من القراء المعجبين ، بهذه الكتب بل إن هناك عددًا كبيرًا من الباحثين الأجانب طلبوا من مدبولي توفير كتب وبيانات خاصة بأبحاثهم بعد الصدى الذى أحدثته هذه الكتب في المجلات التي تهتم بتقديم عروض ومراجعات للكتب في الغرب» ويضيف الدكتور الحفني «بعد النجاح أقنعت مدبولي بإصدار سلسلة بعنوان «المسرح العالمي» قدمنا من خلالها ترجمات لأكثر من 10 مسرحيات عالمية لدرجة أن الدولة التقطت الفكرة بعد

ذلك وأصدرت سلسلة بنفس العنوان» وجملة : «إن الدولة التقطت الفكرة بعد ذلك» التي أدلى بها الدكتور عبد المنعم الحفني في شهادته لي عن مدبولي تؤكد ما ذهبت إليه في أول هذا المبحث عن أسبقية مدبولي للمؤسسات الحكومية في نقل التراث العالمي إلى العربية وهذا ما أكده لىّ الحاج مدبولي بنفسه حينما قال لىّ «وزارة الثقافة أخذت الفكرة منى وأصبحت تترجم المسرح العالمي . فتوجهت بعدها إلى الأدب العالمي اقتبس منه أعمالاً تواكب الحركة الفكرية فيمصر. فبدأت بترجمة رواية «لديستوفيسكى» و «تشيكوف» لأبيع الرواية الواحدة بـ10 قروش .. ولكن بحكم أن وزارة الثقافة إمكانياتها أكبر منى فكانت تبيع أرخص منى .. ولكنني كنت أتميز بالسبق وبالعرض الجيد».

والجدير بالذكر أن الدكتور عبد المنعم الحفني أصدر له مدبولي ما يقارب الـ 120 مؤلفًا إلا أن هذا العالم اختار أن يعيش في الظل بعيدًا عن الأضواء على الرغم من ثقافته الموسوعية التي جعلت الكاتب أنيس منصور يقول عنه : «الباحث الزاهد راهب العلم والحكمة الذى استطاع أن يكتب عشرين موسوعة فى الدين والتصوف وعلم النفس وعلماء النفس والفلسفة» ويضيف أنيس : «لو وقف الدكتور الحفني فوق مؤلفاته هذه لطاول الأهرام!! وكلما زادت كتبه عددًا ازداد تواضعًا. وهو بما كتب وألف وترجم يستحق كل جوائز الدولة».

والحاج مدبولي دائمًا أسرع وأسبق من الجميع فى تقديم الثقافة والمعرفة للناس فعندما رفض «سارتر» قبول جائزة نوبل أسرع في ترجمة كتاب عنه ألفته «تريز مردوخ» وعرضه للبيع فتم بيع أعداد كبيرة منه في 4 أيام فقط . كما كان دائم المنافسة مع وزارة الثقافة التي كانت مهتمة إلى أقصى حد بنشر الثقافة بين الناس فكان كلما تُقدم وزارة الثقافة على خطوة يتجه هو إلى الخطوة التي بعدها. فعندما أصدرت وزارة الثقافة سلسلة «المسرح العالمي» تقليدًا له توقف هو عن إصدارات المسرح واتجه إلى ترجمة الأدب العالمي فبدأ «بمورافيا» و «صمويل دي بوفوار» .. ثم تعامل مع الكتاب المصريين فنشر لصديقه أحمد عثمان الذى كان يعمل وقتها بفرقة رضا .

ولما بدأت وزارة الثقافة في ترجمة الأدب العالمي انتقل الحاج مدبولي إلى ترجمة

السير الذاتية للقادة العالميين مثل : «تشرشل ، وهتلر ، وروميل» في برنامج «زيارة خاصة» عندما سأل «سامى كليب» مقدم البرنامج الحاج مدبولي عن الأساس الذى يعتمد عليه في اختياراته للمؤلفات المترجمة أجاب «لأنه ما كنش في مسرح مترجم في مصر ولما كانت كل الجهات بتبنى حبينا ندخل في هذا الصرح العظيم ولما كانت كل دور النشر بتعمل كتب سياسية ، والدولة كانت بتعمل كتب عامة حبنا نعمل مسرح» ويضيف مدبولي «كل الناس كانت بتساعد عشان تبنى مصر .. وكان عبد الواحد وكيل من الناس الوطنيين اللى كان يعنى مثلاً تقول له والنبي أنا عايز مجموعة من الكتب يقول لك المفاتيح أهى ، روح شارع منصور المخزن نقى الكتب واعمل لى بها كشف يعنى ما كنش في ولا واحد كان يقدر يخون مصر ولا واحد كان بيفكر في خيانة مصر» .

وعندما طرحت عليه نفس السؤال أعلاه أجابني بقوله : «المادة الجيدة في أي فرع من فروع المعرفة ، تفرض نفسها ، وأنا من المؤمنين بأن النقد البناء وسيلة لبناء المجتمع ، فلنترك الباب مفتوحًا أمام الآراء الجيدة بحرية والعقل في النهاية هو سيد الموقف» ثم أضاف: «هذا هو السبب وراء اختياري للأدب المسرحي العالمي .. ثم رغبتي في سد النقص الذى كانت تعانى منه المكتبات العربية في هذا الاتجاه» .

وأعتقد أن متابعة مدبولي الدقيقة لكل ما يجرى في سوق النشر واتجاهاته لهى الدافع الحقيقي في كل اختياراته والدليل على كلامي قوله: «لاحظت أن هناك اهتمامات شبابية بما يأتي من الغرب من موضات فكرية وثقافية ولما كانت الموضة حينها للوجودية كلفت من يترجم لي أعمال سارتر وكامى ومسرح العبث واللامعقول ، انسجامًا مع متطلبات السوق القرائي وقد حققت نجاحًا جيدًا في هذا المجال» ويضيف «كنت في تلك الفترة أبيع كتابات أنيس منصور ومقدماته لمسرحيات فردريش ديرنمات وأعرض أيضًا ترجمات سهيل إدريس عن سارتر وغيره» وهذا دليل آخر على أن الحاج مدبولي لم يفصل بين مهنته كناشر وموزع إطلاقًا والهدف حتى لا يفوته كتاب أو مؤلف هنا أو هناك .. لذلك نراه مرة يقدم مسرحًا فرنسيًا «مسرح اللامعقول» ومرة يقدم أعمال «سوفوكليس» اليوناني ومرة أعمال

«أوجين يونسكو» وقد ساعدته محاوراته مع المثقفين وتعاملاته معهم في أن يتعلم ويستشف ويقرأ الموضوعات التي يفضل الاطلاع عليها القراء والمثقفين .

وحتى يكون دقيقًا في نقله للترجمات الغربية استعان فيما بعد بمترجمين متخصصين لنقل أمهات الكتب الأجنبية إلى العربية –بدلاً من الاعتماد على طلبة اللغات الأجنبية.. كما بدأ في الاتفاق مع دور نشر خارج مصر – خاصة في بيروت- على أخذ حق توزيع ما يطبعون.. فبدأ بكتاب «الأقلية جذورها وبذورها» لأحمد بهاء الدين .. ولقد فعل مدبولي كل هذا من أجل القراء لدرجة أنه الحق بمكتبته مخزنًا للاطلاع خصصه لمن لا يملكون ثمن الكتاب .

مدبولي وكتابات الشباب:

بعد النجاح الذى حققه الحاج مدبولي في نقل كلاسيكيات الأدب العالمي إلى العربية .. اتجه إلى جيل الشباب الذين فجرت الثورة طاقاتهم الإبداعية. فشملهم برعايته حتى نالوا الحظ والشهرة بعد أن نشر أعمالهم.. والحقيقة التي لا جدال فيها هي أن كل الأسماء الرنانة في مجال الأدب والصحافة خرجت من مكتبة مدبولي وذلك لأن انحياز مدبولي الأول كان لحرية الكلمة والرأي والمواهب الجديدة يقول الحاج مدبولي : «عندما أحسست أنى مرتاح ماديًا ولدى ما أصرف منه على الكتب التي أتبنى من يترجمها أو يصوغها بالعربية بدأت بنشر أعمال الكتاب الجدد .. وهكذا أُتيح لي أن أقدم العديد من كتاب مصر مثل عبد الرحمن الأبنودي، وفاروق شوشة ، ويوسف القعيد وجمال الغيطانى وغيرهم كثيرون» ويضيف «بدأت علاقتي بشباب المؤلفين الذين صاروا أعلامًا فيما بعد – عندما كانوا يترددون على مكتبتي بقصد الشراء .. وأزعم أن كل مفكر وأديب قدمت له الثقافة المكتوبة» وما قاله مدبولي حقائق معلومة لكل الناس .. فهو الذى دفع «لأمل دنقل» 40 جنيهًا مقابل حقه في نشر ديوانه الأول «البكاء بين يدى زرقاء اليمامة» الذى كان علامة بارزة في حركة الشعر المصري خلال الستينيات .. وهو الذى قدم لعبد العظيم رمضان كتابه «التطور السياسي والاجتماعي لثورة يوليو» .. وهو الذى نشر دواوين «محمد إبراهيم أبو سنه» الشعرية .. وهو الذى قدم أعمال «نجيب سرور» المسرحية والشعرية بل إنه

أصدر مجموعة قصصية لأمين شرطة توسم فيه الموهبة وهو أيضًا الذى نشر أعمال سيد حجاب ، وكتاب «عبد السلام الشريف» عن موت مذيعة التليفزيون الشاعرة «سلوى حجازي» .. وهو الذى وفر للمثقفين والقراء كتب الأدب العالمي المترجمة لإيمانه بأن الثقافة رسالة وطنية عليه حمل أعباءها رغم كل المصاعب والتحديات . وهو الناشر الوحيد في الوطن العربي الذى نشر 17 ديوانًا للشاعر نزار قباني– تمت طباعتها بالكامل في مصر .. وهو الذى قام بإصدار مقامات بيرم التونسي .. وهو الناشر الوحيد فى مصر والوطن العربي الذى فتح قلبه وداره للأديب «جمال الغيطانى» في بداياته .

ضوابط عملية النشر عند مدبولي :

معروف أن الناشر يعتبر بمثابة رئيس تحرير فهو الذى يوجه الكتاب والمؤلفين للكتابة في موضوعات معينة ، وهو أيضًا الذى يحدد أو يرسم السياسة العليا للدار واتجاهاتها في النشر .

عند سؤال الحاج مدبولي عن كيفية اختياره للكتاب الذى يتحمل مسئولية نشره ؟ رد بقوله : بعض المؤلفين يحضر إلىّ ومعه مؤلفه الذى يريد نشره ، فأقوم بقراءته فإذا وجدت أنه سيخدم القاعدة العريضة من القراء ، ويضيف شيئًا جديدًا أقوم بنشره وأتولى مسئولية إصداره» .

من هذا يتضح أن مدبولي يتحمل مسئولية إصدار أي كتاب إذا توافر فيه شرطين هما :

1 – يلبى احتياجات القراء . 2 – يضيف جديدًا .

وفى تقديري هذا كلام معقول لأن تلبية احتياجات القراء من صميم عمل الناشر الذ يقدم غذاء العقول ، فإذا كان ما يقدمه فاسدًا فسدت العقول وإذا كان صالحًا صلحت القلوب والعقول معًا .

ويضيف الحاج مدبولي : «أنا لا أنشر أي عمل حتى أتأكد أنه لا يقلب الحقائق .

أما بالنسبة للأخطاء المطبعية التي تحدث فالمؤلف هو الذى يقوم بتصويبها قبل . وأنا ضد الاستعانة بأي لجنة للتصحيح والتصويب – على الإطلاق» ثم يواصل: «وأنا أيضًا لا أنشر إلا في ثلاثة اتجاهات ويجب أن يكون الكتاب في أحد هذه المجالات : الشعر ، وأعتقد أنه باستعراض المكتبة يتضح حجم المؤلفات الشعرية التي أصدرتها .. ثم التاريخ وأخيرًا السياسة». وأعتقد أن هذا كان سائدًا فى فترة من الفترات وذلك أن مدبولي الآن ينشر لكل الاتجاهات .

ثم يستمر في الحديث فيقول: «هناك حاسة أنعم الله علىّ بها.. ويمكنني عن طريقها معرفة الكتاب الناقص في السوق.. مثلاً مؤلف يعرض كتابًا عن الأقليات أو الفرق الإسلامية .. هذه موضوعات أعرف أن السوق يحتاج إليها،لكنني أطلب منه أن يكمله مثلاً إلى حدود معينة، وإذا كانت رسالة دكتوراه، أطلب منه استبعاد الأجزاء الأكاديمية، والاقتصار على الحقائق والوقائع التي تهم القراء».

وبالجملة أن الحاج مدبولي وضع ضوابطًا لعملية النشر لا يخرج عنها وهى :

1 – ينشر مدبولي الكتاب الذى يشعر أن موضوعه مطلوب ويلبىّ احتياج معرفة لدى القراء ، وهذه تعادل دراسة الجدوى أو عمل مسح للسوق والتعرف على الاحتياجات لتلبيتها .

2 – يمتنع مدبولي ولا يقبل نشر أي كتاب يسئ للعقيدة «أي عقيدة» ولكنه ينشر في الفكر المقارن وتاريخ الديانات والفلسفة .

3 – يشجع مدبولي شباب المبدعين ، ويراهن على الموضوع ، ولا يغريه أن يكون الكاتب ذا شهرة واسعة ، فكثير من المشهورين بدأوا مع مدبولي شبابًا وكبروا وحققوا شهرة عالمية وأعمالهم ترجمت إلى أكثر من لغة .

4 – يقتحم مدبولي مواقع في الفكر يتحفظ كثير من الناشرين من التعرض لها فمشكلات الأقليات عمومًا ، ونزاعات الحدود بين الدول ، والجدير في التفسير والتأويل ، المشكلات الاجتماعية والسياسية في مصر وخارجها، كل هذه الموضوعات ينشرها مدبولي، وينشر أي فكر قد يرى عكس ذلك إيمانًا بحرية الفكر

والرأي الآخر .

5 – لا ينشر مدبولي كتب الخرافات ويقول في ذلك : «مابشتغلش في كتب الخرافات لأنني أريد إنارة الطريق للناس وأنا مع العقل وتخريبه ليس من اختصاصي– وكذلك لا ينشر كتب الجنس الفاضح» .

مدبولي وفلسفة النشر:

يقول الدكتور عبد المنعم الحفني : «إن فضل مدبولي على أجيال القراء المصريين والعرب يتجاوز قيمة النشر إلى التأثير في وجدان القارئ، وإنه كان يثرى الثقافة بما يقارب 200 عنوان لكتب جديدة سنويًا . وهذا لم تفعله أي دار نشر حكومية معنية بالثقافة وآدابها» . وأعتقد أن هذا ليس بالشيء الجديد الطارئ وإنما هو الأصل الذى لا ينبغي إلا أن يكون فيه .. فهو الذى تأثر بمنشوراته الملايين من أبناء امتنا المجيدة .. وهو الذى شكل وجدان المثقف المصري والعربي .. وهو الذى نشر في الأرض علمًا وثقافة وفكرًا .. وهو الذى قدم للإنسانية أكثر من أثنين مليون عنوان في شتى ضروب المعرفة .. وهو الناشر الذى يشهد العالم كله ببصماته النظيفة في سوق النشر العربي والعالمي .. ولا يستطيع أحد أن ينكر جهوده في تنوير عقول الناس وما قدمه لهذا البلد .. الأمر الذى جعله مصدر ثقة 13 وكالة عالمية لنشر الكتب .. فهو أمينها الذى يقوم بتوزيع أعمالها في مصر والمنطقة العربية .. وعلينا أن نعرف أن مهنة النشر عند مدبولي ليست للتجارة أو الكسب وإنما لخدمة الناس .. قالي عندما قلت له: أن الناس تنظر لمهنة بيع الكتب ونشرها على أنها تجارة واستثمارًا؟ قال: «إذا كانت تجارة واستثمار ما ظلت الكتب قابعة على الأرفف على مدى سنوات، قم بزيارة للمخازن لتتأكد بنفسك لو أننا كنا نحقق مكسبًا.. يا أحمد : إننا نقوم بنشر المعرفة ، وتقديم الثقافة مقابل أجر أعتبره زهيدًا ، وأعتبر أننا ننشر المعرفة والثقافة بسعر التكلفة ، والدليل نحن نطبع (3000) نسخه من كتاب واحد ونظل «ندور بيه» في العالم كله نبيعه على مدى سنوات .. ويشير بيده : هناك كتب منذ عشرين سنة» .

إذن للحاج مدبولي فلسفة خاصة في النشر ترتكز على دعائم معينة ومحددة تتمثل :

1 –في تقديم الثقافة للناس .

2 –في نشر المعرفة للناس.

3 –في بناء مصر والعالم العربي.. يقول «أنا لا أتعامل مع هذا البلد على أنه «شقة مفروشة» وإنما أبنى طوبتي مثلما قال الزعيم جمال عبد الناصر: «كل واحد يبنى طوبة للبلد».. وأنا وجدت أن هذه المهنة هي أعظم طوبة يمكن أن أضيفها إلى هذا الصرح الكبير الذى اسمه مصر» ويضيف «أنا لو كنت أبيع «جوافة» كان زماني مليونير .. لأنني أعمل في هذه المهنة منذ أن كان عمرى خمس سنوات» .

ويقول أيضًا: «أريد أن أوضح أن ارتباطي بالكتاب ارتباط أجواء أحبها، وفى النهاية إذا أجزمت بأنها مهنة فهي خدمة للكتاب والمثقف معًا، لأنه كما معروف أن الكتب هي آخر مجال يمكن أن يستفيد منه الإنسان ماديًا كبيع وشراء.. فأنا لم أتطرق لهذا المجال إلا لأنه عالمي الخاص الذى نشأت فيه وكان من المستحيل أن أكون في غيره .. لأنني تشبعت بحب الكتب والجريدة وكل ما هو متعلق بالثقافة في بداية العمر ، وكان ذلك فى فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر .. وكانت الجرائد مختلفة تمامًا عما هي عليه الآن ، كلها كانت جرائد شعبية مثل «صوت الأمة» و«الوفد» و «الإخوان المسلمين» ، وكانت كل فئات الشعب تريد أن تقرأ ، وحتى من لا يجيد القراءة منهم كان يشترى الجريدة ويذهب إلى المقهى ليقرأها أحد أصدقائه المتعلمين ، الكل كان يريد أن يقرأ ويطلع .. فوجدت نفسى أريد المشاركة في تلك المشاعر ، فلم أجد غير الكتب التي تنير العقل وتلهب المشاعر نحو حياة أفضل ، وأكثر حرية» وبهذا الحديث تكتمل بقية أركان فلسفة النشر عند مدبولي المتمثلة في :

1 – حب الكتاب الذى هو عالمه الخاص .

2 – مشاركة الناس في مشاعرهم تجاه الكتاب والثقافة.

3 – إنارة العقل حتى يتقدم نحو حياة أفضل.

4 –الحرية والمساهمة في ديمقراطية النشر من أجل كل ما هو متعلق بالثقافة..

يقول تأكيدًا لحرية النشر : «أكثر المواقف حزنًا وإيلامًا لنفسي أنى رأيت قاضيًا

يحكم على مؤلف بالرغم من أنه فى الماضي كان الحكم يوقع على الكتاب بمصادرته أو إعدامه ، لكن تلك الواقعة كانت غريبة على الساحتين القضائية والثقافية معًا .. وغيرها كثير لا أستطيع البوح بها لأن أحداثها تذكرني بآلام شديدة المرارة لا أريد أن أقدمها للناس .. لأن هذه المهنة عظيمة أتعامل فيها مع فكر الناس ، أتعامل كرسول أو سفير لكل العصور والأزمنة ، وربما لأن ما لدى لا أستطيع ذكره لأنه يمس البعض أو ربما لا يريدون الحديث عنه ، وأكون بهذا كشفت سرًا لا يريدون له النشر، وكل ما أريد تسجيله هو : «إنني على استعداد لأن أموت من أجل توفير كتاب جديد».

ويواصل الحاج مدبولي الحديث عن فلسفته في نشر الكتاب قائلاً : «أنا عندي موهبة في هذا المجال .. فأنا أختار ما يثير الناس.. لأن أكثر الناس غير قادرين على استيعاب ما يدور ولكنهم يستطيعون ذلك عن طريق الكتاب.. وأنافي نشرى لا أتعامل كثيرًا مع كتاب مشهورين لأنهم لا يحتاجون إلى النشر لأن دور النشر تجرى وراءهم.. وإنما أريد أن أخلق جيلاً جديدًا من الكتاب .. لأن هذا يخلق كتابًا جيدًا ، وأتمنى أن تصبح كل شوارع مصر أسوارًا كسور الأوزبكية ، فطالما هناك عِلم موجود على الأرض ستوجد الكتب ولا سبيل إلى وقف هذا السبيل المسمى بالكتاب» هذه هي فلسفة النشر عند مدبولي وهذه هي أفكاره التي تمسك بها على مر كل السنوات الممتدة لأكثر من سبعين عامًا من الزمان .. والتي حرص فيها على أن تكون مكتبته أشبه بمائدة مفتوحة عليها كل ألوان الثقافة والمعرفة وكل إنسان يقرأ منها ما يطيب له إلا أنه يقول: «ولكنى لا أعرض إلا المفيد والمعلومات الصحيحة أيًا كان مجالها، وهذه السنوات الطويلة تعلمنا فيها الصبر والكفاح وحتى نستمر، فقد افترشنا الشارع مع الكتب خمسة عشر عامًا تعرضنا فيها لمشاكل لا حصر لها مع رجال البوليس والبلدية ، وحتى رجل الشارع العادي ، ومشكلات مع المثقف والمؤلف ، فعديد من المؤلفين يتعشم أن يأخذ أكثر من حقه وهذا لا يحدث بالطبع فلكل ذي حق حقه ، ولكن لم نكن نبخل على أحد بأن يستمتع ويستفيد بالقراءة للكتب » ويضيف «لأنني اخترت هذه المهنة لإيماني بأنها أعظم مهنة في الدنيا ،

خاصة حين تخدم المجتمع الذى تعيش فيه .. وأؤكد أن هذه المهنة لا تورث لكنها تحب» .

ثلاثة مبادئ لمهنة النشر :

وضع الحاج مدبولي منذ البداية ثلاثة مبادئ لنجاح مهنة النشر لو توافرت فإن السير سيكون حسنًا فيها – وهى :

1 – **مال قارون :** لأن الناشر مهما كان معه من مال فإنه سيصرفه على الكتاب وتكاليف النشر من أجل إكمال مسيرته وتوصيل رسالته للناس .

2 – **صبر أيوب :** ويحتاجه الناشر حتى ينفد الكتاب من السوق لأن الكتاب ليس مثل أية سلعة من السلع .

3 – **عمر نوح:** حتى يرى الناشر ثمرة جهوده وأصداء رسالته بين الناس لأنه كما يقول: «عندما يكون هناك تخطيط لبناء مجتمع فالوسيلة هي الكتاب».

نكرر أن فلسفة النشر عند مدبولي ليست قضية ربح أو خسارة لأنها لو كانت كذلك كما يقول هو بعد أن ابتسم هيبة ووقارًا : «فلو كنا نريد الربح لتطلعنا إلى أشياء أخرى كثيرة ، سهلة ومربحة ، ولا تجعلنا نخرج من بيوتنا في الصباح الباكر ، ولا نعود إلا مع منتصف الليل» .

وكما أنه له فلسفة في النشر فلهو أيضًا فلسفة في التوزيع ظهرت عندما سأله الزميل «أحمد الشهاوى» الصحفي بجريدة «صوت سوهاج» عام 1982م : ليس من صالح الكاتب أن يجد مؤلفه في مكتبة مدبولي دون غيرها من مكتبات مصر ؟ وقد أجاب ساعتها الحاج مدبولي بقوله : «أنا أطبع للمؤلف سواء كان كتابه مجموعة قصص قصيرة أو رواية أو ديوان شعر أو دراسات في شتى فنون المعرفة «2000» نسخة . يتم توزيعها في مكتبتي فقط .. وذلك لأن شركات التوزيع تتلف 60٪ من الكتاب .. لذلك أنا أكتفى بالتوزيع في مكتبتي ، والقراء في شتى أنحاء الجمهورية يعرفون الطريق إلى مكتبتي جيدًا . ويأتون لشراء الكتب الجديدة عند زياراتهم أو يرسلون في طلب شرائها مع المسافرين للقاهرة وقد توصلت لهذا من خلال التجربة والخبرة »

وأعتقد أن هذه الفكرة كانت سائدة لدى مدبولي في فترة ثمانينات القرن العشرين فقط .. والدليل أن الحاج مدبولي كان يقوم بتوزيع منشوراته بالاشتراك مع دار العودة ببيروت ، ومنشورات نزار قباني ودور نشر أخرى .. كما أنه ابتدع في آخر أيام حياته تجربة النشر المشترك التي لم يسبقه في ابتكارها أي ناشر من المحيط إلى الخليج وقد قال لي عن هذه التجربة الأديب يوسف القعيد: «جعلت الفطرة الحاج مدبولي يتجه إلى النشر المشترك الذى لم يسبقه إليه ناشر مصري على الإطلاق .. فكان الحاج مدبولي ينشر كتبه بالاشتراك مع الدار العربية للنشر فى بيروت ، ومع منشورات الاختلاف في الجزائر ، ومع المركز الثقافي العربي في بيروت ، والدار البيضاء في المغرب .. وهذه التجربة فكرة عبقرية توصل إليها هذا الرجل الذى ظل مرتديًا الجلباب طوال حياته » ويضيف القعيد: « إن هذه التجربة تحل مشكلة نقل وتوزيع ودخول الكتاب من عاصمة إلى أخرى داخل الوطن العربي » .

وأقول أن حس مدبولي الفني العالي وإلهامه وتوجهاته القومية ، وخوفه على الكتاب وحرصه على أن يصل لقارئه .. لهى العوامل التي دفعت مدبولي إلى فكرة النشر المشترك يقول الأستاذ رؤوف عشم أحد مسئولي النشر فى مكتبة مدبولي : «بلغ من خوف الحاج مدبولي على الكتاب أن حمل فى إحدى المرات كتاب «العمارة والفنون الإسلامية» على كتفه خوفًا عليه من عوامل التلف والتمزيق التي قد تتعرض إليها الكتب عند شحنها» . وما قاله رؤوف ما هو إلا تأكيد لقول الحاج مدبولي : «أنا أخلص واحد باع كتاب فى هذا البلد .. وأقول كلما تُعطى مهنة الكتاب حب وإخلاص – هتوصلك لأى شيء تريده ، تخلى مشارق الأرض ومغاربها تعرفك» .

معايير النشر عند مدبولي :

توطئة:

من المعلوم أن سوق النشر العالمي يعتمد على نظام «الوكيل الأدبي» الذى هو عبارة عن جهة أو مكتب يديره شخص على قدر عالي من الثقافة، وله معرفة تامة باحتياجات السوق من نوعيات الكتب المختلفة، كما يعرف فى نفس الوقت اهتمام

وتوجهات كل ناشر ، وهذا الوكيل بحكم خبرته يتسلم أصول المصنفات «رواية – قصة – كتاب ...إلخ » ويستقبل احتياجات الناشرين ويكون وسيطًا بين الطرفين حتى ينتهى الأمر بالاتفاق وتحرير العقود ، ثم تبدأ مسئوليته بمتابعة طبع ونشر المنتج الثقافي لحساب الناشر وعلى نفقته ، كما يتولى دعوة المثقفين وعمل عروض للأعمال فضلاً عن الدعاية .. وللوكيل الأدبي مقابل تقديم هذه الخدمات نسبة يتم الاتفاق عليها.ومن شروط هذا النظام أن لا توجد علاقة مباشرة بين الناشر والمؤلف أو المترجم أو المُعد أو المحقق. أما فى مصر والعالم العربي فالعلاقة مباشرة بين أطراف عملية النشر وتكون بواحدة من طريقتين :

أولاً: أن يسعى المبدع للناشر ويعرض عليه ما عنده من مصنفات. فيقوم الناشر سواء بنفسه أو من خلال مستشاريه، بدراسة إمكانية قبول العمل وملاءمته لسياسة الدار من عدمه.

ثانيًا: أن يقوم الناشر بالسعي لدى بعض المبدعين للحصول على ما عندهم ليختار منه.. ثم تبدأ دورة العمل حتى يصدر المنتج الإبداعي.

ولعل من مساوئ هذا الأسلوب أنه يهدر جهدًا ووقتًا من كلا الطرفين ، فضلاً عن عدم وجود تقاليد أو قواعد تجعل كل الأطراف مطمئنة حتى يتفرغ كل لعمله الأصلي – وأن هذا يعنى انعدام التخطيط، وغياب التنسيق ، فالناشرون فىً وطننا العربي – يعمل كلٌّ بأسلوبه وعلى قدر اجتهاده ، الأمر الذى يجعل سوق إنتاج الكتاب بدون ملامح محددة أو سمة أو علامة مميزة لكل دار .. وهذا بدوره يحصر هدف التوزيع أو التسويق أو البيع ينتهى إلى تصريف الإنتاج الذى به يحدد أو يُقاس نجاح أو فشل دور النشر ، ولنا فى هذه النقطة عدة ملاحظات منها :

1 – تسويق المنتج الثقافي أيًا كان اسمه يختلف تمامًا عن تسويق أي منتج آخر فالكتاب مثلاً لا تستطيع دور النشر إنتاجه بالطلب، بمعنى أن يكون مباعًا مسبقًا، ولا هو سلعة قابلة للتخزين، ولا هو يهم شريحة محددة من الناس. ولكنه كثير التنوع ويخرج ليغطي اهتمامات مختلفة لشرائح مختلفة ، ولعل هذا ما يجعل أي دراسة مسحية لرصد احتياجات السوق من كتب دون غيرها أمر صعب ويحتاج إلى عين

خبيرة وحس رهيف .

2 – جهود التوزيع فردية ، وتخضع لظروف واجتهاد كل ناشر ، فالناشر هو المنتج وهو الموزع وهو الذى يتحمل مخاطرة المكسب وغيره .

3 – عدم وجود دراسات أو خرائط للتوزيع أو مؤسسات كبيرة متخصصة فى التوزيع تتولى دراسة كل الأسواق داخليًا وخارجيًا وتأخذ من كل ناشر ما يصلح وما يلائم فضلاً عن تقديم المشورة الفنية والدعم الفني اللازمين مما يجعل مهمة التوزيع قاصرة على منافذ البيع التقليدية والمعارض الدولية والمحلية وأعمال المبادلات بين الناشرين «كتاب مقابل كتاب» .

وبالرجوع إلى الحاج مدبولي نجده يلجأ أحيانًا إلى بعض المبدعين لطلب أعمالهم الإبداعية . وهذا فى حالة التخصص الدقيق وما عدا ذلك فإنه يقبل أعمال المبدعين التي تعرض عليه ويقدمها إلى لجنة القراءة والفحص التي تجتمع من شهر 4 إلى شهر 6 من كل سنة لدراسة الكتب المعروضة عليها . دراسة دقيقة من جميع النواحي القانونية والدينية والسياسية ، ثم ترفع توصياتها إليه فى تقرير وعند سؤال مدبولي عن قبول كل توصيات اللجنة ؟ أجاب «أقبل أغلبها ، لكن يحصل أحيانًا أن أخالف تقرير اللجنة وأقرر طباعة ونشر كتاب معين على خلاف توصياتها ، كما حصل مع كتابي«نصر حامد أبو زيد»«نقد الخطاب الديني» و «الإمام الشافعي» . والجدير بالذكر أن الحاج مدبولي كان فى بداياته الأولى لا يعتمد على أي لجنة وإنما هو الذى يقرر ما ينشر وما لا يُنشر .

أما بالنسبة لمعايير النشر وأسلوب مدبولي مع المبدعين والأسس التي يعتمد عليها فى اختياراته للنشر فيمكن أن نستشفها من قوله : «أنا مبدئي هو خدمة الكتاب العربي ، والمصري منه .. وأنه يجب علينا أن نعمل وحدة ثقافية سواء بالنسبة للتوزيع أو بالنسبة للنشر.. ومعاييري للنشر تعتمد على نوعية الكتب التي يقبل عليها الناس والتي يحتاج إليها السوق. وهناك إيحاء من عند الله يأتي إلىّ فأختار على أساسه الكتب ، ولكن الذى يحكمني أكثر هو السوق .. ومع ذلك فالعمل الجاد هو الذى

يفرض نفسه علىّ ، وهناك خطوط عريضة نشتغل عليها فليس من المفروض التحديد التعسفي بأن نقول مثلاً هذا الكتاب سياسي وهذا الكتاب اقتصادي . وإذا كان كذلك فأنا أعطيه لواحد متخصص يراجعه أو للجنة القراءة والفحص عندي.. يمكن فيه مصطلح يفوت علىّ لكنني لا أستطيع أن أتركه يفوت على الناس فهذه أمانة نكسب ثوابها». ويضيف الحاج مدبولي : «العمل المعد للنشر يتم اختياره بمقاييس التجربة والخبرة والدور الذى يمكن أن يؤديه لمصرنا الحبيبة .. وأنا لا أتقيد بفكر أو اتجاه معين .. وطالما أن العمل جيد ويستحق النشر فحتمًا سينشر».

واستمرارًا لمسيرة النجاح والإبداع التي بدأها الحاج مدبولي فلقد لجأت مكتبته فى العشرين سنة الأخيرة إلى أسلوب جديد فى النشر كان يمثل نقلة نوعية لخدمة القارئ فبدأت بإصدار سلاسل مثل :

1 – سلسلة صفحات من تاريخ مصر:

يعتبر إصدار السلاسل من أبرز الأعمال التي تميز دور النشر بعضها عن بعض ، ففضلاً عن أهمية تحديد الهدف من إصدار السلسلة ، ومعرفة شريحة أو شرائح القراء الموجهة إليهم ، والفئات العمرية والمستوى الثقافي ، فضلاً عن كل ذلك ، لابد أن تتوفر نية الاستمرار والتحسين والتطور والاستجابة لكل ما يجعل لهذه السلسلة أو تلك شخصيتها المستقلة ، وسلسلة «صفحات من تاريخ مصر» جاءت فكرتها لتغطى وتلبى احتياجات القراء من المثقفين وطلاب المعرفة ، وجاء إصدارها بشكل فريد غير مسبوق ، بمعنى أنها ليست أجزاء تكمل بعضها البعض ، مع أنها فى كتب ومجلدات تحمل أرقام مسلسلة ولكن لأن التاريخ هو الأب الشرعي لكل العلوم الاجتماعية والإنسانية، فكان التحدي الذى واجه مكتبة مدبولي : كيف تصدر سلسلة تشبع رغبة وفهم القارئ فى معرفة تاريخ مصر سواء الحديث أو الوسيط أو المعاصر، بأسلوب غير تقليدي ، فمرة من خلال سيرة حياة شخصية لحاكم أو قائد فى فترة زمنية معينة ، ومرة أخرى من خلال تسجيل لكاتب أو مؤرخ أو محقق فى تاريخ مصر فى فترات محددة ومرة أخيرة من خلال سيرة حياة ظاهرة طبيعية مثل نهر النيل مثلاً ، أو جماعة سياسية أو حزب أو ناقد من الأجانب ... إلخ المهم بدأت السلسلة

والمستهدف إصدار مائة كتاب منها وقد قرب عدد إصدارتها على ستين كتابًا حتى الآن ومن خلال هذه السلسلة يستطيع القارئ أن يعرف كل ما يريده عن تاريخ مصر ويوميات أحوال الوطن فى كل العصور بدءًا من الفتح العربي لمصر وحتى نهاية القرن 21 ويعرف أيضًا منها أساليب إدارة البلاد فى كل العصور تبعًا للأنظمة التي توالت عليها .

2 – سلسلة صفحات من تاريخ مصر الفرعونية:

وهى سلسلة تلقى الضوء على بعض جوانب الحياة فى مصر الفرعونية فى كل العصور وفى كل العلوم والفنون والعادات والتقاليد والديانات . كما أن هذه السلسلة تهتم بإبراز الجانب العبقري فى الحياة عند المصريين القدماء ، والإبداع فى مجالات العمارة ، والفن والهندسة والطب ، والإدارة ، والنظافة .. والجوانب السياسية مثل الاستيلاء على السلطة وتوارث العروش .. والجانب الروحي«جانب الخلود» الذى كان يوليه الأجداد اهتمامًا عظيمًا فبنوا له المقابر العملاقة ، وخططوا ونفذوا له المدن ، وأعدوا العدة للحياة الآخرة عند البعث .. ومازالت هذه السلسلة مستمرة إضاءة على عبقرية الإبداع عند مصر الفرعونية .

3 – تاريخ مصر من خلال تاريخ البطاركة:

مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع تعد أكبر المخطوطات من حيث الفترة التاريخية التي تغطيها فهي تغطى الفترة من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين . فهي المخطوطة الوحيدة التي تغطى تاريخ مصر منذ الاحتلال الروماني وحتى عهد الملك فؤاد. وبالرغم من ذلك فإن معظم مؤخري مصر يتجاهلونها بسبب ندرتها بين يدى الباحثين وبسبب ظن من يسمعون عنها أنها تاريخ للكنيسة المصرية فقط غير مدركين للرصد التاريخي الهام لوقائع مصر العديدة التي ترصدها هذه المخطوطة .. وقد تصدى الحاج مدبولي لنشر هذه المخطوطة عن طريق المحقق والباحث الأستاذ عبد العزيز جمال الدين .. وتتكون هذه المخطوطة من أربعة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول : من مار مرقس حتى البطرك 38 بنيامين الأول 622/ 661م

الجزء الثاني : من البطرك 39 أغاتون 661/ 677م حتى البطرك 52 يوساب 830/ 849م .

الجزء الثالث: ومكون من مجلدين - ويغطى الفترة من خايال الثاني 849/ 851م إلى يوحنا 1189/ 1216 .

الجزء الرابع : ومكون من مجلدين أيضًا : يقطيان الفترة من 1216م حتى نهاية القرن العشرين .

4 - أطلس العمارة الإسلامية والقبطية فى القاهرة:

الآثار الواردة فى هذا الأطلس تضم حوالى خمسمائة وثمانية عشر أثرًا منها الآثار الدينية مثل المساجد والمدارس والخانقاتوات والزوايا والأضرحة ، والآثار السكنية مثل القصور والمنازل والرباع والقاعات والمقاعد ، والآثار التعليمية والمائية مثل الكتاتيب والأسبلة والأحواض والآبار والسواقي وقناطر المياه ، والآثار الحربية مثل القلاع والأسوار والأبراج والبوابات ، والآثار التجارية مثل الوكالات والخانات والقياسر ، والآثار الطبية مثل البيمارستانات بالإضافة إلى الزخارف وأشغال المعادن والجواهر النفيسة . وقد صدر من هذا الأطلس ما يلى :

م	عنوان الكتاب	المؤلف
1	الآثار الواقعة بين الفتح العربي ونهاية عصر الدولة الأيوبية «مجلد واحد»	د. عاصم محمد رزق
2	آثار عصر دولة المماليك البحرية«مجلدين»	د. عاصم محمد رزق
3	آثار عصر دولة المماليك البرجية «مجلدين»	د. عاصم محمد رزق
4	آثار العصر العثماني«مجلدين»	د. عاصم محمد رزق

م	عنوان الكتاب	المؤلف
5	آثار عصر محمد على «مجلد واحد»	د. عاصم محمد رزق
6	الفنون العربية الإسلامية فى مصر	د. عاصم محمد رزق
7	الزخرفة التاريخية «مائة وعشرون لوحة ملونة»	
8	المنتقى من أشغال الحديد	د. أسامة الفقى
9	موضوعات الإنجيل بريشة الفن	أسامة الفقى

وغير هذه السلاسل والأعمال الضخمة فقد أصدر مدبولي سلسلة العلاج بالأعشاب والنباتات الطبية والعطرية ، وسلسلة الفيلسوف والمرأة ، وسلسلة الفكر الصوفي فى جميع الأديان ، ومجموعة متميزة وفريدة من الموسوعات والأعمال الفكرية والقواميس والمعاجم ، وسلسلة المكتبة الزراعية التي لم تترك شأنًا سواء الإنتاج أو المقاومة أو التنوع فى المحاصيل التقليدية أو النباتات الطبية سواء فى الأراضي السوداء أو فى المجتمعات الجديدة الصحراوية .. وهذه السلسلة تعتبر خير عون للزراعيين والمرشدين وصغار الملاك الذين لم تكن الزراعة نشاطهم الأصلي.. ومازال العمل والإنتاج والنشر والإبداع يتواصل فى مكتبة مدبولي انطلاقًا من الأساس الذى يقول أن خدمة النشر يلزمها الحب والتعاون قبل أن تكون تجارة واستثمار .

صناعة الكتاب ومتاعب النشر :

الكتاب فى صناعته عبارة عن ورق وأحبار وأقلام وزنكات وألوان وغلاف مقبول إلا أن صناعة الكتاب فى مصر والوطن العربي تعانى من مشاكل ومتاعب عديدة تنعكس سلبًا على عملية النشر وصناعة الكلمة المكتوبة ومن أبرز المتاعب والمشاكل التي تعانى منها صناعة الكتاب فى مصرنا والعالم العربي : «ارتفاع الأسعار، والجمارك ، والضرائب ، ومصاريف الشحن ، والرقابة المجحفة ، والتوزيع الداخلي والخارجي ، ومجموعة عوامل متداخلة مازالت تشكل كوابيس

مزعجة تقلق منام الناشرين ومما يزيد تعقيد هذه المشاكل التقلبات السياسية بين الأنظمة العربية الحاكمة التي تقف كعقبة فى تداول الكتاب بين البلاد العربية وبالتالي تؤثر فى عملية التبادل والتواصل الثقافي والفكري .

وللحاج مدبولي آراء قيمة وتشخيصات دقيقة حول عملية صناعة الكتاب ومتاعب النشر المتقدمة فهو يرى أن الكتاب الجيد : «هو الذى يضيف فكرة جديدة ولا يردد أفكارًا سبق نشرها ، وأنه لابد أن يكون له شكل مقبول خاصة الغلاف فهو يشكل حوالى 70٪ فى جذب انتباه القارئ ، ولا يقصد الحاج مدبولي بالغلاف الصورة أو الرسم وإنما يقصد العنوان .. لأنه لم يعد قارئ هذه الأيام تجذبه الصورة أو الرسم .. والدليل على ذلك أنه نشر فى عام 1960 ترجمات لبعض مؤلفات «سارتر» ورغم أن المترجم كان طالبًا بكلية الآداب وليس له اسم فى السوق إلا أن جميع النسخ بيعت لأنه كان اهتمام مدبولي الأول منصبًا على الغلاف وطريقة عرض اسم الكتاب» . كما أن الحاج مدبولي يرفض بشدة مسألة الإعلانات التي أخذت طريقها سريعًا إلى أغلفة الكتب والصفحات الداخلية وذلك حينما قال : «أنا أرفض نشر أي إعلان على غلاف الكتاب أو صفحاته الداخلية .. وأرى أن الإعلان يكون فقط فى التلفاز أو المذياع أو الصحيفة أو أي وسيلة أخرى .. والسبب أن الإعلان يشوه الكتاب والمفروض أن تحتل مادة الكتاب من الغلاف الأول وحتى الأخير. لأن القارئ لن يقرأ الإعلانات .. وإعلانات الكتاب وسيلة يلجأ إليها الكتاب والناشرين حتى يغطوا تكاليف الكتاب من ورق وطبع» .

ويقول مدبولي أيضًا : «إذا أردنا أن تصبح المنطقة العربية قادرة على تصنيع الكتاب بكامله ، لابد أن يكون لدى الأمة العربية سوق مشتركة للنشر حتى يصبح لدينا تنمية داخلية ونأخذ احتياجاتنا من بعضنا البعض وعندئذ يصبح سعر الكتاب معقولاً وأرخص من أسعار الخارج ويزيد إقبال القارئ على شراء الكتب» وفى فلسفة رائعة ورؤية ثاقبة تستند على الخبرة يرى الحاج مدبولي «إن مستوى التعليم والثقافة هو الذى يحكم سوق النشر العربية لأنه كلما زادت نسبة الأمية الثقافية والتعليمية كلما انتعش سوق الكتاب الغث سواء كان عن الجنس أو الفكر الظلامي والعكس صحيح» .

سعر الكتاب:

يرى الحاج مدبولي أن سعر الكتاب ما هو إلا «حصيلة جمع مفردات ومكونات الكتاب من حقوق تأليف وقيمة فاتورة الطباعة بالإضافة لمصروفات التسويق وتشغيل رأس المال» ويرى أيضًا : «أن المواد التي تدخل فى صناعة الكتاب تخضع للعوامل الاقتصادية لأن مكونات صناعة الكتاب فى الغالب مستوردة . كما أن الكتاب أموال مكدسة على الأرفف لمدة ربما تطول لسنوات ، وهذا معناه أن دورة رأس المال بطيئة وهامش الربح ليس كبيرًا» .

وأن المتابع لعملية صناعة النشر يرى أن قضية ارتفاع سعر الكتاب قضية قديمة ولها أبعادها وجذورها، وقد تناولها الكثيرون بالدراسة والبحث. فيرى الناشر «عدنان سالم» – دار الفكر بسوريا : «أنه لا توجد مصلحة للناشر فى رفع سعر الكتاب فى مجتمع عازف عن القراءة» كما يرى «أن الشعور بغلاء سعر الكتاب يعود إلى ضعف شعورنا بأهميته لنا وحاجتنا إليه فالكتاب عندنا لا يرقى إلى مستوى الحاجة ، وأن الفرد العربي لا يهتم بالكتاب إلا عندما يكون متلقيًا له بمراحل التعليم المختلفة، فإذا تركها دخل فى حالة من «الفروق القرائي» التي تجعله لا يقرأ مهما قل سعر الكتاب أو تم تقديم الكتاب له مجانًا» كما يرى كذلك «أن دعوى غلاء سعر الكتاب ما هي إلا حجة يسوقها الفرد العربي لمواجهة عزوفه القرائي» . وهذا ما يراه الحاج مدبولي عندما قال : «إن ظاهرة ارتفاع سعر الكتاب ظاهرة وهمية وتهمة ظالمة فى ظل ارتفاع تكاليف الحياة من مأكل ومشرب ومسكن وملبس ، والناشر ليس له ذنب فى ذلك لأنه يعانى من تكاليف الأحبار والورق والجمارك ، وحق المؤلف المادي ، وعمال الطباعة – ولكنى لا أنفى وجود بعض المستغلين الذين يرفعون سعر الكتاب أضعاف تكاليفه وأرى أن مثل هؤلاء لا يمكن أن يقال عنهم أنهم مصريون أو عرب . كما أنهم لم يعرفوا بعد أن الكتاب أصبح الركيزة الأولى للنمو الفكري لدى الأجيال وأنه ينير وعى شبابنا ويجدده وينميه فكريًا ودينيًا».

ومن ناحية أخرى يرى الناشر «عبود عبود» دار الجيل ببيروت «أن أسعار الكتب فى الوطن العربي فى ارتفاع مطرد ولهذا أسباب ترجع إلى التضخم المالي مع تناقص

نسبة توزيع الكتاب نتيجة للأزمة الاقتصادية التي تعصف بالعالم بأكمله الأمر الذى دفع المستهلكين إلى توفير ما لديهم – لتأمين الحياة» هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤكد «عبود عبود» «أن ارتفاع الأسعار يعود إلى ازدياد تكاليف التأليف والطبع والنشر وأسعار الورق فى السوق العالمية» أما الناشر «حسين العودات» دار الأهالي بسوريا «فيرجع أسباب ارتفاع سعر الكتاب إلى عدم وجود صناعات ثقافية فى البلدان العربية فالعرب يقومون باستيراد ما يقرب من 80٪ من المواد الخام المستخدمة فى صناعة الكتاب ، وهى بالطبع أسعار عالمية بالنسبة لنا فى الوقت الذى يقل فيه متوسط دخل الفرد وبالتالي تنشأ فجوة بين تكاليف إنتاج الكتاب ودخل القارئ» ويشير «العودات» إلى سبب آخر وهو قلة العدد المطبوع من الكتب فالمعروف «أنه كلما زادت الكمية المطبوعة قل السعر والعكس صحيح» .

اتحاد الناشرين وارتفاع سعر الكتاب :

يقول الحاج مدبولي «هناك حاجتان فى هذا العالم لابد منهما : النظام والإدارة اللذان يؤديان بدورهما إلى النجاح واتحاد الناشرين إذا أراد النجاح عليه التمسك بهما لأن النشر ليس سهلاً فهو عملية صعبة ومكلفة .. وكنت أتمنى أن يكون لاتحاد الناشرين العرب دور فى تسهيل عملية النشر وأن يكون له نشاطًا حتى يواكب العصر ومعطياته» ثم يضيف أناشيد بالناشرين اللبنانيين فهم متعاونون مع بعضهم البعض حتى فى البيع لدرجة أنهم يرسلون الزبائن لبعضهم البعض ويتكاتفون فى مواجهة المشكلات التي قد تواجه واحدًا منهم وكذلك الأردنيون والسوريون وأتمنى أن يكون لاتحاد الناشرين دور فى توحيد الأسعار للناشرين المشاركين فى المعارض الخارجية .. وأن ينسق مع اتحاد الناشرين العرب لتقديم مساعدات وتسهيلات فى الإقامة والتعريفة الجمركية وفى نفقات السفر ، وأن يلعب دورًا فاعلاً فى فض وتسوية المنازعات بين المؤلفين والناشرين ، وأن يفصل فى المشاكل فى هذه المشاكل ويحول دون وصولها لساحات المحاكم .. كما أعتقد أن الحسنة الوحيدة التي نستفيد منها فى معرض الكتاب : أننا نقدم الثقافة للناس وأن المعرض دعاية لأسمائنا وتعارف بين الناشرين وتنمية للثقافة العربية وخدمة للقارئ» ولكن «هل يعقل أننا

نقوم بالخدمات الإعلامية والإذاعية ثم نحاسب عليها؟! ففي الإذاعات الداخلية التي تعلن عن كتب جديدة تقوم بالدفع حسب المدة! لكن حسبنا أن المعرض عُرس ثقافي نتواجد به لتقديم ما نستطيع من خدمات لبلدنا».

ولكن ماذا عن المعارض العربية ؟ يجيب ردًا على سؤالي : «معرض أبو ظبى كمثال رائع .. وفيه كل ما يحتاج إليه الناشر .. وهو المعرض الوحيد فى المنطقة العربية الذى يتم تأجيره للناشرين مجانًا!! ورغم ذلك يبحثون عن الناشرين المصريين ولا يجدونهم» .

س: وما هي أكثر المشكلات التي تواجه الناشرين العرب فى معرض القاهرة الدولي للكتاب ؟

مدبولي: مشكلات الشحن والتخليص الجمركي وهى مشكلات لا دخل للدولة بها لأنها من صميم عمل اتحاد الناشرين المصريين .

س: ما رأيك إذا نادى البعض بأن ينظم اتحاد الناشرين المصريين أو العرب معرض الكتاب ؟

مدبولي : لا .. ماينفعش وأنا لا أؤيد هذا ولا أقتنع به .. ولا أتمناه .

س: ما مدى الاهتمام الإعلامي بالإصدارات الجديدة والكتب عمومًا؟

مدبولي : بالطبع لا يوجد لدينا هذا الاهتمام ولا يوجد لدينا «تخديم إعلامي» جيد وهذا من ضمن التحديات التسويقية للكتاب .. فالإعلان عن الكتاب الجديد فى الصحف مكلف جدًا .. فى إنجلترا مثلاً تجد الطبعة الأولى لأى كتاب تصل لأكثر من نصف المليون نسخة نتيجة للخدمات الإعلامية وطريقة الإعلان عن الكتب .. كما أن فى أوروبا برامج تليفزيونية مخصصة فقط للكتب ومناقشاتها .. والمفروض أنى بعدما أتكبد التكاليف الباهظة لطباعة ونشر الكتب أن تدعمني الدولة.. يعنى «زي ما الدولة بتدعم رغيف الخبز اللي هو غذاء البطون لازم تدعم أيضًا الكتاب اللي هو غذاء العقول .. مش كده ولا إيه؟» .

س : ولكن على من تقع مسئولية تسويق الكتاب وتخديمه إعلاميًا ؟

مدبولي : طبعًا مسئولية الناشرين والدولة .. وبما أن الناشر يتكلف الكثير أثناء عمليه وخدمة الكتاب إعلاميًا أو إعلانيًا فيجب على الدولة أن تدعمه ، بحيث تصب هذه المشاركة بين الدولة والناشر فى مصلحة المعرفة والثقافة والعلم .

الرقابة على الكتاب وزيادة رسوم مستلزمات الطباعة :

يرى الحاج محمد مدبولي فى وجود الرقابة على الكتاب تراجعًا للديمقراطية والحرية معًا فالوسيلة الوحيدة هي إلغاؤها فلا جدوى لوجود حدود دنيا أو عليا للرقابة . يقول فى كلمات بسيطة جامعة : «حرية النشر دي، حرية ربنا اللي بخلقها لبنى آدم فمثلاً أنا باشوف أبيض وغيرى بيشوف اسود، وده شيء أنا مش مقيد به . أنا أؤمن أن عقيدة البنى آدم هي التي تفرز الصح والخطأ، والحرية دي مش منحة من حاكم أو رئيس، ودى منحة من عند ربنا يعطيها للإنسان لكى يقول بها «أبيض وأحمر وأصفر» . ويرى الحاج محمد مدبولي أن زيادة أي رسوم جمركية على الورق ومستلزمات الطباعة ستؤدى إلى وقف العملية الإبداعية وأن الزيادة تعتبر أيضًا جريمة ضد الفكر والثقافة .. ويحدد الخسائر المتوقعة من زيادة أي رسوم على مستلزمات طباعة الكتاب فى أربع نقاط هي :

1 – ارتفاع تكلفة الكتاب بنسبة 25٪ وبالتالي سعره وهو ما سيتحمله القارئ فى النهاية .

2 – عاصمة الكتاب ستنتقل من القاهرة لمدن أخرى حولنا فى لبنان وقبرص واليونان .

3 – مثل هذه الزيادة ستجعل العديد من الناشرين ينقلون نشاطهم لأماكن أخرى وبالتالي المكاسب التي تسعى الدولة لتحقيقها من الزيادة ستخسرها ، بل وستخسر أكثر منها بكثير فى النهاية .

4 – إن عادة القراءة التي تحاول الدولة تأصيلها فى نفوس الأطفال والشباب سيقضى عليها تمامًا .. ويرى أن تشريع الدولة لأى زيادة من هذه النوعية معناه التضارب فى السياسات والأهداف القومية للدولة .

مدبولي والكتاب الورقي :

هناك علاقة جدلية ، وعلاقات حب أبدية بين الحاج مدبولي والكتاب الورقي وأن الكتب هي التي يستدعيها عندما تحل بـه المشـاكل يقـول : «أنـا طـول عمـرى بـين الكتب، وعندما يكون عندي مشكلة أتوجه إلى المكتبة وأنزل بين الكتب ممكن أجـد الحل بين سطور كتاب أو عنوان غلاف » .

ووفاءًا وتقديسًا لهذه العلاقة يرى أن الكتاب المطبـوع مازالـت لـه مكانتـه وسـحره الخاص الذى يجعله قادرًا على المنافسة مهما اخترع الإنسان مـن وسـائل وتكنولوجيـا حديثة لأن الناس دائمًا تعشق الكتاب بصورته المعروفة منذ آلاف السنين ، بالإضافة إلى أن الكتاب المطبوع أو الورقي تستطيع أن تقرأه فى كل مكان وزمان وأن القارئ لا يشـعر بالمتعة إلا وهو ممسك بالكتاب بين يديه . يقول : «الكتاب المطبوع سيبقى موجودًا إلى يوم القيامة ، وأن هذه المهنة الورقية ستظل قائمة وتلعب دورها لأن الله سـبحانه وتعـالى قال لنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأ) ولم يقل لـه اسـمع أو «شـوف» .. لأن القراءة لها خاطر مختلف عن الأشياء الأخرى .. لأنك عندما تعيش الخيـال العلمـي أو الفكري ستجده يختلف عن الأشياء العابرة ، فالكتاب معك وأمامك فى أي وقت وتحت أمرك دون تكلف أو عناء ، فالتكنولوجيا وسرعة المعلومات لعبت دورًا ملحوظًا ولكنها آنية وسرعان ما ينتهى مفعلوها أمـا الكتـاب فهـو الـذى يبقـى ويسـتمر .. لأن الكتـاب مختلف عن الراديو والتليفزيون والحاجات دي كلها .. والمتعود يقرأ بيعمـل أي شـيء ويطفى التليفزيون علشان يقرأ» ثم يضيف «لأن الورق له متعته الخاصة وكيانه المستقل ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يأتي اليوم الذى ينتهى فيه دور الكتاب الورقي الـذى بدأ منذ زمن أرسطو وأفلاطون .. ومن المفروض أن نلقى تحية للكتاب .. ولكن هنـاك أناس لا يعرفون قيمة الكتاب ولا تقدره وتدوس عليه».

مما تقدم نرى أن الحاج محمد مدبولي يرتبط مع الكتاب بعلاقة مختلفة لا تكـون إلا معه ، فهو يعتبر الكتب أبناءه الذين يتوجب عليه رعايتهم وحفظهم من الضـياع .. وهذه العلاقة هي التي دفعت الشاعر الكبير «نـزار قبـاني» إلى القـول : «نحـن نحـب مدبولي لأنه يتعامل مع الكتاب كإنسان» وجعلت أنيس منصور يجـزم أنـه «لـو كتـب

تاريخ الثقافة فى مصر سيكون لمدبولي نصفه» .

وهذه العلاقة هي التي جعلته يقدم تقريرًا مثيرًا عن مؤشر البيع بالنسبة للكتب الأدبية خلال مسيرته معها.. يقول «أكثر الكتب الأدبية التي يقبل عليها الجمهور بالترتيب حسب كميات البيع :

1 – فى الشعر «أعمال إبراهيم ناجى ، ثم نزار قباني ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وأمل دنقل ، وفاروق شوشة ، وصلاح عبد الصبور ، وبدر شاكر السياب ، ومحمود درويش» .

2 – فى الرواية : «نوال السعداوي ، ثم نجيب محفوظ ، وإسماعيل ولى الدين، وغادة السمان» .

3 – فى القصة القصيرة : «يوسف إدريس» .

4 – فى النقد الأدبي : «محمد غنيمي هلال ، وجابر عصفور ، وبعض النقاد اليمنيين واللبنانيين» .

وهذا الحب قد دفعه أيضًا للتعاون مع زملائه الناشرين العرب يقول: «أغلب الناشرين اللبنانيين فى الستينيات والسبعينيات كانوا يأتون إلىّ من لبنان لنتكلم حول نشر هذا الكتاب أو ذاك . الأغلفة وأفكار ومشروعات كثيرة : المعاجم ودوائر المعارف ، وكتب التراث والأعمال الشعرية الكاملة حتى «قاموس المورد» جرت بشأنه استشارات عديدة ، حتى تطور وتغير وأنا لم أبخل على أحد لأن هذه المهنة مهنة علم» .

وقد دفعه أيضًا هذا الحب الجارف للكتاب أن يعلن فى 17/ 4/ 1975م عن كأس من الفضة الخالصة يهديها باسمه إلى صاحب الكتاب الذى يحقق رقمًا قياسيًا فى التوزيع .

26 قضية أمن دولة

■■■

«الكتاب ضد السجن، الكتاب حرية، الكتاب حروف يقرأها الناس».

الحاج مدبولي

يقول الأستاذ «خلف الحربي» : «شخصية الحاج مدبولي تدفعنا بشكل لا إرادي نحو تأمِل شخصية الناشر العربي بشكل عام ، فناشر الكتب في هذه المنطقة المعادية للكتاب – يكتسب معالم شديدة الغرابة فهو رجل لا يغيب عن أعين الأجهزة الأمنية وضيف شبه دائم على مراكز التحقيق ، ولكن هذه الحال الصعبة لا تشفع له أمام المثقفين الذين يطبع كتبهم فهم يتهمونه بأكل حقوقهم والمتاجرة بأفكارهم والصعود على أكتافهم ، وقد تميز العديد من الناشرين العرب بمهارات خاصة في عبور الممر الضيق بين اتهامات السلطة واتهامات المثقفين للوصول إلى القطاع العريض من القراء ، كما تميزوا بقدرتهم العجيبة على تمرير الكتب الممنوعة عبر المنافذ وإخفائها عن أعين الرقابة ، بل إنهم رغم علاقاتهم الشرسة بالرقيب إلا أنهم على استعداد دائم لبناء علاقة إنسانية جيدة معه . وفى غالب الأحوال يكون الناشر العربي مستعدًا دائمًا للنقاش السياسي الطويل ، وغالبًا ما يكون مقر عمله ملتقى للمثقفين والسياديين المتقاعدين ، وقد يتحول الناشر العربي مع مرور الأيام إلى شخصية غريبة جدًا فهو مثقف لا يكتب وسياسي لا يعمل وتاجر لا علاقة له بالسوق» . كل ما قاله الأستاذ «خلف» أراه منطبقًا الدولة مدبولي فهو الذي تعرض لأكثر من 24 قضية أمن دولة بسبب ما نشره أو وزعه من كتب . ولقد ظل طوال حياته قريبًا عن أعين أمن الدولة ، وضيفًا دائمًا على مراكز التحقيق .. ثم نجده رغم هذا عرضة لاتهامات المؤلفين الذين يتهمونه بأكل حقوقهم المالية .. وقد عُرف عن الحاج مدبولي قدرته القائمة في الحصول على الكتب والإبداع الممنوع كما نرى

لاحقًا . كما أن كشك مدبولي ظل لفترات طويلة منبر المعارضة وملتقى المثقفين والسياسيين .. وبالفعل قد تحول الحاج مدبولي إلى : «مثقف لا يكتب ، وسياسي لا يعمل ، وتاجر لا علاقة له بالسوق» لأنه اتخذ مهنة النشر لتسويق الإبداع الإنساني .

والآن نعود إلى موضوعنا الأساسي وهو أن تميز مدبولي وقدرته الخارقة على تمرير الكتب الممنوعة قد أوقعه في مشاكل عديدة مع أجهزة الرقابة وسلطات الأمن.. وهذا بدوره يقودنا إلى التساؤلات الآتية: هل يمكن أن يتحول الناشر إلى رقيب ؟ وهل يوافق الناشر على رقابة الأزهر على المطبوعات بمصر ؟ وعلى هذه التساؤلات يجيب الحاج مدبولي بقوله : «وأين دور مجمع البحوث الإسلامية؟ وأين الأزهر؟ وهما يغمضان أعينهما عن بعض الكتب .. لذلك فالمحكمة هي الطريق الوحيد لمصادرة المطبوعات .. ولكن الأهم من كل ذلك أن الرقابة لا تقتصر على وجود هيئات ومؤسسات رسمية فقط ، ولكن الرقابة في الأساس هي رقابة الضمير ، وينبغي أن تكون نابعة من الذات ، فمن الممكن أن تجد الكثير من الكتابات والآراء التي توافق عليها الرقابة الأمنية والدينية ورغم ذلك لا يرضى عنها الإنسان ، فهل ذلك مبرر لنشر وتسويق فكر أو رأى معين فيه ضرر للناس ويمس العقيدة ؟ رقابة الإنسان على نفسه أهم وأجدى من رقابة المؤسسات» ومن هذا الكلام يتبين أن الحاج مدبولي يرى أن الرقابة ذاتية ولكنه في نفس الوقت لا يرفض رقابة المؤسسات إلا إذا كانت حائلاً دون توصيل الإبداع إلى جماهير القراء والأجيال التي يشعر بالمسئولية تجاهها ويقول : «أنا عندما أمارس دوري في الرقابة أمارسه كإنسان يتحمل مسئولية تثقيف الأجيال وهذا حقي وموقفي . وأنا كما دافعت عن الكُتاب والمؤلفين وتحملت الكثير من المتاعب الأمنية والدينية بسبب مواقفي وإصراري على نشر بعض الكتب التي لا ترضى عنها المؤسسات الرقابية ، فأنا أقوم أيضًا بدوري في الدفاع عن القراء والأجيال التي أشعر بالمسئولية الكاملة نحوها ، كما أنني أفرض على نفسي رقابة ذاتية تجاه الكتب الدينية التي تتضمن مخالفات دينية وكتب الجنس الفاضح ولا أقدم أيًا من تلك النوعية لأن هذه المهنة ليست كأي مهنة أخرى ، وكل ما أقدمه للناس سوف يحاسبني عليه الله يوم القيامة ، وأنا أمارس دوري كقارئ قبل أن أكون ناشرًا» .

والآن نأتي إلى سؤال آخر أراه مهمًا وجوهريًا وهو : هل فعلاً أن الحاج محمد مدبولي متخصصًا في توفير الإبداع الممنوع أم أن انحيازه للكلمة الحرة هو الذي جعله هكذا ؟ وأعنى بعبارة «متخصصًا» هنا «مهربًا» كما وصفته بعض الكتابات وللإجابة على هذا السؤال الطويل يقول الأديب محمد يوسف القعيد : «ميزة مدبولي أنه لم يكن حكوميًا على الإطلاق لا مع الحكومة المصرية ولا مع أي حكومة عربية لذلك كانت كل كتب المعارضة العربية لكل الأقطار عنده ، بل كان يحرص على أن تكون عنده .. وكذلك كل الكتب التي كانت ممنوعة من دخول مصر فأنا قرأت عنده كتاب «خريف الغضب» لمحمد حسنين هيكل الذي كان ممنوعًا من دخول مصر ويصدر مسلسلاً في جريدة الوطن الكويتية والتي كانت ممنوعة من دخول مصر أيضًا.. وأذكر أن الحاج محمد مدبولي كان يصور المقالات يومًا بيوم ويوزعها لنا «هدايا» ولم يكن يفعل ذلك بغرض التجارة وإنما لإيمانه القاطع بما يكتبه هيكل ، ورأيه تجاه الحقبة الساداتية .. ولقد قرأت عنده أيضًا رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ ، وكتاب الدكتورة نعمات أحمد فؤاد عن مشروع هضبة الأهرام ، وكتاب الدكتور حامد ربيع عن اختيار مصر النووي، وكتاب «مصر مجتمع جديد بينه العسكريون» لاثنين من الكتاب الشيوعيين .. وأكرر لم يكن مدبولي «مهربًا» ولم يكن يتقاضى أي مليم عن ذلك ولكنه كان يمكننا من الاطلاع على الكتب الممنوعة ، وعلى الجديد الذي لا يدخل مصر لأنه كان يعتبر أن الرهان على موهبة جديدة من مصر هو الرهان على شيء عظيم» .

ويمكننا أن نستخلص الآتي من كلام القعيد:

أولاً : إيمان مدبولي القاطع بعدم الحجر على الإبداع .

ثانيًا : توصيل الإبداع إلى طالبه دونما أجر أو شكر .

ثالثًا : لم يكن مدبولي مهربًا وإنما مساهمًا ومدافعًا عن حق القارئ والمؤلف معًا .

رابعًا: ليس هنالك إبداعًا ممنوعًا وإبداعًا غير ممنوع وإنما المنع يكون في وجدان الرقابة والسلطات الأمنية والسياسية.

فلسفة مدبولي في بيع الكتب الممنوعة :

ارتبط ما يعرف «بمصطلح الكتب الممنوعة» بمسيرة الحاج مدبوليفي عالم الكتاب وصناعة وفاته. طوال حياته فكان متخصصًا في توفير الإبداع الممنوع وله في ذلك باع طويل.. إلا أن هذا التخصص أورده المهالك والمشاكل كما سنرى لاحقًا – منذ فجر الثورة وحتى وفاته .. قد كان الحاج محمد مدبولي إما ناشرًا للكتب الممنوعة أو موزعًا لها . وللحاج مدبولي فلسفة ورؤية في تقديم ما يعرف بالإبداع الممنوع فهو يقول في ذلك : «أنا مؤمن بحرية العقل ومن أجلها أفعل كل شيء حتى الكتاب الممنوع سياسيًا أبيعه ومع أنني أحب الرئيس جمال عبد الناصر حبًا غير عادى. إلا أنني في نفس الوقت إذا كان هنالك كتابًا ينتقد عبد الناصر وفيه خير لمصر أبيعه لأن هذه حرية. كما أنه يجب على العقل أن يعرف جميع الاتجاهات حتى يختار الصائب منها. لذلك أقول هذه المائدة (الكتاب) لكل الناس ، لليساري واليميني ، والشيوعي والإسلامي ، وكل واحد يختار ما يشاء . وأقول في نفسي إذا كان المسئول وطنيًا لماذا يمنع هذا ؟ الإجابة لأن الكتاب أقوى من السلاح وأقوى من القنبلة الذرية.. وفى سبيل توفير مثل هذا الإبداع لا تهمني المخاطرة والمتاعب وإنما المهم أن أفعل ما أريد.. وبالفعل تعرضت لمشاكل كثيرة لكنني كنت مؤمنًا برسالتي ولهذا لم أفكر أبدًا في ترك مهنتي نتيجة لتلك المتاعب.. وبما أنني لم أتعلم لذلك أريد أن تتعلم كل الناس، ولا أريد أن تكون الناس جاهلة ، وأعتقد أن المجتمع السليم لابد أن يكون فيه نقد لبناء المجتمع، لأن الناس الموجودة الآن ليسوا أنبياء وليسوا فوق النقد».

وردًا على سؤال حول حرية الفكر التي ينبغي أن يراعيها الناشر ، قال مدبولي «أنا مع حرية الفكر إلى أقصى مدى ، إلا أن المسألة عندما تتعلق بالذات الإلهية والكتب الإباحية الرخيصة فأنا أتوقف عن ذلك لأنني أحمل رسالة الحفاظ على الفكر وعلى تقديم كل ما هو جديد للقارئ العربي» .

والآن علينا أن نتوقف قليلاً عند هذا السؤال : كيف كانت تصل الكتب الممنوعة إلى مدبولي؟ يجيب مدبولي على هذا السؤال قائلاً: «بعد خسارتنا الكبيرة في سنة

1956م بسبب خروج الأجانب من مصر قررنا أن «نلم» أنفسنا مرة أخرى وفكرنا أن يكون المسيطر هو الكتاب العربي والمجلات العربية ، ومن هنا ازدادت علاقتنا بمن يقرأ ويكتب .. ولكن كانت هناك مراحل من الزمن ممنوع فيها تداول الكتاب .. فلم يكن بمقدرة أى إنسان أن يجلب الكتاب العربي الممنوع إلى مصر .. فكان الناشرون أصحاب الكتب الممنوعة يتصلون أبى ويتفقون معي على توريد كميات .. ولقد كان لدى «مخلص» يقدر «يفوت في الحديد» ويأتي بالبضاعة إلى هنا وأنا في مكاني وهذه واحدة من طرقي في جلب الكتب الممنوعة» ولكن نود أن نتعرف على طريقة أخرى – فيقول «كانت كتب محمد حسنين هيكل ممنوعة من دخول مصر أيام السادات فكنت أتى بها من لبنان ولكنهم كانوا يمنعونني من السفر أحيانًا ويغلقوا الميناء والمطار حتى لا آتى بكتبه التي كانت مثل «المخدرات والممنوعات» .. ولكنى كنت أتحايل وأتفق مع المسافرين وتجار الشنطة لتهريب كتب هيكل لمصر وكذلك رواية «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ وكل الكتب الممنوعة» .

وأسأله ألم تكن تخشى بطش السلطة وأنت تقوم بجلب الكتب الممنوعة إلى مصر؟ فيجيب «لو كنت استسلمت لمشاعر الخوف (لا كنت رحت ولا جيت) » .

س: لكنك في النهاية تغامر وتتعرض للسجن، ولابد أن الربح المادي لم يغب عن ذهنك في جلب الإبداع الممنوع ؟

س:اج مدبولي : كانت تبقى التجارة في «الهيروين» أسهل وأضمن ، أو الشغل في المطبوعات الجنسية!!

س : ألم تكن تبيع هذه الكتب الممنوعة بأسعار مضاعفة؟

س:اج مدبولي : لم يحدث إطلاقًا .

س : هل حدث أن تم منع كتاب ولم تستطع الحصول عليه؟

الحاج مدبولي : أبدًا .

س: هل وقع أي كتاب من الكتب الممنوعة في أيدي الرقابة أثناء دخوله إلى مصر؟

الحاج مدبولي : لا : ولقد كنت أتحايل على رجال الرقابة بأن أجعل صبياني يدخلون بالكتب الممنوعة إلى المخزن ويخرجون بها من باب آخر وضعته لمثل هذه الحالات الطارئة .

ولتأكيد إجابة السؤال الأخير يجب علينا أن نشاهد الحلقة الخاصة بالحاج مدبولي في برنامج «زيارة خاصة» حيث يقول سامي كليب مقدم البرنامج : «حين زرت الحاج محمد مدبولي في صرحه الثقافي الضخم المتوسط قلب القاهرة فوجئت بسراديب طويلة في الطابق السفلى تمتد على عشرات الأمتار وفى السراديب كتب من مختلف الأنواع والمصادر والمواضيع وأخبرني أن هذه السراديب كانت مخبأ سريًا للكتب الممنوعة في خلال عهود القمع والمنع فقلما نُشر كتاب ومنع في العالم العربي إلا وكانت نسخ منه متوفرة هنا في هذه الدهاليز التي تشبه ملاجئ الحروب، وألاقى كتاب مخبأ وهو سرى» لكن الحاج مدبولي يخيب ظن سامي كليب ويقول له « لا هو اللي مخبئ أنا شايله بعيد عن هنا يعنى بأجيب جزء جزء» .

سامي كليب سائلاً الحاج مدبولي : يعنى بعد فيه كتب سرية حول شو المواضيع؟

محمد مدبولي مجيبًا : سياسية .

سامي كليب : حول مي ؟

محمد مدبولي : يعنى على موضوعات في بعض المنطقة العربية زي السعودية زي الكويت .

لكل عصر كتاب ممنوع :

في الحقيقة لم تكن كتبًا فقط بل أيضًا مجلات وجرائد أجنبية – أمريكية غالبًا – لا تريد الأنظمة السياسية التي حكمت مصر أن تدخل البلاد.. وقد كان لكل عصر سياسي كتاب ممنوع يعتبر تداوله جريمة يعاقب عليها القانون.. وقد كانت أشهر الكتب المحظورة في عصر عبد الناصر «هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني ، و «مذكرات بن بيلا» و «حزب البعث: مأساة النهاية» و «زمن الرعب» لإنعام الجندي ، و «جريدة الهيرالدتريبيون» الأمريكية . أما في عصر السادات كانت أغلب الكتب

الممنوعة هي الكتب التي تهاجم اتفاقية كامب ديفيد، وتنتقد عهد السادات ، وأشعار أحمد فؤاد نجم الذي كان مع الفنان المناضل الراحل الشيخ إمام نزيلي السجون بشكل مستمر .. وكتب محمد حسنين هيكل وبعض روايات الأديب نجيب محفوظ .. أما في التسعينيات أو عصر الرئيس مبارك فكانت الكتب الممنوعة «مسافة في عقل رجل» لعلاء حامد ، وكتاب «الشيوخ المودرن وصناعة التطرف الديني» للدكتور محمد فتوح ، وكتب نصر حامد أبو زيد ، وجمال البنا وكتاب «أبى آدم» لعبد الصبور شاهين، وبعض كتب الدكتورة نوال السعداوي .

لكل كتاب ممنوع حكاية :

1 – هوامش على دفتر النكسة:

يقول الحاج محمد مدبولي عن حكايته مع نزار قباني وهوامشه التي كتبها على دفتر نكسة 1967 : «عندما قمت بتوزيع قصيدة «هوامش على دفتر النكسة» لنزار قباني انقلبت عليّ الدنيا ، وقد تعرضت لهجوم شديد جدًا وذلك لأن طلبة جامعة القاهرة أخذوا القصيدة وصوروها على ماكينات «ستنسل» «ماكينات تصوير بدائية» وبالتالي انتشرت القصيدة في كل أنحاء الجمهورية من «الإسكندرية إلى أسوان» .. ولما كنت أرى في هذه القصيدة نقدًا بناءً لأخطاء مرحلة معينة لعهد عبد الناصر وإنها كانت نقد المحب أرسلت خطابًا إلى نزار قباني نصحته فيه بأن يرسل نسخة منها للرئيس جمال عبد الناصر، وفعلاً استجاب نزار واستجاب أيضًا عبد الناصر. فاتصل أبى «فتحي رضوان» الذي كان وزيرًا للإرشاد القومي آنذاك وقال لي يا مدبولي بيع النسخ اللي عندك وفعلاً بعتها كما رفع عبد الناصر الحظر عن أغاني نزار قباني في الإذاعة المصرية» .

نص خطاب الحاج مدبولي إلى نزار قباني : « لا تترك أحد يحرق الجسور بينك وبين جمال عبد الناصر . اكتب إليه شارحًا دوافعك النبيلة في كتابة القصيدة، فعبد الناصر زعيم قوى، لا يرتعش من قصيدة، ولا يخاف من غضب الشعراء».

نص خطاب نزار قباني إلى الرئيس جمال عبد الناصر: « وإذا كانت صرختي حادة

وجارحة فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة، والنزيف يكون بمساحة الجرح. لم يكن بإمكاني وبلادي تحترق ، الوقوف على الحياد ، فحياد الأدب موت له ، فالذي يحب أمته يا سيادة الرئيس يطهِّر جرحها بالكحول ويكوى ، إذا لزم الأمر ، المناطق المُصابة ، بالنار».

2 – صحيفة الهيرالد تريبيون الأمريكية :

وعن حكايتها قال لي الحاج مدبولي «في أوائل الثورة كان بعض الصحفيين والمراسلين الأجانب في القاهرة يمرون بالكشك الخاص أبى ويتركون لي بعض الصحف لبيعها . فكان من بينها صحيفة «الهيرالدتريبيون» الأمريكية التي كانت تهاجم عبد الناصر فانقلبت الدنيا عليّ وتم اتهامي ببيع صحف تسئ لعبد الناصر .. فتم أخذى إلى مكتب «فتحي رضوان» الذي حقق معي لمدة ساعتين في حضور ضباط كبار من الداخلية. فعندما قال لي: «أنت تبيع كتبًا ومجلات تهاجم الرئيس؟ قلت له: «إنني أقف في هذا الكشك لأبيع كتبًا، ويأتيني من يريد عرض كتبه ومجلاته للبيع، هل من المفروض أن أحمل الكشك على ظهري يوميًا وأذهب إلى أجهزة الداخلية لأخذ تصريحًا؟ وبعدين أنا راجل لا باعرف أقرأ ولا أكتب هو أنا عارف «الجرانين الإفرنجية» دي فيها إيه أنا أبيعها للأجانب» فاقتنع بوجهة نظري وانتهت المسألة» ويضيف مدبولي «كما كان هناك كتاب آخر مترجم يتحدث عن فضائح في المنطقة العربية ، وذلك أيام السادات فتم القبض عليّ وذهبت لمبنى أمن الدولة ، ولكن كان المحقق متفهمًا .. فقال لي إنني بهذا الكتاب أسئ للعلاقات المصرية العربية .. فأخبرته بأن هدفي من وراء ترجمة وتوزيع الكتاب هو التواصل مع الآخرين، فقال لي وزع النسخة الباقية عندك من الكتاب ولا تعيد طبعه مرة أخرى، حرصًا على علاقتنا بإخواننا العرب».

3 – مسافة في عقل رجل:

عن مسافة علاء حامد التي في عقل رجل يقول الحاج مدبولي : «رواية مسافة في عقل رجل عبارة عن خيال علمي ، يفترض المؤلف فيها أن هناك حربًا عالمية ثالثة بسببها انقرضت البشرية .. وكان أحد الناس قد سافر منذ 3 آلاف عام وعاد إلى

الأرض، والتقى الباقين على الأرض، وسألهم هل كان لديكم رسل أو أنبياء؟ فاعتبر هذا مساسًا بالأديان وانقلبت الدنيا مع أن هذه الرواية منشورة وتوزع قبل الضجة التي أثيرت بعامين. أما عن حكايتي مع هذه الرواية فالموضوع ببساطة هو أن علاء حامد «مأمور ضرائب» حضر إليّ ومعه الرواية فقال لي أنا طبعت هذه الرواية على نفقتي ووزعتها مع جريدة الأهرام وعند آخرين .. إلا أنني واجهتني أزمة توزيع بعد مرور سنتين على صدور الرواية.. وكل ما أطلبه منك أن تأخذ هذا المرتجع وتعرض عندك. .. فأخذتها منه وعرضتها عندي فكتب عنها «أحمد بهجت» فقامت الدنيا وكلمتني المصنفات وتم التحفظ على الرواية .. ثم تعرضت للمساءلة وكان لدى كل الأوراق التي تدل على أنني لم أكن الناشر.. إلا أنهم أصروا على أنني الناشر رغم أن المؤلف قال في النيابة أنه الناشر والطابع والمؤلف ثم حصل ما حصل».

ولكن ماذا عن كتاب « علشان ماتتضربش على قفاك؟ » يجيب مدبولي : «أهو مؤلف الكتاب ده طفش بره والكتاب بيعرف الناس على حقوقها في مواجهة الأمن وهو كتاب تعرض للمصادرة أيضًا» .

4 – كتاب «الشيوخ المودرن وصناعة التطرف الديني» .

عن الشيوخ المودرن قال الحاج مدبولي. وكالة رويتر : «إن شرطة المصنفات الفنية داهمت مكتبته وقبضت على أحد العاملين بها وتحفظت على 280 نسخة من الكتاب بتعليمات من مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة» وقال أيضًا لشبكة محيط الإلكترونية «الحكومة صادرت هذا الكتاب ثم سمحوا به ثانية والدليل أنه يباع عندي .. لأنهم لم يجدوا فيه شيئًا يمس الدين . وإنما هو كتاب يتكلم عن المشايخ الذين يفتون في الفضائيات من غير علم وأن المؤلف كان قصده إصلاح البلد.. لذلك فأنا لا أعترف ولا أحتكم إلى القرار الذي قضى به مجمع البحوث الإسلامية لأن المحكمة هي الطريق الوحيد لمصادرة المطبوعات. كما أنني أرفض وصاية الأزهر أو أمن الدولة على المطبوعات».

محيط : نرى بين كتبك المعروضة رواية «عمارة يعقوبيان» .. الرواية التي أثارت

الجدل في الآونة الأخيرة لما قدمته من نماذج منحرفة وبالأخص فيما يتعلق بالشذوذ الجنسي.. لماذا قبلت نشرها ؟

الحاج مدبولي : العمل الأدبي أنا رأيته جميل ومكتوب بطريقة لا أتخيل أن يصل لها علاء الأسواني مرة ثانية ، وعلى الرغم من أنه لم يكن مشهورًا إلا أنني أحتكم لجودة العمل .

5 – رواية سقوط الإمام .. ومسرحية الإله :

يقول الزميل «محمد عبد الخالق» في مقدمة الحديث الذي أجراه مع الحاج مدبولي «حتى وقت قريب كانت مكتبة مدبولي بميدان طلعت حرب قبلة للباحثين عن غذاء العقول وكان الحاج مدبولي هو العنوان الوحيد الذي يقصده أهل الفكر والثقافة والصحافة بحثًا عن كتاب تمت مصادرته ، أما الآن فقد أصبح «الحاج مدبولي» ناشرًا ورقيبًا بعد إصداره حكمًا بالإعدام على كتابي الدكتورة نوال السعداوي «الإله يقدم استقالته من اجتماع القمة» و«سقوط الإمام» يشكل هذا القرار سابقة هي الأولى من نوعها في إحدى أهم دور النشر في الوطن العربي والتي يمتد تاريخها لأكثر من خمسين عامًا بدأها الحاج مدبولي بـ «كشك» لبيع الصحف والمجلات بميدان طلعت حرب» وكان الكتابان قد أثارا الكثير من الضجة عند صدورهما في العام 2000م مما دفع مجمع البحوث الإسلامية إلى تقديم اقتراحات بمصادرتهما ، ووصل الأمر إلى اللجنة الدينية في مجلس الشعب وهى اللجنة التي يرأسها عمر هاشم .. وعن حكاية الكتابين مع مدبولي نستمع إلى إجابات مدبولي على أسئلة الصحافة بشأنها :

س : لماذا أحرقت 4 آلاف نسخة من كتاب الدكتورة نوال السعداوي «الإله يقدم استقالته من مؤتمر القمة» وهل كان قرارًا شخصيًا من جانبك .. أم أن هناك تدخلات وأوامر أمنية كما يتردد – بحرق ذلك الكتاب .

مدبولي : أنا لم أحرق الكتاب كما يدعى البعض لأن مصطلح «حريق» يعنى التخلص من الكتاب ، وكل ما حدث أنني اتصلت بالمطبعة وسألت «مسئول النشر» عن الكتاب فقال لي إن الكتاب يجرى تجليده «تغليفه» فقلت له «إزاي يعدي عليك

عنوان زي ده» وسألت كيف مر على الرسام أيضًا؟ وأخيرًا طلبت منهم قصه على مقص الورق وتمزيقه في هيئة قصاصات، لأن مصر لا يوجد بها مكان تستطيع فيه إحراق 4 آلاف نسخة - يعنى في النهاية أنا أعدمت الكتاب.. وثانيًا تلك الواقعة حدثت منذ سنة مضت ولا أدرى لماذا تجددت الآن؟ وكثر الحديث فيها ، وكل ما في الأمر أنني وجدت في الكتاب الكثير من الأفكار التي تتعارض مع الدين الإسلامي كما أنه يعتبر صدمة فكرية وثقافية لكل من سيقوم بقراءته، وهى أفكار لا أوافق عليها لأنني لا أعمل في هذه المهنة بهدف تحقيق الربح فقط ، ولكن هناك آداب وقواعد المهنة التي تدفعني إلى ضرورة احترام العقول والقراء ، فالناشر ليست مهمته طبع الكتاب وتسويقه وتحقيق الربح فقط ولكن هناك رسالة يقوم بها في المجتمع ونحن نحترم هذه المهنة ونقدسها ، وأعتقد أن تاريخي الذي لا يخفى على أحد في مصر والعالم العربي كله لا يسمح لي بالمتاجرة بعقول القراء الذين يثقون أبى أو تحقيق أرباح على حساب العقائد والمبادئ التي لطالما عُرفت بها مكتبة مدبولي . بالإضافة إلى أنني غير مستعد لتقديم تنازلات لأحد مهما كان في آخر رحلتي التي بدأتها منذ 60 عامًا ، وسوف أقوم برسالتي إلى آخر ثانية في حياتي مدافعًا عن كل الآراء المحترمة ورافضًا لكل ما يسئ إلى الأديان والوطن .

س : ما هي القصة من أولها :

مدبولي : نحن دائمًا ننشر أعمال الدكتورة نوال منذ عشرين عامًا ولقد نشرنا لها 42 عنوانًا تقريباً. ، وهى «ست لها وزنها ومفكرة» ولكن لكل كاتب شطحات مثل طه حسين ولويس عوض ومصطفى محمود زمان وعلى عبد الرازق . كل هؤلاء لهم كتب أثارت مشاكل وهذا وارد لكن عنوان كتابها استفز الناس ولم يكن أحد يعلم منذ البداية .. وأنا عندي الرقابة ذاتية ولذلك أنا أعدمت الكتاب وتحملت خسائر تجاوزت الـ 70 ألف جنيه مصري . وعلى فكرة حين دخلت المصنفات وجدتني أعدم الكتاب.

س: ومن تعتقد أنه وراء نشر الخبر وإثارة تلك الضجة رغم مرور عام على إتلاف الكتاب؟

مدبولي: أعداء النجاح ، ومن لا يرضيهم نجاحي والأنفس المريضة التي تحاول النيل من سمعتي في ظل استعدادنا للاحتفال باليوبيل الذهبي لمكتبة مدبولي .

س : هل تعلم من هؤلاء :

مدبولي: لن أذكر أسماء ، ولكن هناك من يترصدونني، وقد تسببوا لي في صدمات كثيرة ومشاكل مع الكتاب ، ونالني منهم ما نالني ، فهناك من يرفع ضدي قضايا ، أو يسبني على صفحات الجرائد .. أولئك الذين يتلقون دعمًا خارجيًا ولديهم أرصدة بالبنوك .

س : من تقصد؟

مدبولي : أقصد مليونيرات النشر الذين يتعاملون مع هذا البلد على أنه «شقة مفروشة» .

س: ولكن يتردد أنك تلقيت أوامر أمنية بإعدام الكتاب، أو أنك تغازل الأجهزة الأمنية من تلقاء نفسك ؟

مدبولي : لم ولن أغازل الأمن أو أدخل معهم في صفقة ولو كانت هناك نية لذلك فلماذا لم تظهر في بداية حياتي ؟ وأنا لا أغازل أحدًا لأن علاقة الحاج مدبولي بالرقابة والأمن معروفة ، وهى علاقة متوترة دائمًا بسبب مواقفي المعارضة لهم إزاء التضييق والعداء الذي يمارسونه ضد المثقفين والكتاب ، وقد تعرضت للظلم كثيرًا ، لأنهم يعتبرون مكتبة مدبولي هي المنبر الذي يتحدث من خلاله كل المعارضين من الكتاب والمؤلفين .

س : ماذا كان موقف الدكتورة نوال منك بعد إعدام الكتاب ؟

مدبولي : نوال السعداوي قيمة أدبية كبيرة ولها إنتاج أدبي غزير، وأنا قلت لها «إلا ربنا» وتفهمت موقفي تمامًا وتحدثت للفضائيات وقالت مدبولي ناشر قدم للأمة خدمة كبيرة ، ويوجد عقد مشترك مع الكاتبة نوال السعداوي وهذا شرط أساسي في هذه المهنة لكي يعرف كل طرف حقوقه وواجباته تجاه الآخر ، وأنا أحترم هذا التعاقد وملتزم به ولم أتخط حدودي وقد قمت بإعطاء الدكتورة كل مستحقاتها

وتحملت كل الخسائر المادية ، وبالمناسبة العلاقة التي تجمعني بالدكتورة نوال ليست علاقة النشر والتوزيع فقط ، ولكن هناك صداقة واحترام متبادل لم ينقطع طوال السنوات الماضية رغم ما حدث في الفترة الأخيرة من مشاكل ، أثارت كل هذا الجدل . وقد قمت بطبع وتسويق أكثر من أربعين كتابًا كما قلت سابقًا – يحتوى كثير منها على أمور كثيرة لم تنل استحسان الرقابة ، ومع ذلك قمت بطباعتها ونشرها دون خوف من أي جهة، وكانت البداية عندما نشرت لها 26 كتابًا منذ 20 عامًا ، ومازالت العلاقة مستمرة إلى الآن ولم ولن تنقطع علاقتنا أبدًا ، وسوف أقوم بنشر كل ما تكتبه نوال السعداوي في المستقبل ، ولكن بشرط أن يكون متفقًا مع تعالم الأديان السماوية وليس الدين الإسلامي فقط ، حيث سأكون حريصًا على القراءة بشكل أكثر دقة مما سبق .

س : لماذا هذا الكتاب على وجه التحديد رغم كل ما في كتبها من مخالفات، ولماذا طبعت الكتاب من البداية مادام يحمل بين طياته ما تراه تطاولاً على الذات الإلهية ومخالفة للدين الإسلامي ؟

مدبولي: نحن نراجع كل الأعمال السياسية والأدبية وغيرها من إبداعات الكُتاب والمؤلفين ، وتتم دراستها وتقييمها قبل الطبع ، ولكن هذه المرة تمت طباعة الكتاب دون مراجعته لأن الشخص المسئول عن هذا الموضوع كان يمر بأزمة صحية ولم يخطر ببال أحد أن يحتوى هذا الكتاب على مثل هذه الأفكار والآراء المخالفة للدين، ولم أعلم بمضمون الكتاب إلا من خلال إحدى الصحف التي كتبت عنه وهاجمته وبعد الاطلاع على الكتاب ، وفور معرفتي بهذا قمت بقراءة الكتاب والتأكد من حقيقة ما تم نشره عنه ، وبالفعل قررت التخلص من الكتاب ، وتحمل كل الخسائر التي لا تساوى شيئًا أمام الله الذي يرزقني – كما أنني رجل لا أحب المساس بالمشاعر الدينية .

س : هل كنت خائفًا من غضب المثقفين إزاء هذا القرار ؟

مدبولي : طوال عمري ، أنشر الكتب الجريئة . لكن كلّو إلا الغلط في ربنا.

متاعب مدبولي مع الكتب الممنوعة :

كان الحاج مدبولي يمتلك الجرأة الكافية على نشر أو توزيع أو بيع الكتب الممنوعة فباع ونشر ووزع كما تقدم كتبًا لم يكن غيره يجرؤ على بيعها أو نشرها أو توزيعها وقد سببت له تلك الجرأة بعض المشكلات الأمنية والقانونية والإدارية ، وقد أوشك أن يدخل السجن بسببها .. وقد وصل عدد القضايا التي اتهم فيها إلى أكثر من 25 قضية نشر.. كما تعرض لكثير من الملاحقات من قبل الجماعات الإسلامية التي تتهمه بالترويج لكتب نصر حامد وأبو زيد ، ونوال السعداوي ، وعبد الله القصيمي وغيرهم من المثقفين المصريين .. كما اعتبره بعض المتشددين ناشرًا علمانيًا .

مدبولي وحوار المتاعب:

س : هل لك متاعب ومصادمات مع الحكومة والجهات الرقابية بسبب الكتب الممنوعة ؟

مدبولي : إن علاقتي مع الكتاب والثقافة تسببت لي في الكثير من المتاعب والمصادمات مع الحكومة المصرية ومجالس الرقابة وشرطة المرافق ، وبعض المتشددين من الجماعات الإسلامية ، طوال حياتي التي قضيتها في جمع الكتب وبيعها ولديّ أكثر من 25 قضية أمن دولة وضعفها مخالفات إدارية . أما قضايا أمن الدولة فكانت بسبب بيعي أو نشرى أو توزيعي الكتب الممنوعة والمحظور توزيعها في مصر. أما القضايا الإدارية فتعود إلى أنني أشغل الرصيف، ولست أدرى أين يعرض تاجر الكتب والجرائد بضائعه؟ هل أضعها في«فترينه» زجاجية؟ في كل دول العالم الكتاب يعرض على الرصيف وكذلك الجريدة. ولكن كل هذه القضايا لم تمنعني من مواصلة دوري في مخاطبة العقل العربي وتزويده بغذاء الروح.

س : لماذا تطاردك الرقابة ؟

س:ولي : هي لا تطاردني بل تطارد كتبي ومكتبتي التي عليها أفكار اليمين واليسار وكتب الأدب والفن والثقافة والفكر والسياسة والاقتصاد والمذكرات ؟

س: كم مرة دخلت السجن لأنك كنت تبيع كتبًا لا ترضى عنها الرقابة؟

مدبولي: إنني تعرضت للسجن ثماني سنوات بسبب رواية «مسافة في عقل رجل» لعلاء حامد التي كنت أوزعها .. ولكنني لم أسجن يومًا واحدًا .. لكنهم كانوا يستدعونني قبل العيد بيوم أو يومين وأظل في الحبس حتى بعد العيد بيومين أو ثلاثة ثم يقولون لي مع السلامة «البيت بيتك» دون استجواب أو أي شيء وأنا تعودت على ذلك وليس عندي مشكلة.

س: لكن بالتأكيد كان لهذا تأثير على أسرتك وأولادك .. هل قالوا لك أترك هذه المهنة المحفوفة بالمخاطر؟

مدبولي: أسرتي تدرك ماذا أفعل ؟ ويعرفون قيمة ما أقوم به، وكنت أقول لنفسي في هذه الأزمات أن هذه المواقف سوف تحسب لنا بعد ذلك، لأن المهم هو تحقيق تنمية العقل العربي.

س: وما الذي يجبرك على تحمل هذا ؟

مدبولي : لأن حق القارئ في الاطلاع والمعرفة شيء مقدس .. وأنا كما تعلمون لم أكن أبيع كتبًا ممنوعة بسبب الدين أو الجنس، بل إنها تحمل نقدًا سياسيًا بناءً، نتفق أو نختلف معه، لكن لا نحجبه أو نصادره.

س : متاعبك مع رواية «مسافة في عقل رجل» بالتفصيل؟

مدبولي: ذهبنا لوكيل النيابة وكان «متزمّتًا» رأى أنني المسئول عن الرواية رغم أن المؤلف قال إنه الناشر والطابع . فأعطاني 4 أيام حبس قائلاً لأنك على علم بمحتوى الكتاب. س: القاضي أصعب منه وأعطاني حكم بالسجن ثمن سنوات ، ونصحني ساعتها كثيرون بالسفر خارج مصر ولكنني رفضت وتحولت القضية لقضية رأى عام وحضرت قنوات الـ «سي إن إن» وإذاعة «البى بي سي» وتدخلت كل من ألمانيا وأمريكا وفرنسا ، وكبار الشخصيات العربية يعنى الدنيا كلها كانت واقفة إلى جواري وأخيرًا أوقف الرئيس محمد حسنى مبارك تنفيذ الحكم .

س : هل من الممكن أن تـدفعك الظـروف إلى تغييـر مواقفـك مـن هـذه الكتـب الممنوعة ؟

مدبولي :هذا لم يحدث طوال حياتي رغم أنني تعرضت لأزمات ماليـة كثيـرة جـدًا وأخي توفى بسبب مشكلة في لندن ، وحدثت أزمة مالية رهيبة طلب منى فيها منـذ 25 عامًا «مليون دولار» وطبعًا لم يكن معي ، ورغـم ذلـك لم ألجـأ إلى مسـايرة أو مغازلـة الرقابة . إلا أنني أحيانًا أشعر أن هناك كتبًا ممنوعة غير واضحة الأهداف فأرفضها.

س: هل ساندك المثقفون في كل الأزمات والمتاعـب التـي تعرضـت لهـا بسـبب الممنوع من الإبداع ؟

مدبولي طبعًا وقفوا معي في أزمات كثيرة ، منها أزمة نزار قباني وأزمـة نجـم وأزمـة الكشك ، وأزمة السفارات التي كانت تتهمنـا بتـرويج كتبًـا ضـد أنظمتهـا وأسـلوب حكمها ، وأزمة علاء حامد التي في مسافة عقله ، وذلك أن المثقفـين تـذكروا مخـزن الكتب الممنوعة .. المخزن الذي كانوا يدخلونه من باب ويخرجون من آخر.

لا.. لإسرائيل

«أنا لا أتعامل مع الإسرائيليين أبدًا حتى لو نزل هذا في كلام مقدس».

الحاج مدبولي

كان الحاج مدبولي مخلصًا لتجربة عبد الناصر ، ولقضية العرب المركزية فلسطين ومصريًا محبًا لمصريته وعروبته .. وكان دائمًا يُكثر من عبارة «لا .. لإسرائيل» ويقول «أنا لا أتعامل مع الإسرائيليين أبدًا حتى لو نزل هذا في كلام مقدس» وهو الذي يرفض التعامل نهائيًا مع الإسرائيليين. كما يرفض أن يبيع لهم أي كتاب قائلاً بحرقة «عندما تعود فلسطين إلينا، سأفكر وقتها هل أبيع لكم ما تطلبونه من كتب.. ثم أترحم على جمال عبد الناصر» كما كان يطالبهم بأن يخرجوا من مكتبته إذا دخلوا إليها .. وكان بإمكانه أن يبيع لهم ما دام تاجرًا .. والتجارة بيع وشراء .. لكنه ليس تاجرًا فحسب .. إنه صاحب ضمير وطني صادق وليس شأنه شأن أولئك «المثقفين» الذين نادوا بالدعوة إلى حوار الحضارتين «الفرعونية» و «العبرية» ونادوا بأن مصر «ليست عربية»!!! إذن الإنسان موقف.. ومدبولي إنسان صاحب موقف لا تغيره إغراءات المادة لأن حسه الوطني والإنساني متيقظًا دائمًا في أعماقه .

ولقد سجل التاريخ لمدبولي موقف وطني رائع ، عندما رفض كل الإغراءات والضغوط لكي يقوم بعرض وبيع الصحف والمجلات الإسرائيلية وأصر على موقفه في مقاطعتها مقاطعة تامة – يقول الأديب يوسف القعيد : «كان مدبولي من أكثر الناشرين التزامًا بالقضايا الوطنية، ومازال نشره يعتمد الخط الوطني ، وما زلت أذكر عندما أبرم الرئيس السادات اتفاقية «كامب ديفيد» مع العدو الإسرائيلي أن مدبولي رفض رفضًا قاطعًا أن يوزع جريدة إسرائيلية واحدة عنده .. مما تسبب له في

مضايقات كثيرة مع السلطة .. إلا أنه تحمل واعتبره موقفًا لا يمكن المناقشة بشأنه».

ودائمًا مدبولي يرى أن الإسرائيليين وراء كل انحراف «المخدرات والإرهاب والفساد» كل هذه الأشياء تأتى منهم وهم الذين يفسدون كل كائن حي - حتى هذه الشجرة «وأشار إلى شجرة أمام مكتبته» فهم ضدها . وإليهم يرجع تزوير وتحريق الكتب يقول الحاج مدبولي :«لقد زارني بعض الناشرين الإسرائيليين من الجامعة العبرية ومعهم بعض الوزراء . وكان ذلك بعد المبادرة المشؤمة بشهور قليلة .. فكان رد فعلى تجاههم رد فعل أي مواطن عربي شريف تجاه جرائمهم البشعة في فلسطين .. فقابلتهم مقابلة سيئة وأخبرتهم أننا لم نتعامل معهم أبدًا . لأن الإسرائيليين زوروا الكتب العربية في المعرض الذي اشتركوا فيه آنذاك.. حتى الكتب التي نشرتها أنا زوروها» ويضيف «كنت دائمًا أتمنى ألا يشترك أي جناح إسرائيلي في معرض القاهرة للكتاب. وألا يدخلوا أي مكان في العالم العربي.. فهؤلاء هم أعداء الإنسانية . ولكن لن أُقاطع معرض القاهرة للكتاب في حال اشتراك إسرائيل فيه (فأنا هنا في بلدي ولن أُعطى للإسرائيليين فرصة ليعزلوني داخل بلدي، ولن أُقاطع مصر أبدًا».

مدبولي واتفاقية كامب ديفيد :

يقول أحد الصحفيين بجريدة الرياض السعودية :«قابلت مدبولي أيام مذبحة «صبرا وشاتيلا» ووجدته يقرأ «الرياض» وتجرى عيناه في صور ضحايا المذبحة .. فما كان منه إلا أن مد يده إلىّ بالصحيفة والدموع تملأ عينيه قائلاً : انظر ما فعلوه أولاد الـ .... «وراح يسب الإسرائيليين» ويقول هذا هو حصاد اتفاقية الكامب المشؤمة .. وهذا هو مخطط إسرائيل ، ولا أحد من العرب قادر على التدخل في حسم سكوتنا إزاء ما يفعلونه ضد مصلحة الأمة العربية» ويقول الصحفي أن مدبولي قال له ساعتها «إن الإسرائيليين لصوص وقراصنة لا يمكن التعامل معهم بأي حال من الأحوال» .

وعندما قال مدبولي في برنامج «زيارة خاصة» أن أخطر ما أُصيبت به مصر كامب ديفيد التي اعتبرها أخطر من الحروب التي خاضتها مصر .. سأله سامي كليب «مقدم البرنامج» قائلاً كيف ؟ أجاب مدبولي بسببها دخلت السموم إلى مصر .. وبسببها

جردنا الإسرائيليون من كل قيمة بل أنهم دمروا الشباب المصري بوسائلهم النجسة.

مدبولي وحكاياته مع الإسرائيليين :

الحكاية الأولى : مدبولي والناشر الإسرائيلي : يروى مدبولي حكايته مع الناشر الإسرائيلي فيقول : «جاءنا ناشر إسرائيلي يطلب التعامل معنا فطرده أخي المرحوم «أحمد مدبولي» وقال له : «لن نتعامل معكم مهما كانت الظروف» .

الحكاية الثانية : مدبولي والوفد الإسرائيلي : يقول «جاءنا وفد من إسرائيل لتقييم الدور الوطني لمكتبتنا ، ورجانا المسئول الأمني المرافق له أن نسمح له بدخول المكتبة ، فقلنا إننا لن نتراجع عن موقفنا .. وأنا منذ البداية «اتكسفت» أبيع الجرائد الإسرائيلية، وإلى الآن أشعر بالعار!» .

الحكاية الثالثة : مدبولي والمستشرق الإسرائيلي : يقول مدبولي «أذكر أنني ذات مرة كنت في فلسطين فرأيت مسئولاً إسرائيليًا حاولت الهروب منه لأنني لا أحبهم ولا أستطيع أن أحب عدوى .. ولما ألح في المشي خلفي أوقفني وقال لي : مدبولي ألا تعرفني ؟ ولما أنكرت قال لي إنه كان يدخل المخزن عندي ويطلع على الكتب السياسية الممنوعة» .

الحكاية الرابعة : مدبولي والمستشار الإسرائيلي بسفارة العدو الصهيوني بالقاهرة : يقول مدبولي «جاءني المستشار الإسرائيلي بالقاهرة وطلب منى أن أستورد له قاموسين «عبري-عربي» من إسرائيل . فقلت له «لا» إحنا مش ضد العلم ولكن ضدكم أنتم كأشخاص لأن «جواكم» شياطين مش «جواكم» بشر - فقال لي يا أخي أنت بتكرهنا قوى ليه؟ فقلت له أنت عاير تعرف أنا باكرهكوا ليه تعالى نطلع بره في الشارع ، قلت له بص للشجرة ديه ، قال آه ، فقلت انتم أعدائها فانكسف الرجل ، وعندها قلت له أنتم أعداء كل كائن حي ما فيش في تاريخكم شيء يشرف انتم ناس بتوع مال ، بتوع دعارة ، بتوع بنوك ، بتوع ذهب ، بتوع بترول ، بتوع كله علشان تمتصوا الشعوب وتحاربوها بطريقتكم وبمعرفتكم يبقى انتم بشر ؟ مش ممكن.. ثم

قلت له ما فيش إسرائيليين في العالم إذن ما فيش دمار والعكس صحيح».

مدبولي وقضية العرب المركزية «فلسطين» :

الحاج مدبولي يؤمن برفض العدوان واحتلال الأراضي .. وأرى أن رفضه هذا جزء من الثورة التي تستعر بداخل كل عربي حر شريف من المحيط إلى الخليج.. كل عربي يرفض السيطرة الاستعمارية على بلادنا .. لذلك ليس غريبًا أن يقول مدبولي : «أتمنى أن تحل قضية العرب مع إسرائيل حربًا» ويقول لمحدثه : «لا تستغرب من هذه الأمنية : لأن القوة هي الأساس في نجاح أي قضية ، وقد صبرنا طويلاً على الحلول السلمية ففشلت جميعها ولم نستطع الوصول إلى حل ، خاصة أن كرامتنا مهدورة أمام العالم ، ويجب أن نستعيد كرامتنا ، ونحافظ على شرفنا ، ولا شك أن النصر سيكون حليفنا في حال عقد العزيمة والسير على طريق النضال .. ولو بدأت المعركة فسأحمل السلاح ، وأقاتل دفاعًا عن وجودنا وعروبتنا ومصيرنا ، كما أنني أعتبر أن كل جندي في المعركة هو معي في قلبي وروحي وإحساسي وعاطفتي ، ويجب أن يتساند الجميع في الوصول إلى استرداد الحق السليب في فلسطين ، وطالما أن إسرائيل موجودة ، فإن الحل السلمي لن يكون ، وعليه لابد لنا من أن نقاتل ونحمل السلاح وعندها تعود فلسطين حرة عزيزة» .

ولم تكن أمنية الحاج مدبولي شعارًا رفعه لفترة من الزمان ثم استبدله بآخر وإنما كانت فعلاً وواقعًا ملموسًا والدليل ما يأتي :

1 – مكتبة مدبولي هي أول دار نشر تقيم معرض منفردة في فلسطين ، في وقت كان الناس يخشون على حياتهم وكان الذهاب إلى فلسطين مغامرة ، ولكنه حدث وكان محل ترحيب وتقدير من كل الفلسطينيين .. وقد تكرر هذا 4 مرات .

2 – في الوقت الذي تأزمت فيه الأمور في العراق وقت حربها مع إيران، وكانت الحالة الاقتصادية سيئة للشعب العراقي البطل.. ذهب مدبولي بكتبه إلى بغداد وأقام معرضًا للكتاب بأسعار خاصة جدًا فهو يعرف أن الشعب العراقي مثله مثل السوداني واليمنى شعب قارئ محب للثقافة ، بل ومنتج لها .

3 – إصدارات مدبولي الآتية عن القضية الفلسطينية تدل على صدقه:

م	عنوان الكتاب	المؤلف
1	كامب ديفيد (خروج مصر إلى التيه)	رباب يحيى عبد المحسن
2	الدولة العبرية والبحث عن هوية	محمد محمود المصري
3	المسلمون والمسيحيون تحت الحصار اليهودي	د. أحمس حسن
4	أمينة المفتي (أشهر جاسوسة عربية للموساد)	فريد الفالوجي
5	العملية 007	فريد الفالوجي
6	جواسيس الموساد العرب	فريد الفالوجي
7	حنان عشراوي السيرة والمسيرة	مصطفى الرز
8	إسرائيل والليكود والحلم الصهيوني ت/ مصطفى الرز	كولن شيندر
9	إسرائيل الآن ت/ مصطفى الرز	لورانس صابر
10	السياسات الحزبية في إسرائيل والأراضي المحتلة ت/ مصطفى الرز	جيرشون كييفال
11	العلاقات المدنية العسكرية في إسرائيل ت/ مصطفى الرز	يهود ابن مائير
12	الدين والسياسة في إسرائيل «الأحزاب والجماعات الدينية»	عبد الفتاح ماضي
13	النشاط الدعائي لليهود في العراق	سعد سلمان عبد الله
14	فلسطين كشف المستور فيما آلت إليه	هاله العورى

م	عنوان الكتاب	المؤلف
	الأمور	
15	إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة	أبكار السقاف
16	الصليبيون الجدد	يوسف عاصي الطويل
17	العودة إلى سيناء ت/ محمد شفيق زيد	د. ك. باليت
18	النظام السياسي الإرهابي الإسرائيلي	عبد الناصر حريز
19	السلام المدان	د. منير الحمش
20	القدس الجريح	د. أحمد شعت
21	الاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي	د. حسين أبو شنب
22	المطرودون محنة فلسطين ت/ شاكر إبراهيم	ديفيد جيليمور
23	ملف اليهود في مصر الحديثة	عرفة عبده على
24	يهود الفلاشا (معتقداتهم وأحوالهم)	محمد جلاء إدريس

جلباب مدبولى

«سأظل كما أنا «بالجلابية» حتى أموت فهي سر نجاحي ورمز تمسكي بالبساطة وأخلاق ابن البلد، ومن غير الجلابية مش هبقى مدبولي» .

الحاج مدبولي

لم تغير الأيام والسنون الحاج مدبولي رغم تربعه على واحدة من أهم المكتبات العربية على الإطلاق فهو على طبيعته بجلبابه البلدي يشرف على هذا الصرح الثقافي الكبير الذي يدين له نصف مثقفي مصر والعالم العربي بالفضل في تقديم الكلمة الجادة والموقف الثابت المحترم .. فقد ظل يرتدى جلبابه البلدي منذ أن كان طفلاً في الخامسة من عمره «يسرح» في شوارع القاهرة منذ منتصف الأربعينات يحمل بين يديه «رزمة» الصحف اليومية، وحتى وفاته لم يبدل جلبابه بل يحرص على ارتدائه ويرفض الخروج منه. رغم تبدل كل شيء من حوله تقريبًا ، فالصحف التي كان يحملها بين يديه أصبح مكانها رفوف مكتبة ضخمة تطل على أكبر شوارع القاهرة ، والكتب التي كان يبيعها لمجرد أن يجمع قروشها القليلة أصبح مكانها دارًا كبرى للنشر ، والمشاهير من الكتاب الذين كان يردد أسمائهم على استحياء أصبح يصنع بعضهم ويساهم في تقديم بعضهم الآخر للمكتبة العربية .. حتى أصبح بجلبابه البلدي أرفع مقامًا من وزراء الثقافة العرب. ورغم مكانته العظيمة وشهرته العريضة فهو بسيطًا إلى حد الانبهار ومتواضعًا إلى حد الاندهاش.. حتى كلماته تخرج ببساطة شديدة جدًا مثل شخصيته رغم أنك تشم فيها رائحة التاريخ والأدب والسياسة والجغرافيا والفن. .. لأنه استطاع أن يشكل وجدانه من خلال الكتب ولذلك من الطبيعي أن يبقى مظهره كما هو لا يتغير لأنه يعلم تمامًا أن الجوهر هو الأنقى ولذلك

ليس غريبًا أن نرى العديد من الأدباء والعباقرة لا يهتمون كثيرًا بمظهرهم لأنهم يحملون في داخلهم عبقرية فذة تنبع من خلال الثقافة والمعرفة . لأن المسألة كما يقول الحاج مدبولي «مش بدلة وجلابية ، لكن هناك مبدأ إحنا بنعيش بيه ، والله أنا كده اللي عاجبه أهلاً وسهلاً واللي مش عاجبه هعمله إيه . أنا كده ومدبولي بالجلابية والناس عرفاه كده ومن غير الجلابية مش هبقى مدبولي .. والحمد لله أنا كده كويس قوى .. وسأظل كما أنا بالجلابية فهي سر نجاحي لأنها رمز تمسكي بالبساطة وأخلاق ابن البلد» ويضيف «إحنا مش بتوع بريستيج وإن مهنتنا ليست مهنة تجارة بل رسالة وخدمات ولا داعي للديكورات والمناظر «اللي ع الفاضى» ثم يقول : «إنني أريد أن أعيش على فطرتي ولا أحب «المنظرة» .. لا أحتاج إلا للستر .. لذلك أنا ما زلت ارتدي الجلباب».

في البدلة أشعر بالغربة

في بيروت سأل أحد الصحفيين الحاج مدبولي قائلاً : «أعرف أن كل الناشرين والمؤلفين في مصر .. أو بيروت .أو بغداد أو دمشق يعرفونك وأنت تصر على الجلابية. . هل هناك مانع من أن ترتدي البدلة؟» أجاب الحاج مدبولي بقوله: «يمكن من صغرى وأنا متعود على الجلابية ونفسي الناس كلها تعرف أن الإنسان بعقله وتفكيره مش بهدومه . أحيانًا تلاقى في بدلة شيك جدًا .. وجواها مفيش أي حاجه .. وأحيانًا الجلابية تلاقى فيها عقل بفكر.. أنا نفسي أقول كلمة . الجلابية زي البيت واسعة وحركتها بالنسبة لي كويسة . وأنا في مصر ألبس الجلابية دائمًا.. أما في بيروت فالبدلة ضرورية .. يمكن لأنها بتخلينى أشعر بالغربة وأنا بعيد عن بلدي ولازم أرجع» . ورغم أن الحاج يرى أن البدلة ضرورية إذا كان في بيروت مثلاً . إلا أنه ظل يرتدى الجلابية في كل رحلاته الخارجية سواء إلى الرياض أو بيروت أو دمشق أو الخرطوم أو صنعاء أو غيرها من العواصم الأوروبية لأنه ولد بجلبابه وسط الفلاحين الذين يرتدون هذا الذي الشعبي البسيط.. وظل متمسكًا به حتى مماته . وجلباب مدبولي دائمًا علامة عليه لذلك لا يوجد شخص قابل مدبولي أو كتب عنه ولم يقف عند جلبابه والدليل على صدق كلامي أن الزميل «محمد هلال» عندما كان

يعد تحقيقًا عن صناعة الكتاب في مصر كتب قائلاً : «في الوقت الذي تنتظر فيه صناعة الكتاب في مصر «قبلة الحياة» أو «رصاصة الرحمة» لا فرق بعد أن خنقها الركود الاقتصادي وأدخلها ارتفاع الأسعار نفقًا يزداد إظلامًا يومًا بعد الآخر . لم نجد أمامنا لكي نفهم خفايا الأزمة الحادة أفضل من ذلك الرجل بجلبابه الريفي الشهير ، وعمامته الناصعة ، وقسمات وجهه التي تختصر أصالتها ملامح وخطوط تواريخ عديدة من حضارتنا وقيمنا وموروثنا الإنساني ، وكأنه عنوان حتى لهويتنا ، ليس فقط كأحد أبرز أقطاب النشر في مصر والوطن العربي طوال ما يزيد على ستة عقود ، لكن أيضًا باعتبار «الحاج محمد مدبولي» امتدادًا شرعيًا لأبيه العظيم «الفلاح الفصيح» الذي شكل وعيه المتدفق ومنطقه الرفيع إلى حد أن أصبح الحاج مدبولي الذي حرم من الحصول على أية شهادات دراسية ، أكثر حضورًا وتأثيرًا في صناعة الكتاب ، وفى الحياة الثقافية بصفة عامة ، متفوقًا على طابور طويل من النخب المثقفة أصحاب اللافتات الرنانة ، والمعارك التنظيرية التي أعادت الثقافة العربية كثيرًا إلى الوراء» وهذا معناه أن الحاج مدبولي يؤمن أن تغير الجلباب مثل تغيير الجلد وهو لا يريد أن يغير جلده .. بل يريد أن يظل رجلاً بسيطًا جدًا يرتدى جلبابًا شعبيًا بسيطًا وسترة تقليدية، وأن يضع في إصبعه خاتم من فضة، وأن يتكلم بعامية ممزوجة بفصحى الصحف، وأن يظل ذكيًا صريحًا مباشرًا، بسيطًا عميقًا. ولا أخفى عليكم إعجابي الكبير باللهجة التي يتكلم بها الحاج مدبولي لدرجة أنني كما تلاحظون كتبت معظم كلمات الكتاب باللهجة ذاتها .

فلسفة ارتداء الجلباب عند مدبولي :

عن هذه الفلسفة قال لي الدكتور عبد المنعم الحفني : «أن سر ارتداء مدبولي الجلباب يرجع إلى تمسكه بشعبيته وبأصوله الريفية. فهو ابن من أبناء هذا الشعب ومن طبقة بسيطة جدًا ومع ذلك صار إلى ما صار إليه فهو متمسك بأصوله ولم يدع يومًا أنه سليل الباشاوات أو سليل هذا أو ذاك وإنما هو كما هو .. وقد بلغ من تمسكه بثيابه الشعبية أنه ذهب إلى كل العواصم العربية وكثير من العواصم الأوروبية وهو بالجلباب لم يغيره يومًا .. حتى لما عمل معارض الكتاب في فلسطين بمدينة

أريحا أحد معاقل الإسرائيليين - كانوا يتقدمون إليه ويصافحونه وهم يعرفون أنه قطبًا من أقطاب الثقافة والنشر من جلبابه».

ويقول الأديب يوسف القعيد «عندما استشارني الحاج مدبولي في تغيير جلبابه ببدلة عندما كان يتردد كثيرًا على لندن - طلبت منه عدم فعل ذلك وذكرته بقول الزعيم سعد زغلول إبان ثورة 1919م عندما اعتبر أن الجلباب الذي يرتدي الفلاح المصري علم الثورة والدليل عليها» وبالفعل تراجع الحاج مدبولي عن تلك الخاطرة وظل متمسكًا بجلبابه حتى صار لا يُعرف إلا عن طريقه وهذه الواقعة تدل على ذلك «في مرة من مرات معرض القاهرة الدولي للكتاب قال الراحل «سمير سرحان» للرئيس محمد حسنى مبارك: أعرفك على الناشر الوطني مدبولي .. فرد عليه الرئيس قائلاً : (عارفه مدبولي، عارفه بجلبيته كده بكل حاجة)» .

والآن يمكننا أن نلخص عناصر فلسفة مدبولي في ارتداء الجلباب في الآتي :

1 - أن الجوهر هو الأنقى «لأن الإنسان بتفكيره وليس بهدومه» .

2 - عُرف مدبولي عن طريق جلبابه .

3 - أن الجلباب سر نجاح مدبولي وسبب شهرته.

4 - الجلباب دلالة على تمسكه بالبساطة وأخلاق ابن البلد .

5 - الجلباب يجعله يعيش على فطرته وعلى سجيته .

6 - حركة الجلباب تساعده على إنجاز أعماله بكل يُسر .

7 - عدم ارتداء الجلباب يُشعره بالغربة خاصة إذا كان خارج مصر.

8 - الجلباب مثل البيت الواسع الذي هو جزءًا من البيت الكبير مصر.

9 - جلبابه دليل على هويتنا وتراثنا وموروثنا الشعبي .

10 - إن تغيير الجلباب عنده مثل تغير الجلد . أن يغير جلده أو أن ينسلخ من واقعه ومحيطه ومجتمعه .

وبقى أن نقول أن أصالة الحاج مدبول وقيمته الحقيقية أن يظل بجلبابه ويتكلم عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن جيفارا ، وكارل ماركس ، وعمر المختار، وخالد بن الوليد ، وعمر بن الخطاب ، وعمرو بن العاص ، والتجاني يوسف بشير ، وأحمد شوقي ، وحافظ إبراهيم ، وسيد قطب ، وحسن البنا ، وجاد الحق على جاد الحق ، والمظفر النواب ، ومحمد محمد على شاعر السودان ، ونعوم شقير ، وسلاطين باشا ، وهارون الرشيد ، والإمام محمد أحمد المهدي ، وأبو حنيفة، والشافعي ، ومالك ، وأحمد ، أبو نواس ، والبحتري ، وابن زيدون ، وابن حزم ، والغزالي ، والحلاج ، والمتنبي ، ومحمد سيد طنطاوي، وعبد القادر عودة، ومحمود السعدني، وأبو السعود الإبيارى، وعبد الرحمن السديس، وسعود الشريم ، والزندانى، وابن باز، والفضيلى جماع ، وزرياب ، وابن الهيثم ، وجان جاك روسو ، وجابر بن حيان ، وابن سينا ، وأحمد ياسين ، ولويس باستير ، ومي زيادة ، وراشد الغنوشي ، وإبراهيم الكوني ، والظاهر بيبرس، والبخاري ، ومسلم ، وعبد القادر الجزائري ، ويوسف القرضاوي ، ومتولي الشعراوي ، وقاسم أمين ، وعلى الجارم ، وأحمد عرابي، وعمر مكرم ، وإبراهيم زكريا ، وفهمي وأمين هويدي ، ومحمد سعيد العباسي ، والهادي أدم، وحسن الترابي ، وميشيل عفلق ، وإدريس جماع ، ومحي الدين فارس ، وعبد الله الطيب ، وصلاح أحمد إبراهيم ، وعون الشريف قاسم ، ومحمد أحمد المحجوب .. وأن يبيع ويسوق كل من : محمد إقبال ، وطاغور ، وجمال الدين الأفغاني، وصلاح الدين الأيوبي ، والسلطان محمد الفاتح، وجوهر الصقلي والمعز لدين الله الفاطمي ، وطارق بن زياد ، والسيدة زينب، والإمام الحسين ، والإمام النسائي ، وابن ماجه ، وأبو داود ، ورابعة العدوية ، وسوزان مبارك، ويوجين فال ، ومصطفى محرم ، وهنري برجسون، وفاطمة الزهراء، والسيدة عائشة ، والأمير بدر الجمالي ، وإبراهيم ناجى ، وخليل مطران ، وسيد مكاوي ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب .. وأن يوصل للقارئ العادي : بلزاك الأديب الفرنسي الكبير ، ولامرتين الشاعر الذي جمع بين جمال الغرب ، وسحر الشرق ، وجوته شاعر ألمانيا الذي قدم للعالم أروع قصائد الحب والعشق، وآرثر ميللر الأديب المغمور ، وفيكتور هوجو

نصير البؤساء الذي بهر العالم بعبقريته الفذة ، وبودلير كبير شعراء فرنسا ، وجبران خليل جبران صاحب الغراميات المتعددة ، وأحمد رامي شاعر الحب والبكاء والأنين، وكامل الشناوي الضاحك الباكي الذي أعطى محبوب كل شيء ولم تعطه شيئًا ، وبوشكين شاعر موسكو الذي قتله الحب ، ونيتشه صاحب القوة والإرادة الذي أذله الحب ، وروبرت شاعر انجلترا الذي أحب فتاة مريضة عاجزة فكانت سببًا في سعادته طوال حياته ، ودانتى أديب إيطاليا الأول الذي ألهمه الحب أروع ما كتب من أدب وشعر ، وفولتير الأديب والمؤرخ المسرحي الذي نفى من بلاده مرات وسُجن في سجن الباستيل مرات عديدة ، والأخطل الصغير الذي عاش طوال حياته عاشقًا للحب والجمال ، وسقراط فيلسوف كل العصور ، ومحمد على باشا أعظم حكام التاريخ ، وليوناردو دافنشي رسام أجمل ابتسامة عرفها العالم ، وبيرم التونسي الذي انتهت مأساته بمأساة ، ووليام شكسبير صاحب العبقرية التي تجاوزت حدود الزمان والمكان ، ومحمد عبده زعيم الإصلاح الفكري والديني ، وتوماس أديسون الفاشل الذي أضاء لنا الدنيا ، وعبد الله النديم عامل التلغراف الذي صار أعظم أدباء عصره ، ومبرانت أعظم مصور أنجبته البشرية ، وكونفوشيوس الذي اختلف الناس في عبقريته هل هي فلسفة أم مذهب أم نظام حياة ، وسيد درويش وأسطورة لم تنتهي بعد ، وفان جوخ المليونير الفقير ، وطه حسين الكروان الذي لم ينقطع عن الدعاء، وشارلي شابلن وعبقرية وراءها مأساة ، وعباس محمود العقاد أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ، وغاندي لسان حال الضمير الإنساني ، وأبو القاسم الشابي شاعر التفاؤل والتشاؤم ، وجورج برنارد شو الذي لدغه الفقر فصار عظيمًا، ونجيب محفوظ ومن الحارة إلى نوبل ، وأبراهام لنكولن محرر العبيد ، وعادل إمام ضمير الشعب المصري ، وخالد محمد خالد صاحب كتاب لله والحرية ، وعلى مبارك رائد التحديث في مصر ، ونجاة الصغيرة صوت الحب ، ولحن الخلود فريد الأطرش ، وموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب ، وجارة القمر فيروز، وأمير الغناء العربي هاني شاكر ، ورسول الصحراء معمر القذافي ، وسيدة الغناء العربي أم كلثوم ، وصقر قريش الأمير عبد الرحمن الداخل ، وأمين أمة الإسلام أبو عبيدة عامر بن الجراح ، وسيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، وجيمس برنارد وخيانة بوش ، و«إقليدس

وزرادشت ، وابيقور ، واكز يتوفون» أرباب العقلية الأوروبية والإنسانية ، والملك روجر النورمانى الذي احتضن الكثير من العرب والعلماء المسلمين بعد أن انتقل الحكم للنورمان من العرب في جزيرة صقلية ، والعالم الجغرافي الكبير الإدريسي واضع أول خريطة للعالم ، والمؤرخ الكبير ابن الأثير ، وكوبرنيكس وبوكشيو ، والبيروني صاحب القانون المسعودي في الهيئة والنجوم ، والذي كان يحترم العلم للعلم لا للمال، وجاليليو ، وابن نعمان أول من ألقى الدروس في الأزهر، ونجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية بالأزهر ، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون منشئ المدرسة الطيبرسية التابعة للأزهر في العهد المملوكي ، والأمير جوهر القنقبانى باني المدرسة الجوهرية اللاحقة للأزهر ، وعلى جمعة مفتى الديار المصرية ، والرحالة ابن بطوطة الذي تحدث عما شاهده في الأزهر من حلقات تعليمية في عصور نيرات زاهرات ، والسخاوى صاحب كتاب «الضوء اللامع» ، وابن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة الذي درس بالأزهر في عام 1382م، والجبرتي أحد العلماء الذين امتلكوا اتساع الرؤية ، وحسن العطار الذي قام بتطوير الجامع الأزهر بعد أن تخلف في العصر العثماني ، والفارابي عالم الفلسفة والرياضيات والفيزياء والموسيقى والسياسة والاقتصاد ، وفرنسيس بيكون صاحب نظرية تخصيص العقول ، وأبو بكر الرازي صاحب الحاوي ، والجاحظ صاحب البخلاء ، ، والخوارزمي أبو الجبر ، وروجر بيكت الذي تأثر بابن الهيثم رغم أنه ولد بعد رحيله بثلاثمائة عام ، وحسن المراكشي العالم العربي الذي أحدث تغييرًا غير مسبوق في علوم الرياضيات حتى أصبح علم حساب المثلثات علمًا بذاته ، وإبراهيم السهلي صانع أقدم كرة سماوية في العالم ، و«أحمد فارس الشدياق ، وولى الدين يكن ، وأديب إسحاق» الذين اتفقوا على حب الثورة الفرنسية ، وعبد الرحمن الكواكبي صاحب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، والمأمون العباسي الذي أتاح الفرصة للإبداع والتأليف والترجمة للعقول العربية في عهده ، وأفلاطون ، وإقليدس ، وأرشميدس ، وابقراط ، وعبد الله بن المقفع مترجم «كليلة ودمنة» من الفارسية للعربية ، والكندي فيلسوف المعتزلة الشهير ، وابن تومرت مؤسس دولة الموحدين راعية الفلسفة والعلم ، وابن طفيل

مبدع «حي بن يقظان» وابن رشد مؤلف «تهافت التهافت» الكتاب الشهير الذي أحدث أثرًا كبيرًا في مدرسة «توما الإكويني» وليو تولستوى ومسرحية ثمار التنوير ، ومارتن لوثر صاحب الآراء الدينية المخالفة لسلطة الكنيسة والتي كانت سببًا لنهضة أوروبا بعد أن عاشت في الظلام سنينًا عددًا ، ودي بروني أبو الجداول الرياضية ، وإيليا أبو ماضي شاعر التفاؤل ومدرسة المهجر، ورياض السنباطي وعودت عيني على رؤياك ، والرحبانية وزكريا أحمد ، وأبو العلاء المعرى صاحب رسالة الغفران والشاعر الروماني أوفيد ، وجان راسين ، وهوميروس الإلياذة ، وفرجيل الأنيادة، وجارسيا ماركيز ، وإيزابيل الليندى ، ودستويفسكى، وفلوبير ، ومارسيل بروست، وإديث بياف التي عزفت الحياة بلون الورد ، وتشيلي صاحب الرواية العظيمة «الأشياء تتداعى» ، و«أوريجانوس السكندري ، واكليمندوس» علماء مكتبة الإسكندرية في الحقب السحيقة ، وجون كلفن رائد ثورة الإصلاح الديني في أوروبا القرن الخامس عشر ، ومجدي يعقوب ، ولطفي السيد ، وحسين يوسف أمين رائد حركة الفنون التشكيلية في مصر ، وجماعة الفن والحرية : (جورج حنين ، ورمسيس يونان ، وفؤاد كامل ، وكامل التلمساني» ، وسمير رافع ولوحة الإخصاب ، وحامد ندا ولوحة مصباح الظلام ، وإبراهيم مسعودة ولوحة استقبال العذراء ، وعبد الهادي الجزار ولوحة دورة الحياة .. ورواد المنهج الفلسفي وتحديد منابع الانتماء والبحث في تأويل الموروث الشعبي تشكيليًا ، وماهر رائق ، ومحمود خليل ، وسالم الحبشي ، وكمال يوسف ، و«فرويد، وآدلر ، وهيجل ، وشوبنهاور ، وانجلز» محاور الثقافة والفكر والفلسفة ، و «موريلو ، وفيلاسكيز ، وفاجنر ، وتشايكوفسكى ، وبيتهوفن ، وكورشاكوف» الموسيقيين الفلاسفة ، و«كافكا، وبايرون، وسترافنسكى» الأدباء الفلاسفة ، ومحمد مستجاب الذي يرتبط تاريخ ميلاده 23 يوليو 1938م ، وتاريخ وفاته 26 يوليو 2005م باثنين من أهم أعياد ثورة يوليو 1952م .. ورجاء النقاش صاحب المقدمة المرموقة لديوان «مدينة بلا قلب» أول أعمال الشاعر أحمد عبد المعطى حجازي.. و«محمود درويش، وتوفيق زياد ، وسميح القاسم» شعراء المقاومة الفلسطينية الباسلة ، والمفكر العظيم إمام التنوير والتجديد رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان يتولى إدارة مدرسة الألسن في عهد محمد على باشا ، وصاحب

«تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، و «المرشد الأمين للبنات والبنين» ، وخير الدين باشا التونسي ، ورينان فيلسوف فرنسا الذي كان متوافقًا مع الأفغاني في آرائه عن الإسلام والعروبة ، ومحمد كريم والشيخ الشرقاوي ومعهم العلماء والنقباء والزعماء المصريين المخلصين الذين أجمعوا على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على باشا واليًا عليهم ، وخليل أغا كبير أغوات القصر العالي صاحب النفوذ الكبير والظلم الفادح، وعبد القادر المازني وعبد الرحمن شكري رواد مدرسة الديوان إحدى تيارات التجديد في القصيدة العربية في العصر الحديث ، والزعيم الوطني مصطفى النحاس ، وسلامة موسى ناشر رواية أديب نوبل «عبث الأقدار»، و«سير والتر سكوت، وسير هنري رايدر هيجارد ، وبريخت ، وتوماس مان» عمداء الأدب العالمي ، وفيخته ، وساطع الحصري ، وزكى الأرسوزي .. وبنديكت أندرسون .. وآنست غلنر ، وإريك هويسباوم ، ومحمد أركون .. وتشارلز تيلى صاحب نظرية «أن الحرب تسهم أيضًا في إنشاء الدول وتنميتها كما في انشطارها وزوالها» وحسن الهضيبى و «دعاة .. لا قضاة»، وعبد الله القصيمى و «العالم ليس عقلاً»، وقسطنطين زريق و «في معركة الحضارة» ومحمد عابد الجابري و «نقد العقل العربي» ، وأحمد أمين صاحب «فجر الإسلام» ، وعبد الكبير العلوي الدغرى و «الحكومة الملتحية» ، وعصفورية القصيبى ، ومحمد بن أحمد الرشيد و «مسيرتي مع الحياة» وشيخ لبنان محمد مهدي شمس الدين مبدع «نظام الحكم والإدارة في الإسلام» ، وبهاء طاهر صاحب «الحب في المنفى»، وإدوار الخراط و«صخور السماء» وجبرا إبراهيم جبرا الذي يبحث عن وليد مسعود، وعبد الرحمن منيف «وشرق المتوسط»، وحنا مي و«بقايا صور» وآخرين يطول ذكرهم .. وأخيرًا يكفى الحاج مدبولي فخرًا أن يبيع أو يسوق كل الذين ذكرتهم والذين لم أذكرهم ويوصلهم للقارئ الذي في الغيط ، والقارئ الذي في المدينة وتحولاتها وهو بجلبابه! وبجلبابه دخل موسوعة أعلام مصر في القرن العشرين التي صدرت عن وكالة أنباء الشرق الأوسط بوصفه أبرز ناشر مصري .. كما يعتبر الحاج مدبولي أشهر «رجل بجلباب» يعرفه كل المثقفين .. ونختم هذا المبحث بسؤالي له :

س :ما قناعتك في ارتداء الجلابية حتى الآن ؟

الحاج مدبولي: أنا رجل ريفي ، لم أتعود على التشكيل ، وأنا سعيد بلبس الجلابية فلماذا أتشكل ، وأنا أقابل بها أصغر إنسان حتى رئيس الجمهورية .

أقول لماذا تتشكل ؟؟ فعلاً لماذا تتشكل؟؟

مدبولى وهؤلاء

■■■

«أنا مليونير بحب الناس وبمنزلتي في قلوب أبناء الأمة الذين يعرفون طريق مكتبتي. وغنى بالمثقفين الذين يؤازرونني دائمًا» .

الحاج مدبولي

كان الحاج مدبولي على علاقة وصلة وطيدة بالعديد من رجال الحكم والإدارة والسياسة والمال والثقافة والفن وهذا ليس سرًا فكل الناس يعرفون أن الحاج محمد مدبولي كان صديقًا لكل المثقفين العرب . بل إنه ساهم في إبراز نجوم كبار يحتلون الآن مكانهم في عالم الأدب والثقافي والشعر والقصة.. يقول الحاج مدبولي : «أنا أغنى رجل في العالم بالكتب .. وأقوى رجل في العالم بحب الناس الذين وقفوا بجانبي في الأزمات التي تعرضت لها.. عندما كانوا يغضبون على حتى يمنعوني من توزيع كتبي في الأعياد.. أو من خلال القضايا التي تعرضت لها .. والحمد لله كل المثقفين أعتبرهم أصدقائي.. ليس في مصر وحدها .. ولكن في كل البلدان العربية » فكان الحاج مدبولي يستقبل الجميع أمام مكتبته بثوبه الشعبي الفضفاض الواسع الذي يحتوى الجميع ، وصوته الهادئ الرقيق .. بل إن الحاج محمد مدبولي في فترة من فترات حياته كان يناقش العديد من أساتذة الفلسفة في مصر ، ويعرف عددًا من مصطلحاتهم التي لا يعرفها العديد منهم ، وذلك بحكم خبرته في مجال الطبع والنشر. ونحن في هذه الوريقات نحاول أن نكشف بعضًا من علاقات الحاج مدبولي مع بعض الشخصيات التي أثرت في حياتنا السياسية والأدبية والدينية .

1 – مدبولي وعثمان باشا محرم :

عثمان باشا محرم هو وزير الأشغال في عهد ما قبل الثورة وهو الذي بني «مجمع التحرير» الذي نراه الآن شامخًا يلبى احتياجات الناس في مجال الخدمات وللحاج

مدبولي مع هذا الوزير حكاية طريفة ونادرة .. عنها وعن الوزير يقول الحاج مدبولي : «كان الوزير عثمان باشا محرم رجلاً فاضلاً .. وكان دائمًا يحب التعامل معي عندما كنت صغيرًا أقف بجوار والدي في فرشة الكتب.. وأذكر في مرة من المرات جاءني لأخذ الجرائد التي كان يقرأها بصفة مستمرة وهى «جرائد البلاغ والأساس والأمة والمقطم» ولكن الجرائد هذه المرة لم تكن مكتملة كالعادة فقد كان ينقصها جرنال «المقطم» الذي ذهبت لإحضاره من الناحية الثانية لرصيف جروبي من عم «فراج» ، وهو واقف ينتظرني أمام جروبي.. فلما أحضرت الجرنال الناقص وجدته يقف مع بعض الباشاوات يتكلمون في أمور السياسة والدولة فوقفت أتفرج على صالة الحلويات في جروبي ونسيت الوزير والجرنال وذلك أن الخواجة جروبي كان يضع أصنافًا من الحلويات مثل «تمثال بابا نويل» في فترة رأس السنة ، وبينما أنا كذلك إذ انتبه لي الوزير وقال : محمد تعالى فتقدمت إليه .. ثم نادي : يا «يورجيت» – عاملة صالات الحلويات بجروبي – تعالى «شوفي» محمد عايز إيه؟ فقلت له لا يا معالي الباشا أن أتفرج فقط.. ثم خرجت أجرى «بظهري» حتى اختفيت من نظره .. إلا أنه ترك الباشاوات وخرج يطلبني وعندما لحقني أخذني من يدي وقال لي : «تعالى ما فيش حاجه» ثم أحضرت لي «يورجيت»«رجل بابا نويل» التي اتخذتها لعبة قبل أن تستقر في بطني .

2 – مدبولي والرئيس محمد نجيب:

عن حكايته مع الرئيس محمد نجيب يقول مدبولي «من أهم المواقف التي جمعتني برؤساء الجمهورية المصرية تلك المرة التي طلب منى فيها الرئيس محمد نجيب أن أحضر له كتابًا كُتب عنه باللغة الإنجليزية .. وقد جاءني يتعكز ومعه الحرس ، وكان يركب سيارة ماركة «كاديلاك» .. فقلت له يا سيادة الرئيس أنت تستطيع أن تكلف سفارات مصر في كل الدنيا للبحث عن هذا الكتاب فرد علىّ وقال : «لكن أنا عايز الكتاب منك أنت يا مدبولي» وفى خلال فترة قصيرة أحضرت له الكتاب من لندن ، وعندما أعطيته الكتاب قلت له أريد منك طلبًا يا سيادة الرئيس ، فقال أطلب ما تشاء فقلت أريد أن تأخذ الكتاب هدية ولا آخذ ثمنه فرفض ، فقلت له أنتم وضعتم حياتكم ومستقبلكم من أجل مصر فرفض أيضًا وأصر على دفع الثمن ثم صار يتردد

علينا كل فترة يشترى ويمشى » .

3 – مدبولي والرئيس جمال عبد الناصر :

كان عبد الناصر يطلق على كبار أدباء وفناني مصر في زمانه اسم «الفترينات» أو «فترينات مصر».. أي الواجهة الثقافية والفنية العليا لمصر . وكان حريصًا على ألا يمس هؤلاء ضرر أو أذى نقدي أو معنوي . وكان في عداد هؤلاء «الفترينات» توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد وأم كلثوم وعبد الوهاب .. واهتمام عبد الناصر بالثقافة والأدب هو الذي جعل الحاج مدبولي ناصريًا ، بل وجنديًا من جنود عبد الناصر .. وكل من يدخل مكتبة مدبولي يرى رأى العين حب مدبولي لعبد الناصر . فكنا نرى الحاج مدبولي وهو جالس بجلبابه البلدي ، وأمامه على المكتب وتحت الزجاج الشفاف عدد كبير من صور عبد الناصر في مختلف مراحل حياته ، وفى المساحات التي تتخلل الصور قصيدة أحمد فؤاد نجم «زيارة لضريح عبد الناصر» والتي كان مدبولي يطبعها عدة مرات ويوزعها على رواد مكتبته أو رواد معرض الكتاب . وعندما سُئل لماذا تضع صور عبد الناصر على مكتبك ؟ قال : «عبد الناصر مثل النيل والهرم ولولاه لما وصلت إلى ما أنا فيه الآن ، ولذلك فأنا أضع صوره على مكتبي وعلى جدران بيتي لأتذكر الرجل صاحب الفضل عليَّ وعلى مصر كلها ، فهو الذي أيقظ الوطنية في قلوبنا بعد أن قتلها الاستعمار وأعوانه ، وهو الذي بني مصر الحديثة ، وساوى بين الرؤوس ومهما قلت فلن أستطيع أن أصف شعوري نحو جمال عبد الناصر فهو أكبر من أن يوصف» وهذا الحب الجارف لعبد الناصر دفع الحاج مدبولي أن يصف من لا يحبه بعدم الوطنية .. والسَّبب أن الحاج مدبولي يرى في عبد الناصر البطل الذي تخافه أمريكا ، وإلى الآن تخشى أن يظهر في مصر رجل مثله .

والآن هذه مشاهد أخرى تبين عشق مدبولي لجمال عبد الناصر علينا أن نتابعها من خلال شاشة قناة الجزيرة من خلال برنامج «زيارة خاصة». فهذا هو سامي كليب مقدم البرنامج يقرأ من ورقة أمامه على المشاهدين: «حين قامت ثورة يوليو الشهيرة بزعامة محمد نجيب وقيادة جمال عبد الناصر كان عمر محمد مدبولي 14 عامًا فراح مع شقيقه يوسعان عملهما خصوصًا بعدما توسعت أطر النشر ومؤسساته في عهد عبد الناصر

فالبلاد كانت بحاجة لتوعية جديدة ولنقل الكثير من المفاهيم الاشتراكية إلى البلاد وحين زرت الحاج محمد مدبولي في مكتبته وسط القاهرة وجدت عنده هذه الصورة للزعيم جمال عبد الناصر ، وجمال عبد الناصر هو الوحيد من بين كل الرؤساء المصريين والزعماء العرب الذي يحافظ مدبولي على صورته في القلب وعلى رفوف المكتبة» موجهًا كلامه للحاج مدبولي .

محمد مدبولي : شوف أنا هأقول لسيادتك حاجه ، الراجل ده غرز فينا حاجة الروح الوطنية ، حسسنا إن إحنا إزاى نكون أصحاب بلد ، وحسسنا إن الراجل ده بيبنى عشانا وحسسنا إن الراحل ده في القاع معنا في الشارع بيتعاطف وبيتعامل بيسهل يخلى للإنسان المصري قيمة يعنى بدليل أنت كنت بتروح أي بلد في الدنيا في عصر عبد الناصر أي حد موجود في العرب يقولك ناصر .

سامي كليب: قابل الحاج محمد مدبولي جمال عبد الناصر في المؤتمر الأسيوي الأفريقي كان مدبولي يوزع آنذاك الصحف استدعاه جمال عبد الناصر واحتضنه وقبل جبينه .

محمد مدبولي: كنا إحنا بنوزع للمؤتمر الجرائد والمجلات وبعدين المخابرات والأمن الدولي بيقول لي تعالى يا أحمد يا محمد كانوا عارفينا أنا وأخويا ، قلت له لا .. رحت سايب الجرائد على الباعة ومسكت فيه قلت له ده بتاعنا إحنا آه .

سامي كليب: وكلمك الرئيس؟

محمد مدبولي: بأقول لك كمية الحنية في هذا الرجل أكثر من الأم .

سامي كليب : تتذكر شو قالك ؟

محمد مدبولي : ماقلش حاجه ده أنا بوطت فيه (احتضنته) ماكنتش عارف أقول له إيه حاجه للخيال أو يعنى مش .. عبد الناصر ده مش أسطورة .. ده راجل عالمي .. والذي يحب عبد الناصر كل رجل حر في الدنيا لأن ده رجل الحرية ده رجل العالم للدنيا كلها كان بس .

الباحث عن الكرامة :

يقول الحاج محمد مدبولي : «أزيدكم علمًا أن الراحل جمال عبد الناصر اتصل بي أكثر من مرة وطلب مجموعة كتب فأرسلتها له وأنا أشعر بفخر كبير لزعيم عظيم .. كثيرًا ما تعاملت معه من خلال التليفون .. وأعلنها بكل صراحة: أنا ناصري وأحب الناصرية وأحب «اللي يعمل لمصر والأمة العربية».. وأرى أن عبد الناصر ظاهرة. .. وأنني لا أثق في أي رجل لا يحب عبد الناصر ، لأن عبد الناصر كان مصريا وعربيًا وأنا أسميه «الباحث عن الكرامة» وأما عن سلبياته فنحن جميعًا نخطئ ونصيب ، وهو لا يستحق أي نعت «وحش» يقال عنه ، بالعكس الاستعمار يتمنى إن إحنا نكره عبد الناصر حتى لا يخرج عبد الناصر جديد .. وأقول إن هذا الرجل لن يعوض فهو الذي أجج مشاعرنا وأحيى لدينا النزعة الوطنية بصورة لم يسبق لها مثيل من خلال الثورة .. وأنا أشعر أن هذا الرجل أب لكل إنسان مصري وعشرات الكتب لن تكفيني للحديث عنه» وأعتقد أن الكلمات الأخيرة قالها مدبولي عند وفاة عبد الناصر . وهذا ما تؤكده الرواية التي قالها لي الأديب يوسف القعيد عن حالة الحزن التي اعترت الحاج مدبولي عند وفاة عبد الناصر .. والرواية تقول : «من اللحظات التي توثقت علاقتي فيها بمدبولي لحظة وفاة جمال عبد الناصر التي كانت يوم الاثنين 28/ 9/ 1970م عندما كنت في ذلك الوقت أقف أمام مكتبة مدبولي وكذلك الدكتور جمال حمدان الذي قلل كثيرًا من وفاة عبد الناصر «لأنه فُصل في عهده عن الجامعة ، ورجع عندما رأى الممارسات الساداتية» – لكن الحاج مدبولي «خبط» جبهته بيده وأعتبر أن الأمة كلها ماتت بموت عبد الناصر .. ثم رد على الدكتور جمال حمدان بعنف لأنه لم يكن قابلاً لكلامه .. ثم قال إن وفاة عبد الناصر ليست من الأمور الطبيعية التي قد تحدث كل يوم ومن تلك اللحظة تعرفت على الدكتور جمال حمدان وعلى مدبولي الذي كنت أعرفه من قبل بشكل جيد جدًا» .

4 – مدبولي وصلاح نصر :

أراد أحد الصحفيين استفزاز الحاج مدبولي فقال له: أنت بائع كتب، كيف عرفت عبد الناصر؟ قال له مدبولي بكل ثقة «بصراحة معظم قادة ثورة (يوليو) من زبائني بل

حتى معظم اللاجئين العرب في مصر من السياسيين مروا عليّ واشتروا ما يرغبون منذ (البسطة) ومرورًا بـ (الكشك) وانتهاءً (بالمكتبة)» ونحن في هذه المساحة نؤكد صدق كلام مدبولي ونروى لكم حكايته مع صلاح نصر أحد رجالات الثورة الناصرية ، ومدير المخابرات المصرية الأسبق .. فلتكن بدايتنا إجابة مدبولي على هذا السؤال : يقال أن مدير المخابرات المصرية الأسبق صلاح نصر كان يتردد مرة كل أسبوع عندك في الكشك ما صحة هذه الرواية .

وبصوت يشع بالثقة قال الحاج مدبولي هذه الرواية صحيحة حيث كنت التقى به مرة كل أسبوع في قصر النيل تحديدًا في جروبي حيث كان يعرض عليّ بعض الكتابات الخاصة بالمخابرات العامة لطباعتها إن أمكن .. ويضيف الحاج مدبولي قائلاً : إن صلاح نصر من الشخصيات السياسية الجادة والمخلصة والوطنية التي خدمت مصر بكل روحها وجوارحها والذي يجهله الناس عنه أنه كان يؤمن إيمانًا عميقًا بحرية التعبير واحترام الرأي والرأي الآخر . وبعبارة أخرى كان ضد الكبت السياسي، وإنه كان يرى أن الحياة الأدبية والفنية لن تنطلق من عقالها إلا بمزيد من الديمقراطية.

5 – مدبولي والمحافظ وجيه أباظة :

يقول الحاج مدبولي زمان أيام الكشك الذي بدأت به في ميدان سليمان باشا كان أي محافظ جديد يتولى محافظة القاهرة .. أول قرار يتخذه هدم كشك مدبولي . ولكن شهادة للحق .. كان هناك اثنان من المحافظين مختلفان وهما المرحوم وجيه أباظة ، والمرحوم إبراهيم بغدادي .. كانا يؤمنان بأهمية الثقافة والكتاب والإعلام» ونحن في هذه السانحة سنتناول علاقة الحاج مدبولي بوجيه أباظة .. ثم علاقته بالمحافظ إبراهيم بغدادي .. يقول الحاج مدبولي «كان المحافظ الثوري المثقف وجيه أباظة يحضر للكشك شخصيًا حتى يطمئن بنفسه علينا وعلى سير العمل ، وكان ذلك يمثل لنا رعاية من مسئول محترم» ثم يضيف «وجيه أباظة الله يرحمه هو اللي عملي المكتبة بتاعت 14 شارع طلعت حرب».

6 – مدبولي والمحافظ إبراهيم بغدادي :

يقول الحاج مدبولي : «كان المحافظ إبراهيم بغدادي مبدعًا وفنانًا وشاعرًا ، وحدث ذات مرة في عهده أن قامت قوة من رئاسة الحي بإزالة الكشك فرحت أجرى وقابلته ، وكان يمر في أحد شوارع القاهرة ، ولن ينتظر حتى يعود إلى مكتبه ، بل أصدر تعليماته من السيارة مع توبيخ من قاموا بهذا العمل وتم إعادة كل شيء كما كان» ثم يضيف قائلاً : «وإبراهيم بغدادي حماني كثيرًا وكان بيقول لرجالته أنا ماعنديش غير مدبولي» .

7 – مدبولي والخواجة جرين :

ما ذُكرت مكتبة مدبولي إلا وذكر اسم الخواجة اليهودي «أيفر جرين» لأن مكتبة مدبولي الحالية كانت ملكًا له قبل أن يشتريها مدبولي منه ، والحاج مدبولي في شهادته عنه قال : « كان الخواجة جرين أسطورة أملاك ، فلقد كان ثريًا جدًا لدرجة أنه يمتلك 46 عمارة في القاهرة خلاف ساحل الغلال حتى أن الأرض التي عليها قسم الدقي الحالي والشيراتون والسفارة الروسية كانت ملكًا له!!» .

8 – مدبولي ونزار قباني:

هنالك علاقة جدلية تربط ما بين الحاج مدبولي، والشاعر نزار قباني، والزعيم جمال عبد الناصر ، وأن وجه الشبه أو القاسم المشترك في هذه العلاقة هو ديوان نزار قباني «هوامش على دفتر النكسة» وأصل الموضوع أن الشاعر نزار قباني بعد نكسة 1967م نشر مجموعة قصائد تحوى في طياتها – كما أسلفنا في موضوع آخر – هجومًا قاسيًا وشديدًا للذين تسببوا في الهزيمة ، وتنتقد بعنف الوسائل القمعية التي تكمم الأفواه وتصادر حرية التعبير .. ولقد ظهرت تلك القصائد في مصر بعد أن طبعها مدبولي ووزعها سرًا على المثقفين والطلبة وجمهور الناس .. ثم حدث ما حدث . أما عن علاقة نزار قباني بالحاج مدبولي على المستوى الشخصي فيقول عنها الحاج مدبولي «تعاملت مع صلاح جاهين ويوسف إدريس وعبد الوهاب البياتي ونجيب محفوظ والأبنودي ، وأمل دنقل ونجيب سرور الذي كان يقف هنا على الشارع أمام مكتبتي

ويتحدث مع نفسه ثم يفترش الأرض . أما نزار قباني فالعلاقة بيني وبينه كانت «عشرة» وتعاونت معه منذ أول كتبه واستمرت العلاقة بيننا لأكثر من 15 سنة لدرجة أنه أعطاني سبعة عشر ديوانًا له لأطبعها في مصر مشاركة معه.. ولقد قال لي ذات مرة إن أمواله في جيبي أكثر ضمانًا له من البنك.. ولقد كان معي حينما افتتحنا المكتبة .. ومعه ثلاثة وزراء هم «كمال رفعت ، ومحمد أحمد ، ويوسف السباعي» في سابقة لم تحدث في مصر من قبل بالإضافة إلى رؤساء تحرير الصحف والمجلات» ثم يضيف الحاج مدبولي عن علاقته وشهادته عن نزار قباني – قائلاً : «كان نزار أكثر من صديق ، وكثيرًا ما أبكتني مقالاته التي كان يكتبها بصحيفة الأسبوع العربي عام 1968م ، ولقد كان نزار مصريًا أكثر من المصريين .. وأقول مثلما وزعت ديوانه الأول «هوامش على دفتر النكسة» وزعت أيضًا ديوانه الثاني عن النكسة والذي كان يحمل عنوان «ممثلين واستجواب» وقد وافق عليه عبد الناصر».

9 – مدبولي والدكتور سهيل إدريس :

يحسب لمدبولي إنه أول من أخرج اللبنانيين من محليتهم إلى العالمية . إذ كانت كتبهم قبله تطبع لهم فقط، فهو الذي أخرجها وقام بتوزيعها في مصر والبلدان العربية. ولكن ما هي علاقة الحاج مدبولي بالدكتور سهيل إدريس ؟ للإجابة على هذا التساؤل يقول الحاج مدبولي :«... جه الدكتور سهيل إدريس شاف كتبي بتبيع .. عرض عليّ كتب دار الآداب وبدأت أبيعها .. بيروت شافت مصلحتها عندي» إذن العلاقة التي تجمع بين الاثنين هي علاقة ناشر وهو الدكتور سهيل إدريس صاحب مكتبة الآداب .. وموزع هو الحاج مدبولي . إلا أن تلك العلاقة لم تدم كثيرًا وهذا ما جاء في شهادة الحاج مدبولي عن سهيل إدريس إذ قال لي «كنت أعرض للبيع ترجمات سهيل إدريس عن سارتر وغيره ، وحدث أن زارني فأُعجب بنشاطي ، وعندما اكتشف مطبوعاتي المترجمة عن سارتر خيرني أن أوقف ترجماتي لسارتر وإلا سيوقف تعامله معي ، فرفضت تهديده واستمر نشاطي كناشر» .

10 – مدبولي وأنيس الصايغ:

كانت العلاقة ما بين الحاج مدبولي وأنيس الصايغ علاقة عمل عادية ثم تتطور إلى

علاقة صداقة قوية جدًا عنها وعن أنيس الصايغ قال الحاج مدبولي : «الأستاذ أنيس الصايغ ومنظمة تحرير فلسطين كنت أتعامل معهم منذ الستينيات .. فلقد كنت أوزع كل المجلات والكتب والمنشورات الخاصة بهم في مصر.. ثم تتطور علاقة العمل بيننا لصداقة .. فكان دائمًا يجيني ويتعامل معي بإخلاص وحب وصراحة .. فهو إنسان أكثر من رائع .. ولفترة عشرين سنة كنا نتقابل إما في القاهرة وإما في بيروت.. ثم انقطع التواصل بيننا عندما أُصيب في حادث وقُطعت أصابعه.. ثم قابلته بعد 10 سنوات من تعرضه للحادث .. وكان السبب في عدم التواصل ظروفه وظروفي .

11 – مدبولي والناشر العراقي قاسم الرجب:

الحاج مدبولي في شهادته عن الناشر العراقي قاسم الرجب يقول : «قاسم الرجب صاحب مكتبة المثنى صديقي ، وقد دعاني لزيارة العراق مرات عديدة ولكن ظروفي كثيرًا ما كانت تحول دون ذلك .. وللتاريخ الرجب هو الذي أمدني بثقته العالية في مجال النشر .. وإنني أعتبر مكتبته ثروة قومية تجب المحافظة عليها .. وما زلت أذكر الرجب يوم كان يزورني على «البسطة» ثم «الكشك» لأخذ الجرائد والمجلات اليومية ثم صرنا أصدقاء وارتبطت معه بعلاقة روحية كأصحاب مهنة واحدة ، وقد كنا نتعامل بمحبة . وإنه كمكتبي خلق نهضة مكتبية كبرى في الوطن العربي، وكان من أحسن وأنظف الناس الذين عملوا في هذه المهنة. وأخر مرة قابلت فيها الرجب في «بحمدون» وكان يدخن «النرجيلة» وتحادثنا طويلا ، وكنت في ضائقة مالية والتفكير أخذ منى الشيء الكثير فإذا به يقدم لي إعانة لن أنساها مع كلمات ما زلت أتذكرها جيدًا (أخ مدبولي كمكتبيين كلنا نريد اقتناء كل كتب العالم ومهما أكلنا منها لن نشبع) » .

12– مدبولي والمفكر السعودي عبد الله القصيمي :

فلسفة مدبولي في التعامل مع الشخصيات هي التي خلقت علاقة الألفة والتنافر بينه وبين المفكر السعودي الراحل عبد الله القصيمي . فقد نشأت بينهما علاقة صداقة حقيقية كما قال مدبولي ، رغم أن الحاج مدبولي لا يحب كتب القصيمي ولا يرغب في أفكاره . لأنه لم يكن يجد تناقضًا في تكوين صداقة مع مفكر مثل القصيمي ،

مع كراهيته لأفكاره، وفى نفس الوقت بيعه لكتب القصيمي المفكر المتمرد . فمدبولي يعتقد أن بيع الكتب ليس له علاقة بما في طياتها من أفكار وهذا هو مدبولي يدلى بشهادته عن القصيمي فيقول : «كان عبد الله القصيمي يجينى وكنت أُحبه . وكثيرًا ما كان يدخل علىّ بقامته المديدة وابتسامته العذبة، ويكثر لي من الدعاء بطول العمر. وغريب أمر هذا الرجل فرغم مشاكله الجمة ، وعداوته الكثيرة إلا أنه كان رجلاً غاية في اللطف والدماثة .. ورغم أنني لا أتفق مع الشيخ عبد الله القصيمي في كثير من أفكاره ، إلا أنني لم أجعل هذا الاختلاف عائقًا دون صداقته ودون بيع كتبه ، والغريب أن كتبه مازالت إلى هذه اللحظة من أكثر الكتب بيعا عندي ، ومنها على سبيل المثال كتابه «العالم ليس عقلاً» .

13 – مدبولي وتوفيق الحكيم :

يقول الحاج مدبولي عن ذكرياته مع الكاتب والأديب توفيق الحكيم: «كان توفيق الحكيم يدخل علىّ باستمرار ، وكذلك كنت ألتقيه أحيانًا عند الحاج «أحسن» ناشر كتب الحكيم وصاحب دار الآداب بالقاهرة التي تقع مطبعتها في منطقة «القلعة ، والدرب الأحمر ، والجماميز» .. وكان الحكيم يسألني باستمرار عن توزيع كتبه .. وأنه دائمًا يتعجب عندما يراني أضع جميع الكتب أمامي وذلك لأنني كنت عامل دورة في حركة الشغل يعنى الجمعة دي مثلاً لتوفيق الحكيم .. والجمعة الجاية لإحسان عبد القدوس .. فكنت كل أسبوع أعرض لكاتب كل كتبه حتى يتعرف عليها القراء والمثقفين الذين يمرون علىّ يوميًا ليروا الجديد عن كل كاتب .. وكان الحكيم كثيرًا ما يشاكس الحاج «أحسن» قائلاً : شوف مدبولي عارض كتبي إزاى . ده عارف كل حاجتي كأنه هو اللي ناشرها مش بس موزعها .. ولقد دار بيني وبينه نقاش حول كتابه المشهور «عودة الوعي» فكان سببًا في انقطاع علاقة العمل بيننا، ولكن علاقة الصداقة بقيت مستمرة رغم ذلك، وقد زرته أخيرًا في مستشفى المقاولين العرب».

14 – مدبولي وجمال حمدان :

عندما سُئل الحاج مدبولي عن علاقته بالراحل جمال حمدان صاحب موسوعة «شخصية مصر» قال : «هذا الرجل من أعظم الشخصيات التي عرفتها .. ولقد كانت

شخصية مصر تتجسد فيه .. وقد كان شخصية واعية جدًا .. وكان متابعًا جيدًا للحركة الثقافية في مصر من خلال كشكي، فلقد كان يجلس بجواري على الرصيف بالساعات ليناقشني في إحدى القضايا العامة أو يعرف الجديد من الكتب. ولقد كان جمال حمدان سابقًا لعصره ، فيكفى أنه أول من تحدث عن تعمير توشكي في كتابه «شخصية مصر» في عام 1968م.. ولقد تعاملت معه منذ أن نشرت له أول جزء من «شخصية مصر» في حجم كتاب الهلال.. وجمال حمدان ذات مرة طلب منى أن أسجل مذكراتي على أشرطة كاسيت حتى يقوم هو بكتابتها وصياغتها وإعدادها للنشر ولكنني لم أتحمس في ذلك الوقت للفكرة حتى ينجز ما هو أهم منى لأنه كان يكتب من أجل مصر .. ولكن للأسف . كان في أيامه الأخيرة منطويًا للغاية على نفسه لشعوره بأنه لم يأخذ حقه».

15 – مدبولي والدكتور يوسف إدريس:

هنالك علاقة عضوية جدلية تربط ما بين الدكتور يوسف إدريس رائد القصة القصيرة في العالم العربي ، وما بين الحاج مدبولي وتمثال طلعت حرب – أبو الاقتصاد المصري .. ووجه الشبه بين الثلاثة أن الدكتور يوسف إدريس ذات مرة كتب في جريدة الأهرام مادحًا الحاج مدبولي «شيلوا التمثال ده وحطوا تمثال مدبولي» وكان يقصد تمثال طلعت حرب أما أنا فأقول :«أبقوا على تمثال طلعت حرب ولكن ضعوا بجواره تمثالاً للحاج مدبولي حتى يتعانق الاثنان في حب مصر» . وفى شهادته عن الدكتور يوسف إدريس يقول الحاج مدبولي : «ومن الناس الذين كنت أسعد جدًا بصداقتهم كثيرًا الدكتور يوسف إدريس الذي كان على الرغم من كونه كاتبًا متميزًا جدًا كان إنسانًا إلى أبعد حد» .

16 – مدبولي ونجيب محفوظ :

بدأت العلاقة بين أديب نوبل الروائي الكبير نجيب محفوظ والحاج محمد مدبولي بتوزيع الأخير لروايته «أولاد حارتنا» التي كانت تعد من الكلام الممنوع في عهد الرئيس السادات ولقد استمرت تلك العلاقة لمدة ثلاثين عامًا لم تنقطع يومًا

واحدًا يقول الحاج مدبولي : «نجيب محفوظ كان صديق عمري .. ثلاثون عامًا كان يمر عليّ يوميًا وهو في طريقه لتناول القهوة في جروبي .. أو تدخين الشيشة في الأوبرا – خاصة في فترة ندوته الشهيرة في مقهى ريش الذي كان معظم رواده من الكتاب والأدباء الذين يترددون على مكتبتي.. وكان في كل مرة يطلب منى أن أقدم له جديدي من الكتب لأنه كان يعلم أنني الوحيد في مصر الذي يبيع ويوزع أي كتاب جديد يصدر في أي مكان من الوطن العربي.. وكثيرًا ما طلبت منه أن أنشر له أي قصة أو كتاب.. ولكن الرجل بدماثة أخلاقه كان يقول لي كل مرة .. أن علاقته بصديقه عبد الحميد جودة السحار صاحب مكتبة مصر – الذي ينشر كتبه تمنعه أن ينقض معه العهد .. فاحترمت هذا منه واحترمت فيه حبه لعمله .. ولم أعد أطلب منه نشر أي من رواياته.. ولكنى كنت أقوم بتوزيعها .. وترويجها..» .

والجدير بالذكر أن مقهى ريش الشهير أنشأه رجل ألماني يدعى «برنارد ستاتبرغ» ثم ما لبث أن باعه إلى الفرنسي «هنري ريسجييه» الذي أطلق عليه اسم ريش وقد تحول بعد ذلك إلى «أتيليه» . وقبل أن أنسى فقد قال لي الحاج مدبولي كان نجيب محفوظ يأتي إليّ كل يوم لأعطيه كتابًا يقرأه .. ثم نجلس معًا ونتحدث في العديد من الأمور التي تدور حولنا .

17 – مدبولي ومحمد حسنين هيكل :

عن علاقته بالكاتب الصحفي الكبير محمد حسنين هيكل يقول الحاج مدبولي : «هيكل كنت أذهب إليه وأقابله في بيته ، نعم الصديق الرجل .. ونعم الإنسان الواعي .. هيكل رجل عصره .. بل هو رجل لكل العصور .. الناس تتعلم منه الكثير .. فهو معلم كبير وصاحب بصمة وفكر .. رجل يقابل من باب كبار الزوار في العالم أظن أنه رئيس جمهورية الدنيا ! .. وكل نقده بناء وفى صالح البلد والأمة .. أما بخصوص العمل فلقد طلبت منه شيئًا للنشر فوعدني بأن يترجم لي بعض الأعمال ولكن لم يحدث نصيب ، وأعتقد أن هيكل لن ينسى لي أنني كنت أبيع كتبه عندما كانت ممنوعة من دخول مصر» .

18 – مدبولي وأنيس منصور :

القاسم المشترك بين الكاتب الصحفي الكبير أنيس منصور ، والحاج مدبولي هو التعامل المتبادل فالحاج مدبولي هو الذي أعطى الثقة لأنيس منصور في أعماله التي لاقت رواجًا بعد ذلك لا مثيل له . حيث كان يأتي ليناقشها مع الحاج مدبولي بجوار الكشك .. وأنيس منصور هو الذي دافع دفاع المستميت عن كشك الحاج مدبولي عندما تعرض لأذى أعداء المعرفة والثقافة .. والآن نستمع إلى الحاج مدبولي ليقص علينا علاقته بأنيس منصور «الأستاذ أنيس علاقتي به بدأت منذ أن كان يكتب في مجلة «الجيل» ويقدم كتيبات صغيرة مترجمة .. ومن ذلك الوقت تربطني به علاقة وطيدة جدًا، ولقد كنت أشكو له عندما يضايقني أحد.. وقد قال لمحافظ القاهرة الذي أمر برفع كتبي من فوق رصيف طلعت حرب لماذا تريدون إخفاء مدبولي؟ وقد وقف أيضًا إلى جواري في عدة بلاغات قدمت ضدي وقضايا رفعت عليَّ.. وكثيرًا ما كان يجئ لي ويأخذني في سيارته إلى مبنى المحافظة لمناشدة المحافظ إلغاء قرار هدم وإزالة كشك مدبولي .. أنيس منصور أحد أهم المدافعين عن الحركة الثقافية في مصر .. وذلك لأنه كان صاحب أول مشروع معرض في مصر «معرض: أعرف عدوك» الذي كان في الستينيات عن إسرائيل والقضية الفلسطينية.. وأنه يخلص جدًا لعمله ويقف وراء كل كاتب ولقد وقف وراء نمو مكتبة مدبولي لأنه يحب أن يكون الكتاب في كل شوارع مصر لذلك أنا أحبه وأعتبره عراف مدبولي» .

ولقد سألت مدبولي هل تعاملت مع الكاتب أنيس منصور في أي عمل من أعماله؟ أجابني «لا ولكنى موزع جيد لكل أعماله وأذكر أنه جاء إليّ مع محمد المعلم ومعه كتاب حول العالم في 200 يوم وبمجرد تصفحي للكتاب أكدت له أن هذا الكتاب سيعاد طبعه عدة مرات نظرًا لأسلوبه الراقي ، وفعلاً تمت طباعة الكتاب أكثر من 15 مرة ».

وعن علاقة الحاج مدبولي وأنيس منصور والاحترام المتبادل بينهما يحكى لنا الأديب يوسف القعيد هذه الحكاية : «ذهبت إلى أنيس منصور عندما كان رئيسًا لتحرير مجلة آخر ساعة – لأعمل معه حديث صحفي فقال لي إزاى تكتب مقدمة

الحديث فقلت له أكتبها من خلال الحديث نفسه ، ثم قال لي ماذا قرأت لي؟ قلت ولا حاجة . قال لي لماذا ؟ قلت له بصراحة كتبك غالية.. فاتصل بنمرة كان حافظها .. فيرد عليه الطرف الآخر فيقول يا مدبولي وليس الحاج مدبولي .. يأتي إليك صحفي شاب اسمه «محمد يوسف القعيد» إعطيه نسخة من كل كتاب لي .. فذهبت إلى مدبولي ووجدته قد جهز لي 80 كتابًا من ضمنها كتاب «قالوا» الذى أعطيته لواحد من قريتنا كان يحب قراءة الكتب . ومن تلك اللحظة أدركتُ أن هنالك علاقة وصلة عميقة بين الحاج مدبولي وأنيس منصور» .

مدبولى وتحولات الزمن

■■■

«أنا عاصرت الملك فاروق، وعبد الناصر ، والسادات ، وأخيرًا عهـد مبـارك وعلمتنـي المعاصـرة أن لكـل عهـد شـكله وأسـلوبه المختلف عن الآخر . فأنا شاهد على تحولات الزمن» .

الحاج مدبولي

سبعون عامًا مضت والحاج مدبولي فيها شاهدًا عـلى تحـولات الـزمن جـيلاً بعـد جيل ، تتبدل المفاهيم من حوله وهو فى مكانه ، وتحل هويات قديمة وجديدة وهو فى مكانه ، تدور من حوله أحداث قبلية وطائفية ومذهبيـة وعشـائرية ومحليـة ودينيـة ، وجغرافية ، وفنية ورياضية وهو فى مكانه شاهدًا عليها درج مدبولي فى سنواته السبعين على إعطاء الانتماء العربي والقومي والإنساني موقفًـا مميـزًا فى وجدانـه .. فهـو مـن مكانه شهد المعارك الأدبية بين عباس محمود العقاد وطه حسين ومصطفى الرافعي، وغيرهم .. وهو يسمع ويقرأ ويختزن ويحتك بهؤلاء المشـاهير إلى أن صـنعته الأيـام وأصبح يفرق بين الكتاب الناجح والكتاب الفاشل.. ومن مكانه أيضًا نقل لنـا حالـة مصر قبل سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها ونقـل لنـا السـاحة الأدبيـة التـي كانت تعج بالأسماء فى عالم الأدب والثقافة والصـحافة .. والفـن .. ونقـل لنـا أيضًـا المجالس الأدبية والأمسيات الثقافية والأمسيات الشعرية والمبـارزات التـي كانـت تنشر على أعمدة الصحف عندما كانت الصحافة المصرية فى ذلك الوقت «عهد حكم حزب الوفد» تنعم بحيز كبير من الحرية وكانـت الكلمـة الحـرة شـعارها . وظـل فى مكانه حتى شهد تطور وسائل النشر والتوزيع ووحـدة السـوق الثقافيـة ، والصـحف العابرة للحدود والكتب المقروءة فى الآن معًـا ، والأغنيـة التـي تتـردد فى الخرطـوم وصنعاء وبيروت والقاهرة، والفيلم المشاهد فى موسكو وطهران وأستراليا فى وقـت واحد، ومئات الفضائيات الناطقة بالعربية والإنجليزية وغيرها من لغات الأرض .

وهكذا قرأت الإنسانية فى مكتبة مدبولي عن بلاد المغرب الأقصى ، والشرق الأدنى والأقصى ، وعن خارطة الطريق ، وعن أحداث الشرق الأوسط وعن سارتر ، وعن بلاد النوبة والسودان ، وعن آثار ليبيا وحضارة مروى القديمة ، وعن نهر العاص فى سوريا ، وعن القدس والجولان وأحداث الزمان والمكان ، وعن صحراء بيوضة ، وعن اليمن وحضاراته وعن سد مأرب وحضر موت ، وعن أصحاب الأخدود ، وعن التراث والمقاومة ، وعن إمارات الخليج، وعن ابن بطوطة ، وعن البتراء وعجائب الدنيا ، وعن مدرسة الإسكندرية وعن التاريخ والفكر والمعرفة .ومن موقعه فى ساحة النشر والكتاب صار شاهدًا على هذه التحولات :

أولاً : التحولات السياسية :

فى البداية يقول الحاج مدبولي : «أنا عاصرت الملك فاروق ، وعبد الناصر ، والسادات ، وأخيرًا عهد مبارك ، وعلمتني المعاصرة أن لكل عهد شكله وأسلوبه المختلف عن الآخر .. فأنا شاهد على تحولات الزمن » ولكن هل لك أن تعطينا فكرة عن كل عصر وتكشف لنا عن تحولات الزمن التي شهدتها ؟ وللإجابة على هذا السؤال أترك حضراتكم مع الحاج مدبولي ليحدثكم عن تحولات الزمان والمكان .

الحاج مدبولي يتكلم :

«عهد الملك فاروق مثلاً كانت الأقلية فيه تحكم الأغلبية لأنها تملك ، وكانت مناطق وشوارع مثل قصر النيل وطلعت حرب والزمالك وجاردن سيتي قاصرة على الأجانب فقط يمرحون فيها ولا يسمح لمصري بالاقتراب منها « والبلد بمعنى أصح كانت ملكًا للأجانب» وعهد عبد الناصر كان العهد الذى أعاد للمصري احترامه وهيبته فى بلده وبمعنى أصح هو عهد الكرامة لمصر والأمة العربية أجمع . أما عصر السادات بالرغم من أنه عصر أكتوبر المجيدة إلا أنه كان فيه سلبيات وهدم وبناء وتهريج ، والعهد الأخير أكثره سلبيات ولكنى متفائل بأسلوب الرئيس مبارك وللتاريخ نحن كناشرين نتمتع فى عهده بحرية أكثر من ذي قبل ونستطيع أن نلمس ذلك فى ميادين كثيرة ، فقد نشرت كتابًا لم أتصور إمكانية نشره مثل ديوان أحمد فؤاد نجم «العنبرة» وكتب صلاح عيسى ، كما حصلنا فى عهده على مجلات كانت ممنوعة

من قبل مثل : الشراع ، المستقبل العربي ، الدستور ، الوطن العربي ، والصحف الكويتية ».

والآن أسمحوا لى أن أتقدم باسمكم جميعًا لسؤال الحاج مدبولي عن الوضع العربي الآن بحكم أنه عاصر عددًا من العصور السياسية التي مرت بها دولنا العربية؟

الحاج مدبولي مجيبًا على سؤالكم : «أسوأ الأوضاع السياسية هي التي نمر بها الآن . لقد تغير الموقف العربي الرسمي والشعبي فى الأعوام الخمسين المنصرمة ، وأصبح ضعيفًا جدًا ولم نعد نملك أي رأى أو قرار. وأصاب التفكك العرب جميعًا، ولم يعد لديهم موقف مُوحَّد لكل المشكلات التي تواجههم.

1 – هزيمة يونيو :

هي الحدث الجلل والأول فى السياسة العربية وفى الكيان والوجدان العربي .. وبسببها مازالت الجولان محتلة وبسببها ضاعت حقوق وتم احتلال العراق ، وظهرت على السطح اتفاقيات أوسلو ومدريد ، وخارطة الطريق التي زادت توغل الجيش الإسرائيلي فى شوارع يافا وحيفا وأريحا ، والقدس العتيقة وزاد أيضًا التحكم ، والسيطرة ، والاستيطان والتهجير والنفي للأسر الفلسطينية .. وبسببها ضاعت هيبة العرب واختل ميزان القوة .. وأرى أن نكسة يونيو 1967م هي الميزان الذى يجب أن نقيس عليه كل إخفاقاتنا المتكررة .

2 – حرب العبور:

عبور 73 أكتوبر هو الذى أعاد للجيوش العربية هيبتها ومجدها الغابر .. ومسح حزن 1967م وألهب نار المقاومة فى فلسطين وسوريا ولبنان .. وأقول أرى فى الأفق القريب أيامًا كيوم زي قار ، وحطين ، وعين جالوت .. تعيد للعرب بغداد والجولان والقدس .. فهل تصدقون ؟ .. عن نفسى أرى ما قلته حقيقة ماثلة لأن للدهر غير .

3 – انفصال 61:

شهدت انهيار الوحدة بين مصر وسوريا وتمعنت فى أسبابه وخرجت بروح

المتفائل الذى يرى أن يحصر الانهيار فى ظروفه المسببة له ، ويبعده عن آفة التعميم التي ترى انعكاس الانهيار على وحدات أخرى ممكن تحدث بين مصر والسودان وليبيا أو ليبيا ودول المغرب العربي .. لأن العصر تتسارع خطاه نحو التكتلات السياسية والاقتصادية والثقافية ، ونحو التضامن والتكامل .

4 – ناصر وفيصل وحرب اليمن:

لايمكنني أن أنسى أو أتناسى حرب اليمن خلال الستينيات.. وقد رأيت فى تلك الحرب الدعم السعودي والجيش المصري والسلاح العراقي ، ورأيت فيها تحولات الزمن وتصادماته التقدمية والإقليمية والمحلية والشخصية والقبلية ورأيت فيها أيضًا انعكاسات ذلك على عالمنا العربي خاصة فى المغرب والجزائر ولبنان .

5 – العقيد القذافي ومشروع الجماهيرية العظمى:

من مكاني هذا شهدت ثورة العقيد القذافي التي نقلت ليبيا من حالة العزلة والعدم إلى الجماهيرية العظمى التي سلمت زمام السلطة لشعب عمر المختار.. وجعلت الملكية السنوسية نسيًا منسيًا .. وفجرت الثورة الثقافية فى بنغازي وطرابلس وطبرق .. وحققت الجلاء الكامل للقواعد الأجنبية ومن مكاني أيضًا استمعت للعقيد القذافي وهو يقدم للشعب الليبي أهم منجزات الحكم الثوري فى أول سبتمبر 1970م ومازلت أذكر تلك المنجزات حتى الآن أو ليست هى :

- مضاعفة الحد الأدنى للأجور .
- البدء فى تنفيذ المشاريع الإنمائية فى مجال الصناعة والزراعة.
- إعادة تنظيم الجهاز الإداري .
- إصدار تشريع اقتصادي واجتماعي يهدف إلى تحسين الأوضاع العامة ويكفل توزيعًا عادلاً لثروات البلاد.
- توزيع سندات الملكية.
- جلاء القواعد الأجنبية.

- تأميم المصارف وشركات بيع المنتجات النفطية.
- ترحيل الجالية الإيطالية.
- رفع أسعار النفط.

6 – احتلال العراق:

من داخل مكتبتي رأيت لأول مرة تجانس الأفكار والمصالح والمطامع والخيانة من جميع أعداء الأمة العربية من الصهاينة والعملاء العرب الذين اتفقوا على احتلال العراق وقتل أبنائه وإعدام قيادته الشرعية وتشريد علمائه، وتجويع أهله.. ومن مكتبتي أيضًا رأيت المحكمة المهزلة، ورأيت المقاومة العراقية الباسلة، ورأيت كبرياء الرئيس صدام وبسالة أبنائه وأحفاده.. وبعيدًا عن احتلال العراق فقد رأيت مصرع الطفل محمد الدرة ، ومن قبل صبرا وشاتيلا .. ورأيت أحداث أيلول الأسود ووفاة الزعيم الناصر عبد الناصر ، ورأيت اغتيال السادات وفيصل بن عبد العزيز ، ورأيت انتفاضة رجب إبريل وحرب دارفور فى السودان .

إذن بالجملة فقد عاصر الحاج مدبولي من موقعه مختلف الأحداث السياسية وتابع التطويرات وشهد عصورًا توالت ، منذ قيام ثورة 23 تموز / يوليو 1952م وحتى احتلال العراق ومشنقة العار التي فرضتها ديمقراطية أم القنابل الأمريكية التي وضع لها «منتظر الزيدى – بحذائه» حدًا أضحك البعض وجعل بعض الكبار صغارًا .. وقال صراحة أن «الحذاء» يفعل أحيانًا ما تعجز عنه الجيوش !

مدبولي وحوار التحولات السياسية :

أطلب من سيادتكم أن تكون أسئلة هذا الحوار عشوائية غير مرتبة الأحداث التاريخية.. فهل توافقون ؟ لا شك أن الإجابة نعم وهذا ما أتمناه.

س : كيف أثرت ثورة 23 يوليو فى عملك ؟

مدبولي: ثورة 23 يوليو غيرت كل المفاهيم ، ليس فى مصر وحدها بل فى العالم كله من الشرق إلى الغرب إلى أمريكا اللاتينية ، كل العالم استيقظ ، وللأسف نحن لم نستفد

منها .

س : لماذا ؟

مدبولي : أهملنا ، ويبدو أننا أحسسنا بأن بلدنا ملكنا ، ويبدو أننا أُصبنا بالجنون ، ولم نصدق ما جرى . فقد عشنا تاريخنا كله، من الفراعنة حتى الآن ، استعمار وراء استعمار والفترة الوحيدة التي حصلنا فيها على حريتنا كانت عقب الثورة . وبالرغم من ذلك ، هناك من يقول أن الثورة كانت نكسة علينا ، لماذا ؟ لقد استطعنا أن نؤثر فى كل العالم .

س : ربما كان السبب فيما جرى لنا هو الأحداث التي أعقبت العام 1971 يا حاج ؟

مدبولي : بلا شك .. والحقيقة أننا لو كنا محظوظين لكان عبد الناصر عاش لهذه الأمة ولو لـ «10 سنوات» فقط . ربما تغيرت الأمور ، وبالطبع هناك عوامل أخرى : كامب ديفيد مثلاً : السادات كان «قرفان» من العرب وقال خلاص أنا لا علاقة لي بالوطن العربي ، وأعمل صلحًا مع الإسرائيليين ، والنتيجة أنهم متمكنون منا الآن، ويعرفون كل شيء عنا .

س : بالطبع المنطقة التي كنت تبيع الصحف فيها يعيش فيها الكثير من كبار الساسة والأدباء والمفكرين .. هل تتذكر أحد من هؤلاء وهل كان لك علاقات خاصة مع أي من أولئك؟

مدبولي : الشخصيات المهمة قبل الثورة كان يطلق عليهم «باشوات» وأنا أعتبر نفسى محظوظًا للغاية لأنني بالفعل تعاملت وعشت مع باشوات مصر لأنهم كانوا يأتون دائمًا للفطار فى جروبى المجاور لنا فى ميدان طلعت حرب ، وكان من بينهم عثمان باشا محرم والبرنس عباس حلمى ، وعلى باشا محى وزير الصحة وفؤاد باشا سراج الدين وزير الداخلية الذى كان يشرب القهوة فى جروبى الساعة الرابعة عصرًا .

س:ماهي أكثر الأحداث السياسية التي كان لها تأثير كبير على الصحف وهل تتذكر المانشيت الخاص بها ؟

مدبولي : طبعًا أحداث 26 يناير وحريق القاهرة .

س : كيف كان يتناول الناس تلك الأحداث وهل كان جميع الناس محللين سياسيين مثل الآن؟

مدبولي : الناس كلهم فى ذلك التوقيت كانوا يتحدثون عن الإخوان المسلمين باعتبار أنهم الوحيدون المسئولون عن مثل هذه الأعمال .

س : عندما قامت الثورة هل كنت تدرك أن هناك ثورة ، وباعتبار أنك تعمل حتى ساعات متأخرة من الليل هل لاحظت ليلتها شيء مختلف فى الشوارع .

مدبولي : عند قيام الثورة أنا كان عمرى 14 سنة وكنت أدرك جيدًا الأحداث من حولي خاصة أن الزبائن بعد شراء الصحف كانوا يتحدثون عن مضمون تلك الصحف .. نعم كنا نبيع الصحف ولم نلاحظ أيشيء حتى سمعنا بذلك من الراديو .

س: هل استولت الثورة على دور النشر والتوزيع باعتبارها انتهجت سياسة اشتراكية ؟

مدبولي : لا : وقد كانت دور النشر فى ذلك الوقت خاصة .. وفى تلك الفترة أيضًا ظهر القارئ العربيوالمصري بدلاً من القارئ الأجنبي الذى غادر مصر .

س : أين كنت ثاني نهار الثورة وكيف عشت تلك اللحظة .

مدبولي : كنت هنا فى الشارع ومن حبى للسياسة مسكت كتاب «الشمرلى» أتعلم منه الحروف الأبجدية علشان أقرأ .

س:الحروف الأبجدية؟

مدبولي : آه ولقد تعلمت منه وأصبحت أقرأ الجرائد .. ثم بدأت فى حفظ «الحروف الأجنبية» من كتاب «الشمرلى» لتعليم اللغة الإنجليزية .

س : من هم أفضل وزراء الثقافة فى عهد الثورة ؟

مدبولي : عبد القادر حاتم ، وثروت عكاشة .

س:عندما كنت توزع الجرائد بالقرب من ثكنات جيش الاحتلال هل كنت تشعر وأنت طفل أن المحتل عدوك وعدو مصر ؟

مدبولي : طبعًا .

س : هل صحيح أن الرئيس الراحل صدام حسين كان يتردد عليك وأنت فى الكشك؟

مدبولي : نعم كان يمر علىّ ويسألني عن الكتب السياسية الجديدة .. والحقيقة أنه لم يكن يلفت نظري حينها ولم ألاحظ عليه أيشيء مميز فكنت أتعامل معه مثل مئات الزبائن الآخرين .

س : قلت فى أيام الثورة كان 90٪ من المصريين يبنون والأن 90٪ يهدمون كيف هذا؟

مدبولي : نعم فى أيام الثورة لم تكن لتجد لصًا فى الشوارع ، أما الأن فثقافة الخطف والسرقة والرشاوى وفساد المسئولين منتشرة للغاية، على سبيل المثال الرجل المسئول عن كارثة القطار مؤخرًا بمصر والتي راح ضحيتها العشرات ماذا فعلت الحكومة به ؟ وأين كانت أجهزة الأمن قبل أن يحدث هذا ، أشعر أنها تبحث فقط عن الذين يبدون آرائهم بصراحة فى الأوضاع الفاسدة فى البلد .

س : وصفت فترة الستينيات بأنها مرحلة بناء ؟ وقلت عن السبعينيات خراب فماذا تقول عن مصر اليوم ؟

مدبولي : مصر دائمًا بخير لكننا الأن نحتاج إلى الوضوح .

س : ما رأيك فى موضوع التطرف الذى ظهر فى مصر فى الآونة الأخيرة؟

مدبولي : دائمًا يقفون لمصر بالمرصاد وسيقفون فى وجهها حتى آخر العمر وعلينا أن نتنبه ونعمل بمقولة عبد الناصر «يد تبنى ويد تمسك السلاح» .

س : من هم الذين يقفون لمصر بالمرصاد ؟

مدبولي : الإسرائيليون وأعوانهم الأمريكان .

س : هل فاكر أى أحداث سياسية فى القاهرة غير الحريق؟

مدبولي : أنا حضرت وشاهدت أحداث 18 يناير سنة 1978م التي كانت انتفاضة شعبية رغم ما أطلق عليها بأنها انتفاضة حرامية . وأذكر عندما كانت مصر محتلة كنت أخرج وأهتف مع الطلبة والمواطنين قائلاً «يسقط الإنجليز»

س : بعد خبرة سبعين عامًا فى مجال الكتاب والثقافة ما صدق مقولة «مصر أم الدنيا»؟ .

مدبولي : الذين يقولون أن مصر أم الدنيا جانبهم الصواب .. والصحيح الذى أقوله أنا : أن مصر هي الدنيا .. لو قرأنا تاريخ مصر القديم ننبهر .. وأنا شخصيًا أتمنى أن أعود إلى عصر مصر القديمة أو تعود مصر القديمة لنا الآن.. ونعيش أيامها .. تسألني لماذا ؟ أقول لك لأن المصريين القدماء.. أجدادنا .. قدموا للدنيا كل العلوم بداية من الرياضيات والهندسة والكيمياء والفيزياء والفلك.. فأي حضارة وأي علم يستطيع أن يتمكن الأن من إدخال شعاع الشمس ليسطع به وجه رمسيس مرتين فى العام .. هندسة وفلك .. إعجاز .. لذلك مصر هى الدنيا وأم العلم . والمسلات المصرية شامخة فى كل مكان .. فى واشنطن فى لندن فى باريس فى كل مكان .. وهم هناك يدركون عظمة الإنسان المصري لذلك أغرقونا فى الجهل .. وشغلونا بالحرب .. وأسكنونا تحت الأرض .. يدركون أن الإنسان المصري لو تنسم الحرية .. وملك مقدرات نفسه من غذاء وعلم وطلع على سطح الأرض.. سوف يصنع المعجزات معجزات تفوق ما صنعالأجداد.

س : وهل فعلاً ترى الإنسان المصري تحت سطح الأرض؟

مدبولي : هذا قدرنا .. وهذه حقيقة وإلا لماذا استطعنا فى عهد عبد الناصر أن نبي السد العالي الذى يفوق حجم الهرم 17 مرة ونمتلك قناة السويس ونشيد المصانع .. والآن نبيع مؤسساتنا للغرب ونبيع حقوقنا .. وحريتنا .. وأسألك هل بنى الأهرامات عفاريت أم أناس جاءوا من كوكب آخر ؟!!

س : ذكرت لىّ فى اللقاء السابق حكاية البرنس عباس باشا حليم مع عساكر

الإنجليز ما هي تفاصيل تلك الحكاية ؟

مدبولي : البرنس عباس باشا حليم كان مثالاً للتواضع ، ورجل نجدة ومروءة ولقد رأيت فى إحدى المرات عساكر إنجليز يضربون رجلاً فى الشارع على صدره ويضحكون بسخرية ويقولون «ده قطن» وما هي إلا ثواني ورأيت البرنس باشا حليم وهو يضرب العساكر بقوة ويدافع عن الرجل فلقد كان يضرب العسكري برجله يجعله «يلف» حول نفسه 4 مرات . فلقد كان البرنس حليم وحش فى صورة رجل .

س : وما حكاية «بار أفريكا» ؟

مدبولي : ده بار كان لباشوات مصر والإنجليز الذين كنت أراهم سكارى فى شوارع وسط البلد . ولقد كان موقع ذلك البار فى مكان بنك «أبو ظبى» الحالي . ولقد كنت ترى من داخل ذاك البار حركة الناس وهى تسير فى أعداد قليلة على شارع النيل بعد خروجهم من سينما المترو .

س : ميدان طلعت حرب قبل الثورة وبعدها كيف يبدو؟

مدبولي : ميدان طلعت حرب كان هو كل مصر فيه الحركات السياسية والثقافية والمظاهرات ، والاحتفالات والاستعراضات .

س : مظاهر الإنجليز فى أعياد الميلاد كيف كانت ؟

مدبولي : كانوا فى أعياد الميلاد يركبون عربية «كارو» وهم سكارى ، والعربية مليئة بزجاجات الخمر والبيرة .. ويسيرون على شوارع القاهرة وفى آخر المطاف يذهبون إلى تمثال سليمان باشا «وينشنون» عليه بزجاجات البيرة .

س : ما رأيك فى العلاقات الإسرائيلية المصرية؟

مدبولي : أنا أعتبر الفترة هذه بيننا وبين إسرائيل فترة «هدنة» تعالى نرى ما حدث على الساحة بعد اتفاقية كامب ديفيد ، مخدرات وتسريب أغذية فاسدة ، إنها فترة هدنة ، فإسرائيل ليست من دعاة السلام، والذى يحسب لها بهذه الطريقة لن يأمن شرها ، نحن أمة عربية واحدة يربطها «لا إله إلا الله» وديانات الحق الأخرى ، وعلينا

أن نكون مترابطين مجتمعين وأمنيتي أن تتحقق الوحدة العربية التي تسمح لنا جميعًا كعرب أن نتحرك فى كل مكان من الوطن العربي دون جوازات وبطاقات .

ثانيًا: التحولات الثقافية:

شهد الحاج مدبولي منذ أن كان طفلاً يسرح فى شوارع القاهرة لبيع الصحف ، ثم انتقل إلى الكشك ، ثم البسطة ، ثم المكتبة – كل التحولات الثقافية والأدبية والفنية والمسرحية التي تعاقبت على تاريخنا العربي المعاصر – بوصفه معاصرًا لـ «4» عصور سياسية لها انعكاساتها الثقافية والأدبية .. فهو شاهد على عصر الثقافة والكتاب وحركة النشر ، والتوزيع ، وأمزجة القراء.

س : عايشت 4 عصور حكم مختلفة فى مصر ماذا يميز ثقافة كل عصر؟

مدبولي : أقدر أقول أن فى الستينيات نهضة ثقافية لم تحدث مثلها فى تاريخ مصر وهى فترة نقل روائع الإنسانية إلى مصر فى سلسلة تراجم . وعصر السادات كان عصر انفتاح وبالرغم من أن فى عصره الناس تمتلك المال إلا أنها لا تقرأ . وفى عصر مبارك الدولة تحاول النهوض بالثقافة بدليل وجود سلسلة مكتبة الأسرة والمنافذ الثقافية الأخرى .

س : برأيك ما هو نصيب المنطقة العربية من التغيرات الثقافية العالمية ؟

مدبولي : المنطقة العربية دائمًا منطقة ثروات ثقافية وفكرية وتراثية لذلك هي دائمًا العامل الأساسي فى كل تغيير ثقافي يطرأ على العالم .. كما أن دور المثقف فى فترة التغيرات مهم جدًا خاصة فى مجال الإسهام بالوعى الذى به نواجه التغيرات .

س : متى شعرت بحدوث طفرة ثقافية؟

مدبولي : مصر كانت بتمر بها فترات ، تجد فترة فيها رواج الكتاب العسكري وفترة الكتاب السياسي ، وفترة الكتاب الأدبي ، وهى فترات متقلبة فمثلاً فى الستينيات كانت الناس تقرأ أدب وفلسفة ومسرح وبعد 67 كانت تقرأ الكتب العسكرية ، وفى فترة السادات تقرأ الكتاب السياسي خاصة الكتاب الذى يهاجم فترة

عبد الناصر، وفترة السادات كانت فترة «خراب ثقافي» عملت على تأزيم تاريخنا من كل النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وفيها المادة طغت على كل شيء حتى النزعة الوطنية «يعنى انت بتحب مصر ده شيء مزعج بالنسبة للقيادة السياسية فى ذلك الوقت وده الشيءاللي أنا كنت عايشه» أما فترة عبد الناصر كانت ترتبط بالثقافة الحقيقية لأن الناس كانت تقطع من قوتها مثلاً «2 جنيه» لكى تقرأ ، وتلك الفترة هي التي كنت أتمنى أن أعيش فيها العمر كله – يعنى الأربع أو السبع آلاف سنة كانت فترة ، حتى وصلنا إلى الستينات فكانت بداية جديدة فى العصر الحديث يعنى كنا بنحاول نصل للعالم ونشوف الدنيا فين . والدنيا تعرفنا يعنى مثلاً ابن العامل والفلاح بقى دكتور . دي كانت أساس النهضة الثقافية «التعليم المجاني ، دخول الجامعة لأولاد الناس الفقراء».

س : ما رأيك فى ثقافة اليوم وثقافة الأمس ؟

مدبولي : ثقافة الأمس كانت للبناء والعمل ولتحقيق الأهداف الوطنية النبيلة ، وثقافة اليوم «خطب وشعارات» فقط . لكن هذا لا ينفى وجود مثقفين جادين مثل الدكتور جابر عصفور الذى كان وراء سلسلة كتب التنوير التي كانت تصدرها الهيئة العامة للكتاب .

س : وما رأيك فى قارئ الأمس وقارئ اليوم؟

مدبولي : القارئ فى الأمس كان يريد المعرفة ، أما اليوم فهو عارف وعالم لكنه صامت لا يريد أن ينفذ فكرته حتى لو كانت بناء هرم جديد لأنه لا يرى جدوى من ذلك فهو محبط .

س : برأيك ما هو الحل ؟

مدبولي : «ابدأ بنفسك» شعار يجب العمل به اليوم ، لبنان تبنى هذه الفكرة . أنظر ماذا حدث فى هذا البلد ، لا أعتقد أن هناك دولة فى العالم شهدت ما شهده لبنان من دمار وخراب وحروب ، وعادت ونهضت .. إنهم يبنون وطنهم دون اتكال على أحد .. لبنان بلد عظيم مثقف ؟ والطباعة فيه تستخدم تقنية عالية فى طبع الكتب .. يطبعون

مائة ألف نسخة .. هذا فى بيروت فقط .. الناس هناك يعلمون أولادهم هذه المهنة وأيضًا القراءة ، ويعتبر إنتاج الكتب من موارد الاقتصاد فى لبنان .

س : ما هى العقبات التي تواجه النشر والتوزيع وتداول الكتب والمطبوعات فى الوطن العربي؟

مدبولي : المفروض الأن ، ألا يكون هناك فى عصر المعلومات والسماوات المفتوحة والقرية الصغيرة شيء اسمه ممنوع والحرية لا تعترف بالممنوع .. والضغوط الأن على الحكومات العربية لتطبيق الديمقراطية والديمقراطية تعنى عندي الحرية .. ولكن وبكل صدق حكوماتنا العربية لا تريد لنا الحرية ولا الديمقراطية.

س: ما هي اهتمامات الدولة المصرية بعملية البحث العلمي؟

مدبولي : معلوم أن الثورة المصرية قامت فى نفس الفترة التي قامت فيها حركة التغيير فى اليابان بعد أن ضربتها أمريكا بالقنبلة الذرية .. لكن أين نحن الأن ؟ وأين هم اليابانيون؟ هم الأن أخطر قوة فى الصناعات الإلكترونية فى العالم .. دولة تتنافس أوربا وأمريكا ونحن لا نعمل شيئًا .. فقط نستورد ونستهلك .. هكذا أرادوا لنا ولكن إلى متى ؟ لو إننا نحب بلادنا كنا اهتممنا بالبحث العلمي واستفدنا من علمائنا مثل الدكتور أحمد زويل ومحمد المنشائى ومجدى يعقوب ومئات غيرهم يملأون معامل وجامعات الدنيا .. لابد من الاستفادة منهم للأسف هناك من يريدون أن نظل كما نحن .. ولا نستفيد من أبناء مصر النبغاء .. نحن نبيع تجاربنا لغيرنا .. وللأسف فقدنا كرامتنا ومصر اتباعت . وأولادها هم الذين باعوها .

س : هل بالفعل لكل عصر ثقافي فى متطلبات ثقافية خاصة به ؟

مدبولي : بالطبع فلكل عصر متطلباته التى يجب أن يدركها جيدًا كل ناشر يود الاستمرار فى مجال النشر .. فقد كان احتياج المثقفين بعد عام 1956م أكثر إلى الكتب العلمية والاشتراكية وكتب كارل ماركس ولينين ، وبعد 1967م كان الطلب على الكتب العلمية والاشتراكية والاستراتيجيات العالمية وكانت مهمتنا توفير ذلك

لمفكرينا ولضباطنا ، وبعد 1973م دخلنا عصر الانفتاح وبدأت الحاجة إلى الكتب الاقتصادية وكتب التاريخ والسياسة ، وبدأت الكتب الأدبية تأخذ وضعها مرة أخرى، وفى الثمانينيات كانت الحاجة أكثر إلى الكتب السياسية ، أما التسعينيات فكانت كتب الاقتصاد والخصخصة والعولمة ، والأن كتب الاقتصاد والمذاهب والإرهاب والفرق والجماعات ولكنني أقول أن كل أنواع الكتب يجب أن تكون موجودة وهذا ما يميز مكتبتيلأنني أعمل فى كل الفروع والتخصصات .

س : ما هي أسباب انخفاض الإقبال على القراءة ؟

مدبولي : الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، فدخل الموظف ضعيف والغالبية العظمى مش تجار واللي عنده دخل مش بيشترى كتاب يمكن يشترى حاجة يأكلها وحاجة يلبسها .

س : هل هناك طفرة ثقافية قادمة ؟

مدبولي : لدينا مشاكل كثيرة فى مصر والناس مش قادرة تعيد اهتمام الستينيات بالكتاب .. إحنا عاوزين نثقف الراجل اللي فى الغيط والريف وعلشان نوصل له يجب أن نرخص سعر الكتاب لأننا لن نبنى مصر بالشعارات لكن بالتعليم ومحو الأمية فهذه كانت عوامل مساعدة وكان الناس من هذه الحاجات البسيطة تطلع مهندسين وأطباء .

س : هناك من يرى تراجعًا فى نوع الإنتاج الثقافي وتردى الثقافة فى عصر الثورة ؟

مدبولي: أنا أرى العكس فى فترة عبد الناصر كانت هناك نهضة فى مصر ، ولم تكن دارى للنشر أو مكتبتي الوحيدة ، كانت هناك حينها الدار القومية للتوزيع والتيهي اليوم الهيئة العامة للكتاب . فى ذلك الوقت كانت الدار القومية ترسل لي كل ست ساعات كتابًا تطبع منه 500 نسخة فى اليوم نفسه ، انظر إلى حجم العمل والنهضة بمعنى أربع كتب فى اليوم يطبع منها جميعًا 2000 نسخة ، لم تكن هناك حدود توقف دوران المطابع ، وكانت توازينا أو تزامننا فى تلك الفترة دار الآداب ببيروت ، والطليعة ، ودار القلم ، وخليل صايغ ، وفى العراق كان قاسم الرجب الذى أحدث

نهضة فى العراق ، وخليل حجاوي وغيرهم وفق ما يحضرني الأن على هذه العجالة وكانت تلك الدور تتبادل معنا البيع والشراء ، نشترى منهم ويشترون منا لقد كنا نخوض مرحلة نهضوية وبشكل مستمر دون توقف .

س : وكيف كانت حركة المسرح فى تلك الأيام ؟

مدبولي : حركة المسرح فى تلك الفترة كانت محدودة مقارنة بحركة التأليف والنشر ومن المسارح فى تلك الفترة مسرح نجيب الريحاني ، وبديعة مصابني .

س:كيف تحكم على القارئ وماذا تقرأ المرأة ؟

مدبولي : أحكم على الزبون «القارئ» أحيانًا . أرى الواحد الذى يمسك الكتاب بإهمال . ولا يقلب فيه ويشتريه لمجرد الزينة . أحس أن هذا الرجل سيحبس الكتاب على رف فى مكتبه . أتضايق وأغضب . لأن الكتاب ضد السجن . الكتاب حرية . حروف يقرأها الناس . أحيانًا أجد إنسانًا يمسك الكتاب بعناية .. يقرأ الفهرس . يحاول أن يعرف ما فى الكتاب ويشتريه . أشعر أنه سيستفيد منه وسيحبه أتمنى أن الكتب كلها تبقى رخيصة حتى يقرأها هذا الإنسان .. المرأة عندما تشترى الكتب بطبيعتها تكلم نفسها كثيرًا .. صوتها فى قلبها نازل كلام . ولهذا تجد أن معظم النساء تتكلم من طرف أنفها . وتحكم على المظاهر .. وجلابيتي تجعل المرأة دائمًا فى حالة استعلاء . أنا لا أهتم . يهمني أن أقدم لها ما يرضى ذوقها . لكن هناك نساء تشعر أمامها أنك أمام عقل ناضج جدًا .. ينحني له الواحد بالاحترام .. دكتورة لطيفة الزيات . نادية لطفى . وسعاد حسنى تشترى كتبًا كثيرة وهناك سيدة شقراء .. تأتى لتختار كتبًا فى الفلسفة وعلم النفس والروايات ولا أعرف اسمها ولكنها تختار الكتب بعناية بالغة .. أظن أنها ست بيت .

س: وهل هذا يعنى أن لك علاقة بأهل الفن ؟

مدبولي : والله ليس كلهم ولكن هناك أسماء معينة تحرص على التواصل مع الكتاب ، أذكر أن السيدة أم كلثوم كانت متابعة دقيقة لكل ما ينشر فى مجال الشعر القديم والحديث وكانت تبعت تباعًا من يشترى لها الدواوين ، لأنها كانت تختار

نصوصًا بنفسها ، بل ربما تجرى تعديلاً عليها ، لقد كانت قارئة ذكية للشعر .. وأذكر أيضًا الفنان نور الشريف ومحمود ياسين ومحمود حميدة ، وهؤلاء الثلاثة هم أكثر الفنانين متابعة للكتاب .

س: ما هي معارض الكتاب التي تحرص على حضورها بنفسك ؟

مدبولي : هيالتي تقام فى السودان واليمن ولبنان وفلسطين .. فالشعب السوداني هو أكثر البلدان العربية عشقًا للقراءة.ويندر أن أعود من المعارض هناك بأي كتاب.. بخلاف التعاقدات التي أتعاقد عليها مع المكتبات السودانية.. والشعب اليمنى.. شعب يعشق الثقافة ويقدر جيدًا الكتاب.. ولبنان هي المنافسة على عرش صناعة الكتاب.. وستسيده لفترات طويلة .. أما فى فلسطين فالفلسطينيون لا يكتفون بشراء الكتب .. ولكن يأخذون التراب الذى يقع تحت الكتب .. بمعنى حرصهم الشديد على جمع كل معلومة والتزود بالثقافة المتعطشين لها.. وأضيف لقد خسرنا كثيرًا بفقدان العراق والسوق العراقي، لقد كان العراقيون من أكثر الناس إقبالاً على الكتب، أذكر أن أصحاب المكتبات العراقيين يشترون طبعة كاملة من الكتاب، وأحيانًا عدة طبعات من كتب مختلفة دفعة واحدة .. ولكن هناك خسارة أكبر من ذلك وهى خسارة الكرامة العربية بعد احتلال العراق .

س : لماذا لبنان بالتحديد هيالتي تميزت فى نشر وصناعة الكتاب ؟

مدبولي : لأن لبنان لجأت منذ فترة بعيدة إلى الاعتماد على المنجز الفردي ، ومما ساعد لبنان على التربع على سوق النشر فى العالم العربي «الحياد» بمعنى عدم التدخل فى الأفكار التي تقدمها الكتب ..جميع الكتب وجميع الأفكار أمامها فرصة للنشر .. بمعنى أننا إذا نظرنا إلى تجربتهم فى النشر بتأمل أكثر سنتخلص من قيود كثيرة ، تعطل النشر لدينا .. وأقول يبدو الناشرون فى لبنان كما لو كانوا رجلاً واحدًا ، تتطور أدواته فى اللحظة نفسها ، ففي التوقيت نفسه الذى ترتفع فيه الكفاءة المهنية والتقنية للناشرين تتطور الكفاءة التقنية للطابعين ، ولا يتطور الناشر إلى مؤسسة كاملة بل يداوم على وجود تعاون بينه وبين الطابع ومورد الورق ، على أساس أن لكل منهم تخصصه ورزقه .. كما يسرى تشبيه الرجل الواحد على الأسعار والخصومات .. فى

أي وقت ، ولدى الجميع السعر واحد ونسبة الخصم كذلك .

س : هل هذه هي أسباب الطبع والنشر فى بيروت التي يلجأ إليها بعض الكُتاب؟

مدبولي : الدافع وراء النشر والطبع فى لبنان هو الجودة ، حيث تتوافر أحدث ماكينات الطباعة ، ومن المتفق عليه أن من يريد إنتاج كتاب فى أفضل صورة عليه بطباعته فى بيروت ، والطابع يكون شريكًا معك فى الإنتاج بخبرته فيرشح لك الورق المناسب ، خاصة أن جميع أنواع الورق متاحة أمامك دون جمارك ، والإخراج الجيد وشكل الغلاف وبالنسبة لى فأنا أتعامل مع سبع مطابع فى ضاحية بيروت منها: المستقبل ، والريحاني ، والقماطى .

س : ما الفرق بين الكتاب زمان والكتاب الأن ؟

مدبولي : إن تغييرًا كبيرًا حصل للكتاب الأن فالتقنيات العالمية والتكنلوجيا وفنون الجرافيك والألوان جعلت الكتاب جذابًا ومشوقًا وهذا أفاد التوزيع والمؤلفين كثيرًا .. وزمان كان الكتاب أبيض وأسود فقط.. وأستطيع أن أقول إنني أول من أدخلت الألوان فى طباعة الأغلفة للكتب فى مصر .. وزمان أيضًا كان المؤلفون يكتبون للكتابة ولهم رسالة .. والآن كثير من الكتب تنشر منظرة ورغبة فى الكسب .

س: هل الشعب المصري متخلف ثقافيًا ؟

مدبولي : لا بالعكس تمامًا الشعب المصري مثقف بفطرته ، تجد فلاحًا وربما أميًا ويسمع ما يجرى فى البلد من أوضاع سياسية وما تفعله الدول الكبرى وإذا ناقشه طالب جامعي فلن يغلبه ، وستجد لديه كم من المعلومات رهيب ، كما أن حركة التأليف تسير على ما يرام وعندنا مؤلفين كثيرين ، والشعب يقرأ .

س:ومن هو المثقف من وجهة نظرك ؟

مدبولي : الملم بكل الأمور سواء أدبية أو فلسفية أو سياسية . ولا يحصر نفسه فى مجال معين وهذا ما يميز أنيس منصور عن غيره أنه على دراية بعلوم وآداب كثيرة .

س : لماذا انتشرت كتب التراث فى الفترة الأخيرة ؟

مدبولي : هذا شيء يدعو إلى السعادة ، لأن قراءة التراث هي الأساس الذى يمكن البناء عليه . عندما نقرأ تجربة الغزالي أو ابن كثير أو تفسير الجلالين أو ابن تيمية ، كل هذا أساس تستطيع أن تبنى عليه .

س:بوصفك شاهدًا على تحولات الفن ما أحب ما تسمعه منه ؟

مدبولي : أم كلثوم خصوصًا الأطلال ومصر تتحدث عن نفسها وأغاني صلاح جاهين التي يغنيها عبد الحليم حافظ .

مدبولى .. مفكراً

■■■

«الثقافة بالنسبة لي رسالة وطنية أحمل أعباءها برغم كل المصاعب والتحديات» .

الحاج مدبولي

يقول توفيق الحكيم : «إن رسالة المفكر فى جوهرها هي الصدق والحرية .. والمفكر قد يخطئ ويفقد الوعى ولكنه لا يخون رسالته عن وعى» . وبتحليل كلام الحكيم وتطبيقه على واقع وتجربة الحاج مدبولي نرى أن الوراق مدبولي صاحب مشروع فكرى وسياسي واجتماعي كبير يستند على الحرية والمرتكزات القومية والإنسانية والوعى من خلال رسالته التي تقوم على مبادئ الصدق والحرية .. وكل من يتابع مسيرة الحاج مدبولي ويقف عند كلماته وأقواله ويحللها سوف يلتمس صدق كلامي فهذا الرجل البسيط صاحب الجلباب البسيط الثقافة تعنى بالنسبة له رسالة وطنية يحمل أعبائها برغم كل المصاعب والتحديات التي اعترضت طريق مسيرته الخالدة التي جعلت من مكتبته بوصلة للباحث والقارئ فى كل مكان .. منها نشر مدبولي العديد من الكتب التي أثرت المكتبة العربية فى كثير من مختلف أنواع المعرفة من آداب وثقافة وفن وعلوم وسياسة واقتصاد لدرجة جعلت اسمه يتردد فى أوساط المثقفين على كل لسان يقول الحاج مدبولي : «أنا والحمد لله أغنى مصري بالكتب ففي مكتبتي 2 مليون عنوان فى شتى فروع العلم .. وبكل اللغات .. وما من كتاب ينشر فى أي مكان بالعالم العربي .. إلا وأحضره إلى مصر .. أو أسوقه فى مختلف البلدان العربية .. وهذا قدري .. ويقيني أن الله أعطاني حقي بحب الناس.. والحب لم يأت من فراغ .. فقد أحببت الكتاب ومهنة التوزيع والنشر فأعطتني المهنة حب الناس».

ويقول: «لم تكن المصادفة هي التي جعلتني أبيع الكتب.. فقد ورثت المهنة عن والدى رحمه الله والذى كان متعهدًا لبيع الصحف لبعض شركات التوزيع قبل الثورة.. وكان حظى أيامها قد حرمني من التعليم حتى الكُتاب لم أدخله .. فكانت الجريدة فى يدى ولا أعرف ما فيها .. ولعل هذا هو الذى دفعني للتعلم والقراءة .. ليس هذا فقط بل إن إحساسي بالنقص فى هذا الوقت المبكر من عمرى ظل يُنمى فى داخلي هاجس أن أعلم الناس ليس فقط .. بل وأنشر الثقافة .. والحمد لله تعلم منى الناس.. وأحرص أن أطبع الكتاب الذى يحمل الرسالة .. وكل جملة لها معنى .. فالكلمة فى حقيقتها سحر .. وبالكلمة والعلم تبنى الحضارات وتنهض البلدان.. والكتاب علمني ومنحنى الحرية .. ورغم تعرضي للحبس مرات كثيرة.. إلا أن الله منحنى الحرية .. لم آخذها من حاكم أو وزير.. ولكن حريتي أخذتها من إيمانى بالله وببلادي .. ومن الرغبة فى البناء .. بناء الإنسان.. وتعمير الوطن.. ويقيني أن الذى يغضب من النقد البناء فى هذا المجتمع .. أو أي مجتمع.. عليه أن يدرك أن عليه أن يرحل .. ويتركنا فليس هناك معصوم من النقد إذا ارتضى أن يكون له مكان عام .. وتحت الأضواء».

وأنا أترك لأهل الاختصاص من أصحاب الفكر والمفكرين تحليل وتصنيف المفردات أو العبارات التالية للحاج مدبولي– ولكن ضمن جوهر رسالة المفكر على شرط الحكيم – والعبارات هي :

- ما من كتاب ينشر فى أي مكان بالعالم العربي إلا وأحضره إلى مصر.
- إحساسي بالنقص جعلني أعلم الناس وأنشر الثقافة.
- أحرص أن أطبع الكتاب الذى يحمل رسالة .
- بالكلمة والعلم تبنى الحضارات وتنهض البلدان.
- الكتاب علمني ومنحنى الحرية .
- حريتي أخذتها من إيماني بالله وببلادي ومن الرغبة فى البناء .. بناء الإنسان .. وتعمير الوطن.

- إن الذى يغضب من النقد البناء عليه أن يرحل ويتركنا .

وأعتقد أن جوهر رسالة مدبولي الفكرية هو «الحياد» يقول : «أنا عندي مبدأ أقول المائدة لكل الناس لكل الاتجاهات . إحنا مالناش حجر على عقل ولا على فكر» وأن التخطيط للمستقبل أحد عناصر رسالته استمع إليه لتتأكد بنفسك «كنا نسبق أبناء جيلنا . نعم لم ينل أي منا حظه من التعليم لكن الوطنية والتخطيط للمستقبل لا يحتاجان إلى دروس والثقافة يمكن أن تنبت وسط الحقول .. ولقد علمتنا مهنتنا أشياء كثيرة قد لا يعرفها الذين كانوا يدرسون فى أكبر الجامعات .. وأضرب لك مثلاً على ذلك لقد كنا ونحن فى سن 8 سنوات نشارك فى بناء الوطن بأرباحنا .. كنا نتسابق أنا وشقيقي على وضع أرباحنا فى الصناديق التي كانوا يجمعون فيها تبرعات الوطنيين بعد بزوغ شمس الثورة» .

ويقول الحكيم أيضًا : «أن المفكر عليه أن يحتفظ بنظرته الحرة وموقفه المستقل ويُبعد عن رجال الحكم .. لأن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره بل تفكيره الموالي.إنه يريد أن يسمع منه تأييدًا لا اعتراضًا».

وعلى هذا الأساس أن الحاج مدبولي مفكر صاحب فكر حر يبتعد كثيرًا عن دائرة السلطة ، والكل يعلم أن الحاج مدبولي ليس حكوميًا على الإطلاق لا مع الحكومات المصرية أو الحكومات العربية ، ولا من أولئك الذين يتلقون الدعم الخارجي حتى يكون تفكيره متأثرًا بأيدولوجية هنا أو هناك .. وبالرغم من أنه ناصري الهوى إلا أن هذا لم يمنعه من بيع الكتب التي تنتقد التجربة الناصرية وديوان «هوامش فى دفتر النكسة» خير مثال .

ويقول الحاج مدبولي عن الحرية أيضًا : «إن الحرية هي سبب من أسباب التطور ، فعدم الخوف والاقتراح والتفكير والكتابة يساعد على تطورنا وتقدمنا بين المجتمعات» .

إذن مفهوم التقدم والتطور والتخلف بالنسبة للأمم والجماعات والشعوب عند الحاج مدبولي يرتكز على هذه القيم :

1 – **الحرية** : وهى سبب مباشر ورئيسي فى تقدم وتطور أي شعب على وجه الأرض لأن الحرية هي الإبداع، هي الديمقراطية ، هي التطور. فإذا وجد الكُتاب مناخًا من الحرية أبدعوا وبالتالي تتقدم أممهم أليس هذا التلازم طبيعي ومنطقي ؟

2 – **الخوف** :وبمفهوم المخالفة عند فقهاء الدين الإسلامي أن الخوف سبب رئيسي فى عدم التقدم والتطور ، لأن الخوف ضد الديمقراطية والحرية والإبداع والتطور .

3 – **الاقتراح** : حتى تتقدم الدول والشعوب لابد من دراسة جدوى سواء فى مجال الثقافة أو السياسة أو الاقتصاد أو غيره . لأن الاقتراح يعنى ترتيب الأفكار ، والتحديد بدقة ماذا يريد الإنسان بالضبط وكذلك الشركات والدول والمؤسسات .

4 – **التفكير**: أعتقد أن التفكير أساس كل عمل وكل نشاط لأنه إذا اقترح الإنسان فكرة ثم تطورت تلك الفكرة ثم تم تنفيذها بحرفية عالية فسوف تأتى ثمرة والثمرة هي البناء والتطور.

5 – **الكتابة** : وأرى أن الكتابة هنا عند الحاج مدبولي تعنى التشخيص الدقيق لجميع الحالات المرضية سواء فى مجال التخطيط أو العمران أو الاقتصاد أو السياسة أو غيره . لأن القاعدة الرئيسية تقول تشخيص فى الأول ثم العلاج ثانيًا .

وماذا يعنى إصرار الحاج مدبولي فى جميع أقواله أن مهنة النشر والطباعة والتوزيع تعنى عنده خدمة للمكان الذى يعيش فيه أو ينتمى إليه ، كما تعنى التواصل العلمي والفكري ؟ الإجابة لا تزيد أكثر من إحساسه العالي بالمكان والانتماء والوطن والإنسان لأن المفكر هو من يستخدم فكره وأفكاره وآرائه لخدمة مجتمعه ووطنه والإنسانية . وأليس الحاج مدبولي هو القائل : «إن الكلمة العربية الواعية ينبغي أن تكون سلاحنا فى مواجهة الهجمة الشرسة على حضارتنا وديننا .. وهذا لن يتم إلا بعد إطلاق سراح «الكلمة» وإطلاق حريتها» .

وهذا الكلام يعنى أن الكلمة العربية الواعية التي هي سبب تقدمنا وتطورنا غائبة لماذا ؟ لأنها فى سجن أنظمتنا العربية .. التي تحاول دائمًا حبس الكلمة الجادة فى

الصدور أي سجنها الطبيعي .. وإلا سيتم سحلها ثم سجنها فى أحد «سجون قمع الإبداع» . وبالتالي تكون النتيجة الحتمية هي تخلفنا حكامًا ومحكومين .

ثم يضيف الحاج مدبولي قائلاً : «لم أعد أطمع فى شيء إلا أن تذكرني الأجيال بأنني كنت منحازًا للإبداع والمبدعين .. وأنى طوال حياتي لم أخرج من (جلباب أبى) » وهذا بالتأكيد لا يعنى التبعية بل يعنى أو يقصد أنه لا يريد أن يخرج من جلباب الإبداع .

ثم يواصل الحاج مدبولي حديث الإبداع فيقول : «أنا رجل بياع .. أقف طوال النهار أبيع للناس.. هناك لمسات تعجبني .. أحب أن أشارك فى نهضة والحمد لله تأثر بنا ناس كثيرون فى المنطقة العربية ، ودخلوا مهنة الكتاب ، وأصبحوا ناشرين وطوّروا النشر ، لا أقول إنني بنيت 5 أو 6 بنايات ، بل مليون إنسان ، مليون عربي يعرفون ماذا قدم لهم مدبولي . لست مدعومًا من أحد ولم يشترني أحد ، بالرغم من أنه عرض علىّ الكثير .. بعض إخواننا العرب طلبوا مجرد أن أضع اسمى على الكتاب ، بأي شروط أطلبها ، لكنني رفضت .. مدبولي لن يشتريه أحد ، ولن يبيع نفسه تحت أي ظروف».

أنظر أخي لهذه المفردات التي تصدر صادقة من قلب الحاج مدبولي وتأملها فسوف تجده ناشرًا مفكرًا ، وحكيمًا كما سنرى لاحقًا فى ختام هذا المبحث تأمل بحياد هذه العبارات:

- هناك لمسات تعجبني .
- أحب أن أشارك فى النهضة .
- لا أقول أنى بنيت 5 أو 6 بنايات، بل مليون إنسان، بل مليون عربي.
- لم يشترني أحد ، ومدبولي لن يشتريه أحد ، ولن يبيع نفسه تحت أي ظروف.

أليست من شروط المفكر أن يكون حرًا وبعيدًا عن دائرة الاتهام؟ بلى .. المفكر هو من توافرت فى شخصه كل العبارات والكلمات والجمل التي ذكرها الحاج

مدبولي . وأضيف من خلال تتبعي لمسيرة الحاج مدبولي أن من شروط المفكر الأمانة .. يجب أن يكون المفكر أمين لأنه مسؤول عن توجيه وإرشاد وتبصير الناس .. انظروا إلى هذه الحكاية التي يرويها الحاج مدبولي قائلاً : «فى الستينيات جاءني الدكتور سهيل إدريس من لبنان ، ليسألني عن من يترجم له كتاب «الوجود والعدم» فقلت له ليس هناك سوى اثنين : فؤاد زكريا وعبد الرحمن بدوى ، لأنه كتاب صعب ومليء بالمصطلحات» .

مدبولي .. حكيمًا :

أنا لن أزيد عن كتابة العنوان وأترك لحضراتكم الحكم على تجربة الحاج مدبولي من خلال أقواله وأفعاله وكلماته التي هي ثمرة جهاده ونضاله فى ميادين النشر والتوزيع والكتاب التي اختمرت فى صدره وعقله لأكثر من ستين عامًا فى خدمة الكتاب .. والآن إليكم أقوال الحاج مدبولي:

1 –الإيمان بالديمقراطية هو الواقي من أي شيء يمكن التخوف منه، فلماذا لا ندع الأمور تسير كما هي، لأنه لا يمكننا أن نجعل اليمين يسارًا ولا اليسار يمينًا.. لا بالضغط ولا بالإكراه، ولا حتى بالقانون.

2 –اتقوا الله يكفيكم عيوبكم.

3 – قراءة التراث هي الأساس الذى يمكن البناء عليه .

4 – الورق له متعته الخاصة وكيانه المستقل ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يأتي اليوم الذى ينتهى فيه دور الكتاب الورقي الذى بدأ منذ زمن أرسطو وأفلاطون .

5 –حتى تتمتع الثقافة العربية بحريتها المطلقة يجب أن تتخلص من قيود الدولة الرقابية، وكل ما من شأنه أن يقف عائقًا دون تغذية الفكر والعقل بالكلمة الصادقة والتعبير الحقيقي.

6 –انحيازي دائمًا لحرية الكلمة والرأي وللمواهب الجديدة.. ومهما أوقعني هذا الانحياز فى المشاكل والقضايا أخرج وفى قلبى إصرار على مواصلة انحيازي للكلمة الحرة .

7 – إن رسالتي نحو تثقيف وتنوير الناس أصبحت بالنسبة لى هدفًا ومتعة قبل أن تكون منفعة .

8 –معياري دائمًا هو القيمة الإبداعية للعمل فأنا متحيز للمعارف ولكل مبدع .

9 – الحرية هى سبب من أسباب التطور لأن عدم الخوف ، والاقتراح والتفكير والكتابة يساعد على تطويرنا وتقدمنا بين المجتمعات .

10 –إن حرية العقل هي هبة من عند الله، فلا يجب وضع حجاب على العقل.

11 – حريتنا أعطانا إياها الله من خلال العقل والكتاب، فلماذا نمنعها.

12 – لا حجر على العقل ولا على الفكر متى ما كان ذلك لا يتوغل فى محظورات الجنس الفاضح والتهجم على الأديان .

13 – لا يستوى أبدًا الذين ينشرون الفكر والثقافة والذين يشعون الجهل والضلالة فى المجتمع .

14 – أحرص أن أطبع الكتاب الذى يحمل الرسالة ، وكل جملة لها معنى .. لأن الكلمة فى حقيقتها سحر .. وبالكلمة والعلم تبنى الحضارات وتنهض البلدان.

15 – الذى يرغب أن يكون له رفيق فالكتاب هو خير رفيق .. عالم نتعلم منه .. ونغوص فيه ولا نغرق.. بحر لا نستطيع أن نصل إلى قراره أو شطآنه .

16 – الكتاب علمني ومنحنى الحرية .

17 –حريتي أخذتها من إيماني بالله ، ومن الرغبة فى البناء .. ثم بناء الإنسان وتعمير الوطن.

18 – إن الذى يغضب من النقد البناء فى هذا المجتمع .. أو أى مجتمع آخر عليه أن يرحل ويتركنا أو يتركهم .

19 – ليس هنالك معصوم من النقد إذا ارتضى أن يكون له مكان تحت الأضواء .

20 – الذين يقولون أن مصر أم الدنيا.. جانبهم الصواب .. والصحيح الذى أقوله

.. أن مصر هي الدنيا.

21 – الكتاب ضد السجن، الكتاب حرية، الكتاب حروف يقرأها الناس.

22 – أنا نفسى أفرش شوارع مصر كلها كتب .

23 – الكتاب حب كبير وبحر محتاج لمساعدة ربنًا وقبطان يحب الشغل.

24 – الإنسان بعقله وتفكيره مش بهدومه .

25 – الكتاب حب .. والله العظيم حب كبير .

26 –أتمنى أن تحل قضية العرب حربًا لأن القوة هي الأساس فى نجاح أي قضية ولا شك أن النصر حليفنا فى حال عقد العزيمة والسير على طريق النضال وعندها سأقاتل دفاعًا عن وجودنا وعروبتنا ومصيرنا، وأعتبر كل جندي فى المعركة معي فى قلبي وروحي وإحساسي وعاطفتي ، وطالما إسرائيل موجودة فإن الحل السلمى لن يكون ، لذلك لابد من حمل السلاح حتى يعود الوطن حرًا عزيزًا .

27 – يجب أن يعامل الكتاب كرغيف العيش وأن يدعم مثله.

28 – أتعامل مع الكتاب على أنه ابنى .

29 – إن من حسنات صدام حسين أنه محا الأمية من شعبه ولا يوجد من فعل هذا سواه فى حكامنا العرب .

30 – 24 قضية أمن دولة ضدي لم تمنعني من مواصلة دوري فى مخاطبة العقل العربي ، وتزويده بغذاء الروح .

31 – لا أعرف ما هي السعادة غير أنى أعرف تمامًا أنى كالسمكة التي يستحيل عليها العيش خارج بحرها ، وبحرى أنا ماؤه كتب ومجلات.

32 – مادام ثمة من يمتنع عن الأكل بغية اقتناء الكتب فليس هناك ما يقلق.

33 – إن رأسمالي الوحيد هو عناوين الكتب ، ولا أملك مالاً سائلاً فى أي بنك .

34 –مكتبتي مثل المائدة العامرة عليها ، أفكار اليمين واليسار ، وأدب وفن

وثقافة وفكر وسياسة واقتصاد ومذكرات .

35 –أريد أن أخلق جيلاً جديدًا من الكُتاب.. لأن هذا يخلق كتابًا جديدًا .

36 – أتمنى أن تصبح كل شوارع مصر أسوارًا كسور الأوزبكية ، فطالما هناك علم موجود على الأرض ستوجد الكتب ولا سبيل إلى وقف هذا السبيل المسمى بالكتاب .

37 – أنا لا أتعامل مع الإسرائيليين أبدًا حتى لو نزل هذا فى كلام مقدس.

38 – لا أطمح فى شيء .. إلا أن تنقشع عن سماء أمتنا العربية هذه الغيوم.

39 – الكلمة العربية الواعية ينبغي أن تكون سلاحنا فى مواجهة الهجمة الشرسة على حضارتنا وديننا .. وهذا لن يتم إلا بعد إطلاق سراح الكلمة وإطلاق حريتها .

40 – لم أعد أطمع فى شيء إلا أن تذكرني الأجيال بأنني كنت منحازًا للإبداع والمبدعين .

41 – عندما يكون هناك تخطيط لبناء مجتمع فالوسيلة هي الكتاب .

42 – الثقافة بالنسبة لي رسالة وطنية ، أحمل أعباءها برغم كل المصاعب والتحديات .

43 – لا أبالغ لو قلت أن الكتب هي حياتي وعالمي الخاص والعام لدرجة أنى تعلمت القراءة من خلال علاقتي الحميمة بها ، ومتعتى الوحيدة هي القراءة والنهل من هذا العالم الواسع ،

44 –سأظل كما أنا بالجلابية فهي سر نجاحي ورمز تمسكي بالبساطة وأخلاق ابن البلد.

45 – أنا تربيت على حب الكتاب والكلمة المكتوبة واجتهدت فى أن أفك الحرف وأتعلم القراءة رغم أنى لم أدخل مدارس .

46 – شعرت بأنني تحولت إلى جثة هامدة وأنا أرى كشكي يحتضر .

47 – المادة الجيدة فى أي فرع من فروع المعرفة تفرض نفسها وأنا من المـؤمنين بأن النقد البناء وسيلة لبناء المجتمع فلنترك الباب مفتوحًا أمام الآراء الجيـدة بحريـة والعقل فى النهاية سيد الموقف .

48 – أنا مواطن بسيط بأغير على بلـدي وعروبتـي .. وأتمنـى أن نعـاود أمجادنـا فالإمبراطورية العربية كانت أكبر إمبراطورية على مـدار التـاريخ.. مـن الصـين شـرقًا وحتى حدود فرنسا غربًا.

49 – فى عصر المعلومات والسماوات المفتوحة والقرية الصغيرة لا يوجد شيء اسمه ممنوع لأن الحرية لا تعترف بالممنوع .

50 –إننى على استعداد لأن أموت من أجل توفير كتاب جديد .

مدبولى وحوار الصحافة

■■■

«انحيازي دائمًا لحرية الكلمة والرأي والمواهب الجديدة، والصحافة الحرة، وللإبداع والمبدعين».

الحاج مدبولي

«أهرام – جمهورية – أخبار» عشرات الألوف من الباعة البسطاء يصيحون كل صباح بهذا النداء .. ينتشرون فى الشوارع والميادين والأزقة يبيعون الكلمة – الخبر ، والثقافة – يحملون إلى جانب الصحف مجلات وكتبًا ، قد لا يتصور مشتر لهذه الصحف أن البائع حاول يومًا أن يتصفحها ، ناهيك عن أن يجلس فى آخر الليل ليقرأ كتابًا لسارتر أو البير كامى أو هيمنجواى أو تشيكوف .. ربما لم يخطر ببال أحدنا أن بائع الثقافة يمكن أن يكون مثقفًا – انطلاقًا من المثل القائل «باب النجار مخلع» أو لأن بائع الثقافة مجرد جسر ووسيلة تعبر عليها الكتب من الناشر إلى المتلقي ، مثله مثل ساعي البريد ، يحمل الرسائل ولا يدرى عن محتوياتها شيئًا .. هذه المقدمة الرائعة كتبها الزميل عصام الغازي فى حواره مع الحاج مدبولي سنة 1985م .. ويقول أيضًا : «أن محمد مدبولي كان عكس ساعي البريد ، فقد حاول ونجح فى أن يتعلم العربية والإنجليزية وأن يتحدث الفرنسية والإيطالية بطلاقة» ويضيف «فقد قرأ «سارتر وكامى ويونسكو» واطلع على المذاهب الفلسفية والتاريخ وعلم الاجتماع وصار صديقًا لنجيب محفوظ وأنيس منصور وتوفيق الحكيم ، يناقشهم الساعات الطوال والليالي فى العبث والوجودية .. وحين صار ناشرًا ، كان وحده صاحب القرار الأول والأخير فى نشر أي كتاب أو رفضه ، بعد أن يقرأه ويناقش مؤلفه فى مادته الثقافية أو السياسية أو التاريخية .. عندما حاولت أو شرعت فى كتابه هذا المبحث لم أجد صراحة مقدمة أفضل من هذه التي كتبها الزميل عصام الغازي .. وفى الحقيقة

إنني أتناول تحت هذا العنوان «مدبولي وحوار الصحافة» شيئين الأول منهما ماذا كتبت الصحافة المصرية والعربية عن الحاج مدبولي والثاني اعترافات مدبولي للصحافة ثم أختم بنقطة أخيرة هي «مدبولي فى عيون الأدباء والمثقفين» .. ثم صفحة مدبولي فى موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين .

(أ) ماذا كتبت الصحافة عن مدبولي :

1 – مجلة توزيع :

وهى المجلة التي تتكلم بلسان «اتحاد الموزعين العرب» ولقد كتبت تقول عنه : «ما من قارئ أو مثقف فى العالم العربي لا يعرف من هو محمد مدبولي .. ولا يختلف اثنان على أنه ظاهرة ثقافية مصرية – وأصبحت عالمية .. الحاج مدبولي .. بجلبابه الصعيدي الذى يحرص على ارتدائه ويرفض الخروج منه .. بدأ حياته بائع صحف متجول فى شوارع القاهرة .. وعندما امتلك وشقيقه كشكًا صغيرًا فى ميدان طلعت حرب تكالب الكثيرون من أعداء الثقافة على إزالته وهدمه .. ولكنه صمد أمام تيار الظلام بمساعدة الصحفيين والكتاب.. وبإيمانه بأهمية الكتاب ودوره.. حتى أصبح مدبولي بجلبابه الصعيدي .. أرفع مقامًا من وزراء الثقافة .. وساهم بكتبه وكرمه فى تشكيل وجدان الكثير من الحكام العرب الذين تعلموا فى القاهرة واعترفوا أنهم تعلموا من مكتبة مدبولي أكثر مما تعلموه من الجامعة» .

2 – جريدة الرياض 1983م :

محمد مدبولي صاحب أكبر مكتبة مصرية ، يدهشك ببساطته ، لا تكاد تعرفه إلا وتحسب أنه ليس صاحب هذه المكتبة الكبيرة .. لم يحصل على أي شهادة دراسية ، لكنه يجيد أكثر من لغة أجنبية يسأل زبونه عن بغيته فى حب ورغبة شديدة فى خدمته وحصوله على أي كتاب .. يقابلك بابتسامة جميلة، بجلبابه البلدي.. يحسبه الكثيرون عاملاً فى مكتبته لكنه يصر على إسداء خدماته بنفس الابتسامة دون غضب أو إحراج .

3 – المسافر 2003م :

مناجم الذهب التي خلفها المصريون القدامى فى سيناء أثرًا بعد عين ليست دليلاً

قاطعًا على أن معدن الذهب لم يكن موجودًا إلا فى هذه المساحة وحدها من أرض مصر .. بل موجود فى قلب القاهرة فى ميدان «طلعت حرب» حيث يوجد أكبر مزار ثقافي عربي لأشهر مكتبة فى مصر وهى «مكتبة مدبولي» حيث الكلمات من كل اتجاه جمرات حمراء مشتعلة تضئ سماء العلم والمعرفة والآداب والسير الذاتية واللغات العالمية هنا تقف حائرًا فى نفس المكان الذى دخله من قبل مشاهير الساسة والزعماء والأدباء ، والكتاب .. لتجد نفسك أمام «سبيكة من الذهب الخالص» لشخصية مصرية خالصة .. ترفض أن تخلع «جلباب ابن البلد» رغم أنها قفزت بعبقريتها وفطرتها وإخلاصها إلى سماء الشهرة والمجد دون أن تتهاون أو تتخاذل عن دورها فى اكتشاف الأحجار الكريمة التي تجود بها أرض النيل فى إبداع أبنائها .

(ب) اعترافات مدبولي للصحافة :

س : بماذا يحلم الحاج مدبولي ؟

مدبولي: بألا يبقى شخص واحد لا يقرأ .

س : أي مكان بالنسبة لك الأفضل فى الحياة ؟

مدبولي : المكان الذى أفضله : الحياة بين الكتب وهذه متعتى التي ليس لها حدود وهم أولاديوشغلي وكل شيء فى الدنيا .

س : الإذاعة الأجنبية التي تثق فى خبرها ؟

مدبولي : الحقيقة وقتي لا يسمح بسماع إذاعات أجنبية ، ولكن عندما أستطيع ذلك لا أتردد عن سماع «مونت كارلو» - بدون مجاملة – ثم تأتى لندن فى المرتبة الثانية لاهتماماتي س : لو جاءك مثلاً شاب فقير ويدرس فى الجامعة وليس لديه مال وطلب منك كتب مجانًا هل تعطيها له ؟

مدبولي : أديله ما أدلوش ليه ما فيش أي مشكلة .

س:لو طرحوا الهيئة العامة للكتاب للبيع هل تشتريها ؟

مدبولي : أفكر ألف مرة قبل اتخاذ قرار بذلك .

س : ما الكتاب الذى تعتبره أهم إنجازاتك وما الكتاب الذى ندمت على تقديمه للناس ؟

مدبولي : الكتاب الذى أفخر بأنني قدمته للناس هو صفحات من شخصية مصر .. هذا الكتاب بالفعل أهم ما نشرت طوال حياتي.. لكن لم يحدث أنى قدمت كتابًا وندمت عليه أبدًا على الرغم من أن بعض الكتب كانت ستدخلني السجن .

س : هل ترى أن هناك أزمة فى الإبداع حاليًا ؟

مدبولي : طبعًا . هناك أزمة مبدعين ، وأتساءل دائمًا لماذا لم تنجب مصر من هم مثل طه حسين والعقاد وغيرهما من جيل العمالقة .

س : هل أنت مقتنع بأفكار كل الكتب التي تنشرها ؟

مدبولي : بالطبع ، فالكتاب الجيد هو الذى أقدمه للناس ، وهذا ليس حكرًا على فكر أو عقل .

س : ما رأيك فى جائزة نوبل ؟

مدبولي : الجائزة على مستوى عالي جدًا ، وحينما تمنح لأحد الأدباء فإنه يكون محط أنظار العالم أجمع ولكن مشكلة نوبل تكمن فى معايير اختيار لجنة التحكيم .

س:هل هناك فترة تريد أن تسقطها من حياتك ؟

مدبولي : مادام الكتاب حولي لا أريد نسيان أي فترة .

س : كيف تتعامل مع الكتاب ؟

مدبولي : الكتاب ده ابنى ، يعنى بقى تحافظ على ابنك وتحطه فى حضنك ولا ترميه.

س : نود أن نعرف تفاصيل العرض الذى تقدمت به «هيرمس» لك ؟

مدبولي : لم يجرؤ أحد بأن يتقدم بأي عروض لأنهم يعرفون أنى أرفض هذا الكلام لأننيأعي تمامًا أن مكتبة مدبولي هذه ليست ملكي أنا ولكنها ملك كل المثقفين

المصريين والعرب ولن أنسى عندما أزيل الكشك كيف كان كل المثقفين يـودون أن يعتصموا حوله فكيف أخون كل هؤلاء .. ففي هذا المكان توجد الثقافة الوطنية التي سأظل أدافع عنها حتى آخر لحظة من عمرى أنا لا أعرف ماذا سيفعل من يأتي بعـدى ولكن ما دمت على قيد الحياة فلن يجرؤ أحد من الاقتراب من هنا .

س : هل تعرضت للجوع والموت وأنت صغير ؟

مدبولي : لا : أنا عشت .. مصر ما فيش حد بيجوع فيها بس الناس دلوقتى بتجوع. والله صدقني الناس كانت فيها خير كثير قوى.

س : ما هو أصعب شيء عشته فى خلال عملك الأول فى توزيع الصحف؟

مدبولي: يعنى أنت عارف إن أنت بتنام فى الشارع أصعب من كده فى؟ يعنـى مـثلاً وأنت نائم فى الشارع 15 سنة أنت وأخوك .

س : صيفًا وشتاءًا ؟

مدبولي : آه شتاءً وصيفًا ، كان بجينا أيام صوابعنا دي نحطها فى أسناننا عشان نرفع يدنا آه يعنى دي حياة بس ما لكش مصادر ثانية تعملها غير كده يعنى كانـت التركيبـة داخلة فى الحتة دي بس .

س: ما هي الكتب التي تفضل قراءتها ؟

مدبولي: الكتب التي تتحـدث عـن علـم الإدارة والمهـارات الإداريـة ، والكتـب الدينية الكلاسيكية فـ «الإنسان ليس له إلا ربه» .

س : أحب كُتابك ؟

مدبولي : هيكل وأحمد بهاء الدين .

س : ما رأيك فى التعددية الحزبية الموجودة حاليًا فى مصر ؟

مدبولي: المشكلة تتلخص فى أننا نريد أن نبنى المجتمع ، فهل يوجد رئيس حزب أخذ 100 شاب للصحراء ليقوم بتعميرها ؟ أنـا أرى نـزوات وشـعارات و«شـتيمة»

وتهليل ولكن لا أرى فعل ، أقول بصراحة قيادات الأحزاب كلهم منتفعين وليسوا أحزاب عمل .

س : وما هو ميلك الحزبي ؟

مدبولي: أنا مصري ، وكل من يعمل لمصر فهو من حزبي .

س: أين موقع مصر في سوق الكتاب ؟

مدبولي : في الصدارة وبلا منافسة . وكيف يكون لها منافس وأنا عندي كتاب مطبوع فى مصر سنة 1922 بـ 8 لغات «معجم الأعشاب الطبية» يأتي لبنان في المرتبة الثانية ثم المغرب .

س : ولو دارت عجلة الحياة مرة أخرى فماذا كنت تحب أن تكون ؟

مدبولي: نفس المهنة ونفس المكان ، لأنني أحب هذه المهنة وأعتبرها نعمة من الله .. ويكفى أنها تقدم الكلمة التي تخدم المجتمع وبالكلمة يمكن للدول أن تبنى شعوبها على أساس قوى ومتين.

(جـ) مدبولي فى عيون الأدباء والمثقفين :

فى عام 1999 كرم المركز الفرنسي بالقاهرة «السيداج» الحاج مدبولي عندما قدم له الدعوة حتى يدلى بشهادته عن التاريخ الذى عاشه والتجربة التي خاضها .. والحقيقة أن التنويه والإشادة بالحاج مدبولي دائمًا يكون عربيًا وعالميًا ولم يحدث على الإطلاق أن كرمته جهة رسمية داخل مصر ، ففي الأردن مثلاً كرمه مثقف هو مدير أمن عمان الذى أعطاه هدية عبارة عن سيف مرصع يقول مدبولي عن هذه الهدية : «هي هدية أعتز بها لأنها تعنى عبارة «خض نضالك بالسيف» .. ومع ذلك فإن مدبولي يرى أن أكبر تكريم له أن يظل وسط الناس هذا هو أهم تقدير له فهو لا يطلب من الدولة أن تمنحه أي وسام ، ويكفيه أن المنطقة العربية وأروبا تعرفه على أنه الرجل المثقف ، كما يعرفه المؤلف والقارئ وهذا هو التكريم الحقيقي .. يقول الحاج مدبولي : «حب المثقفين والتفاف الناس حول مكتبتي يعوضني عن أي شيء ، فهو أعظم وسام ويفوق عندي أي ورقة تعطيني إياها جهة رسمية أو غير رسمية

بغرض التكريم» ثم يضيف قائلاً : «رأيت وأنا صبي صغير وزراء وباشوات مصر، وشاهدت الملك فاروق حين كان يأتي ليسهر فى نادى السيارات ، وعرفني العديد من نجوم السياسة العرب منذ أن كانوا طلبة يدرسون فى القاهرة ويتلهفون على الكتب ، وفى معرض غزة الدولي للكتاب استدعاني الرئيس ياسر عرفات وجلسنا معًا وصورنا التليفزيون . أما فى معرض الشارقة فقد أنصفني حاكمها عندما أراد المنظمون أن أنقل مكتبتي حتى لا تعوق موكب الحاكم الشيخ الدكتور سلطان القاسمي . كذلك كان كبار المثقفين المصريين والعرب أصدقائي مثل نزار وغادة السمان وسلمت على سارتر حين زار القاهرة فى الستينيات .. وعندي «كوم» من الجرائد والمجلات الأجنبية التى كتبت عنى ووصفتني المتحكم الحقيقي فى الثقافة المصرية .. كل هذا يكفيني وزيادة».

كتب الزميل «سيد محمود حسن» في مقدمة التحقيق الذى يصف الحاج مدبولي «ظاهرة ثقافية وليس مجرد بائع كتب» - كتب يقول «قل ما شئت عن مدبولي واختلف معه ما شئت ، لكنك فى الأحوال التي تبحث فيها عن «النادر» أو «الممنوع» من الكتب لابد أن تبدأ الخطوة الأولى من أمام مكتبته فى ميدان طلعت حرب، المكتبة التي تبدو أقرب ما تكون إلى «بورصة الكتاب العربي» فهناك تستطيع أن تعرف من أهم كاتب عربي وما أهم كتاب ومن المؤلفين الأعلى سعرًا فى سوق النشر العربية .. ومع مدبولي أنت أمام نموذج نادر فى الثقافة العربية نموذج للرجل العصامي «ابن البلد» الذى كون نفسه من اللاشيء والذى يفخر بأن ثروته مجرد «ورق» يملأ جدران مكتبته . وبعد هذه المقدمة تعالوا الأن نرى مدبولي في عيون الأدباء والمثقفين من خلال شهاداتهم فى تجربة مدبولي :

1 – شهادة نعمان عاشور:

عرفت «المدبولين» منذ الحرب العالمية الثانية وهما يبيعان الجرائد والمجلات والكتب على نفس الرصيف الذى يشمخ فوقه «الخص الثقافي» كما تعودنا أن نسميه . ولقد أمدانى كما أمدا المئات غيرى بأندر الكتب والمجلات طوال تلك الحقبة .. ولا يزال محمد أو ربما أحمد يرتدى الجلابية والطاقية بينما يلبس الآخر القميص

والبنطلون والطاقية أيضًا .. وأنا أتحدى أن يكون فى القاهرة قارئ كتب لا يعرف «خص الثقافة» الذى عاش ولا يزال يعيش فيه مدبولي وأخوه منذ تلك الحقيقة .. عمر طويل .. لا أعتقد أن هناك من خدم الحياة الثقافية والفكرية مثل الأخوين «مدبولي» بجهد ومثابرة وإنكار ذات .. وبدون أدنى محاولة لرفع السعر . ولهذا سارعت لتلبية الدعوة بمجرد أن غادرت الفراش.. ودخلت المكتبة الجديدة .. وأنا أحنى رأسي تحية وإكبارًا.. لأخلص من عرفت بين خدام الكلمة المكتوبة من أبناء شعبنا العظيم.

2 – شهادة الكاتب أنيس منصور:

في تاريخ الصحافة كان فيه كاتب ناقد ساخر اسمه «أبو نضارة» وعندنا فى النشر أيضًا واحد اسمه «أبو جلابية» إنه الحاج مدبولي .. أشهر ناشر وأشجع وأوسع أحضانًا تضم الباحثين والشبان .. يكفى «أبو جلابية» رعاية للباحث الزاهد راهب العلم والحكمة الدكتور عبد المنعم الحفني .. فلم يحدث أن استطاع باحث أن يكتب عشرين موسوعة فى الدين والتصوف وعلم النفس وعلماء النفس والفلسفة . ولو وقف الدكتور الحفني فوق مؤلفاته هذه لطاول الأهرام .. وكلما زادت كتبه عددًا ازداد تواضعًا . وهو بما كتب وألف وترجم يستحق كل جوائز الدولة.. ويعجبني الباحث الأستاذ عبد العزيز جمال الدين . لقد أوتى من الصبر والمثابرة مالم يبلغه مئات الألوف فدراسته وتقديمه والهوامش التي كتبها لتاريخ الجبرتي عمل بديع ، وأقسى وأعجب من ذلك أن ينشر المخطوطة «تاريخ مصر – من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين» من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع فى ستة مجلدات وفى ستة آلاف صفحة ؟! .. وفى المعرض الدولي للكتاب كل سنة لابد أن تذهب إليه وتبحث عن المؤلفين الجدد الذين لا يعرفهم أحد.. رسائل الماجستير والدكتوراه والعلماء الذين لم يعرفوا دور النشر الحكومية والأهلية. إنهم يتجهون إلى «أبو جلابية» وهم فى غاية الاطمئنان حتى الشبان الذين يرون الكتب الجديدة وتكاد عيونهم وعقولهم أن تطير لأنهم عاجزون عن شرائها . ولكن «أبو جلابية» يسارع إليهم ويقدمها لهم .

3 – شهادة الكاتب صفوت محمد يوسف:

سمعت عنه كثيرًا.. فشهرته أصبحت على كل لسان.. وقصته صارت ملحمة يجرى سردها فى المنتديات .. توقعت أن أقابل رجلاً «سمينًا» تظهر عليه سيماء البرجوازية والعيش فى نعيم .. توقعت أن أجده مرتديًا زيًا عصريًا ويضع على عينيه عوينات طبية مثل أبناء الطبقة الأرستقراطية وقبل أن ألتقى به أخذت عيناي تجولان المكان وتفحص كل شبر من أركانه .. الكتب ذات الأغلفة الملونة مصفوفة فى نظام بديع والمشترون يتسابقون على هذه الدار يشترون العلم الذى أتاحه لهم ابن مصر البار بأسعار زهيدة وأشد ما كانت دهشتي عندما دخلت للقائه .. قابلت رجلاً يرتدى جلبابًا بسيطًا وينتعل صندلاً.صافحني بيد قوية تدل على شدة العزيمة وقوة الإيمان.. وعيناه ليست من العيون التقليدية فهناك شعاع قوى ينطلق منهما يأسر من ينظر إليهما .. إذا تحدث خرجت الكلمات من فمه فى تلقائية محببة تخرج من القلب لتأخذ أيسر طريق إلى قلب من يسمعها . إنه الحاج مدبولي أحد علامات نهضة مصر الثقافية وواحد من أكبر الناشرين فى الشرق والغرب .

4 – شهادة الدكتور عبد المنعم الحفني:

أنا أول من تعامل مع مدبولي منذ البداية ، فأنا أول من نشر له مدبولي واستمر ذلك منذ الخمسينيات حتى الآن فقد رأيت منه كل ما يسر فهو أمين على النصوص وأمين فى محاسبته ، وله فهم ودراية بالحركة الثقافية العربية عامة والمصرية خاصة ، ولذلك كان نقاء فيما ينشر فهو يختار النصوص والمؤلفات التي يجد أن أصحابها بهم صدق ووطنية وإحساس قومي ودراية وثقافة واسعة ولم يحدث أن سقط كتابًا واحدًا مما نشر . فقد نشر لى مدبولي نحو مائة وعشرين مؤلفًا ومترجمًا وكان ذلك مبعث مكانة الصداقة بيننا والأخوة الجميلة .. وقد انبرى الحاج مدبولي لنشر ما أضعه من موسوعات كان منها موسوعة التحليل النفسي ، وموسوعة الطب النفسي ، ومنها أول كتاب يتحرى حياة وسيرة السيدة عائشة بعنوان «موسوعة أم المؤمنين وحبيبة رسول الله عائشة بنت أبى بكر الصديق» يؤرخ لأحاديثها عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومكانتها فى الإسلام ، وأنها أولى النساء اللائي ساعدن فى نشر الديانات

فلا يوجد مثلها لا فى النصرانية أو اليهودية .. وأول ما نشر لىّ كتب فى المذهب الوجودي عن سارتر وكامى ، وفى الفلسفة الوجودية والأدب الوجودي عامة . وأرى ما يميز مدبولي فهمه العميق للحركة الثقافية فى مصر والعالم العربي . ولقد نشر لي أيضًا أعظم كتابين حتى الآن فى العربية والإسلام وهما «موسوعة القرآن العظيم» فى مجلدين من خمسة آلاف صفحة ، والثاني «موسوعة حياة محمد صلى الله عليه وسلم نبي الإسلام» ومن عوامل استمرار مدبولي أعتقد صدق المعاملة ، وأنه كان متفاهمًا لدرجة كبيرة وواسع الأفق منذ البداية وعلى علم بالحركة الثقافية منذ البداية منذ أن كان صغيرًا .

5 – شهادة الأديب يوسف القعيد:

تعرفت معرفة شخصية على الحاج مدبولي فى منتصف ستينيات القرن الماضي تقريبًا حوالى أربعين سنة .. وكنت شابًا صغيرًا يكتب القصص القصيرة ولم أنشر أي كتب . وما لفت نظري أنى كنت أذهب إليه وليس معي «فلوس» فيعطيني الكتب بالأجل ، وهذا كان شيئًا نادرًا يفعله معي ومع الشباب الذين كان يشعر برغبتهم الحقيقة فى تثقيف أنفسهم ولكن تحول دون ذلك القدرة المالية .. وفى تلك الفترة كان مدبولي يتحول من بائع كتب إلى ناشر كبير ، وكان معه شقيقه المرحوم «أحمد مدبولي» وشقيقه الراحل «سيد مدبولي» .. ولقد كان مدبولي من أكثر الناشرين التزامًا بالقضايا الوطنية .. ومازال نشره يعتمد على الخط الوطني.. ولقد كان الحاج مدبولي ليبراليا بكل معنى الكلمة .. ورغم أنه ربما لم يفكر فى معنى كلمة ليبرالية أو يشغل نفسه بتعريفها إلا أنه كان عنده قدرًا هائلاً من الليبرالية الحقيقية وليست الليبرالية المصطنعة ، أو الليبرالية «بتاعة» المثقفين الذين يتكلمون عنها أكثر من ممارستها فى الحياة اليومية .

6 – شهادة الكاتب صلاح عيسى :

كان مدبولي شخصًا عصاميًا صعد من أسفل السلم إلى أعلاه وتحول من بائع صحف يطوف فى الشوارع إلى أكبر ناشر وأكبر موزع فى مصر، رغم أنه «يكاد يكون أميًا» .. ولقد كان حسن الفطرة وكان يتسم بروح إنسانية مع المثقفين ، فكثيرًا ما كان

يعطى كتبه لمن يحتاجها من المثقفين ولم ينتظر أن يدفعوا له المقابل فى وقتها .. وكان أيضًا شخصية نشطة وشجاعة ومتحمسة ومغامرة : فنشر لأحمد فؤاد نجم كتبه ودخل بسببها فى مواجهات مع السلطة .. ولقد تنبه الحاج مدبولي لأهمية الوصول إلى عرب المهجر وأنشأ فرعًا لمكتبة مدبولي فى لندن ، ولأهمية إصدار الكتب النادرة التي اختفت طبعاتها من السوق ، وسقطت حقوق ناشريها وقدمها للعالم العربي .

7 – شهادة الشاعر أحمد فؤاد نجم:

عام 1973 وبعد خروجي من المعتقل بأيام قليلة ذهبت إلى مبنى «روز اليوسف» بقصد زيارة صديقي وأستاذي الفنان الكبير «حجازي الرسام» بعد مكالمة تليفونية طريفة ، حيث اتصلت بالسويتش وطلبت منه توصيلي بالأستاذ «حجازي» عشان أعمل له مفاجأة ! غيرت صوتي وقلت:

– ألو

وتصورت أن ثلاث سنوات فى المعتقل كفيلة بمساعدتي فى عملية التمويه ولكنى فوجئت به يقول :

– أهلاً يا نجم.. هما دخلوا لكم التليفونات فى الزنازين .

قلت له :

– يعنى إنت مش هاين عليك تتصور إني خرجت من المعتقل؟

ضحك وقال :

– وأضيع وقتي ليه فى التصورات والتخمين ؟

قلت له :

– عمومًا أنا منتظرك فى حوش قدم على أحر من الجمر .

فقال :

– بس دا انت حتفضل على أحر من الجمر لغاية بكره لأنى ماينفعش أجيلك

النهارده .

وفى صبيحة اليوم التالي كنت فى مبنى «روز اليوسف» وحين تأخر وصول حجازي دخلت مكتب الأستاذ فتحي عبد الفتاح وأثناء جلوسي عنده فوجئت به يسألني .

– أنت ليه مش عايز تنشر عند الحاج مدبولي ؟

وكان السؤال مفاجئًا فقلت:

– وهو فين الحاج مدبولي ؟

فقال لي :

– أنا الحاج مدبولي ومستعد اتفق معك الآن وانتهى الحديث عند هذا الحد ومرت حوالى ثلاثة أيام قبل أن يزورني فى حوش قدم الأستاذ «....» الروائي المعروف الذى قال لي :

– أنا موفد من قبل الحاج مدبولي لأتفق معك على نشر ديوانك الأول.

فقلت له:

– ديواني الأول نشرته فى دار فى بيروت .

فقال :

– الأول فى مصر.

وأخرج من جيبه مبلغ 200 جنيه «مائتي جنيه» أخذتهم بالأحضان لأننا كنا ما شفرين فى حوش قدم، وجاء هذا المبلغ الضخم – آنئذ – وكأنه طاقة القدر ثم قدم لي صورة عقد وقعت عليها واتفقنا على أن تكون القصائد عند الحاج مدبولي خلال ثلاثة أيام ثم قدم لي إيصالاً بتسلم المبلغ وقعت عليه وقبل أن أنتهى من نسخ القصائد زارني «المحبوب» مباحث أمن الدولة التي قبضت علىّ وأعادتني إلى السجن كما عودتني فى السجن كنت أفكر فى الحاج محمد مدبولي ودينه الذى فى رقبتي ولكنى فوجئت أثناء زيارة عزة بلبع –زوجتي آنذاك – بأن الحاج مدبولي أرسل لها مائة

وخمسين جنيهًا وأفهمها أن المبلغ باقي حساب لي عنده ، وحين خرجت من السجن ذهبت إلى مكتبة مدبولي لأشكر الرجل على شهامته وأشوف الحساب بقى كام فأخذني بالأحضان وقدم لي نسخة من ديواني «أغنيات الحب والحياة» الذى كلف الصديق «عبده جبير» بجمع قصائده وأصدره أثناء فترة حبسي ثم قدم لي الإيصال الذى أخذه على الأستاذ «....» .

وقال لي:

– معلش يا أبو النجوم أنا مش صاحب فكرة الإيصال لأنك أنت بالذات لك دين فى رقاب كل المصريين وأنا مصري وظلت هذه الواقعة حاضرة فى ذهني ومرتبطة بالحاج محمد مدبولي العبقرية المصرية في مجال الثقافة والنشر .. ومرة سألت الدكتور «لويس عوض» .

– إيه رأيك يا دكتور فى مدبولي ؟

فقال على الفور :

– الحاج مدبولي يا نجم فى رأيي أهم من كل وزراء الثقافة العرب .

ولقد رحل عن دنيانا الحاج محمد مدبولي ابن البلد الخالص بعد مشوار مشرف فى عالم النشر بدأه كبائع للصحف ثم طور أداءه ليتحول إلى واحد من أهم الناشرين العرب إن لم يكن أهمهم على الإطلاق ولن أنسى له قيامه بطبع وتوزيع قصيدتي «زيارة لضريح عبد الناصر» ليوزعها بالمجان على الناس .

كان الحاج مدبولي مصريًا حقًا ولذلك كان ناصريًا متعصبًا لجمال عبد الناصر ابن الشعب المصري العظيم وكان يقول لى دائمًا :

– ماحدش عمل اللي إنت عملته ده لأن ماحدش زيك يعتقل فى عهد عبد الناصر نتيجة لتخبط الأجهزة الأمنية ثم يكتب فى عبد الناصر بعد رحيله هذه القصيدة العظيمة وأظن أن الحاج مدبولي التقى عبد الناصر وأحمد عرابي ومحمد عبيد ومحمد فريد وطلعت حرب ليكتمل عقد الباقة المصرية العطرة . رحمة الله عليهم

أجمعين وإنا لله وإنا إليه راجعون.

8 – شهادة الأستاذ أنيس الصايغ:

كنت أحرص على اختيار الموزعين. فالموزع يستطيع أن يدفع المجلة إلى الأمام ويعرّف أكبر رقعة من القراء عليها أو أن يخنقها ويحجبها عن الأعين . وبقدر ما وفقنا فى التعامل مع عدد لا بأس به من الموزعين فى مختلف الأقطار العربية والدول الأجنبية ، وقعنا عدة مرات فى فخاخ موزعين تنقصهم المهارة والأمانة أو المصداقية. لكن التجربة مع هذا النوع من الموزعين كانت تساعدنا فى تحسين الاختيار فى مناسبات لاحقة. ولعل «الحاج مدبولي» في القاهرة هو أطرف موزعي مجلاتي الأربع ، وكذلك كتب مركز الأبحاث والموسوعة الفلسطينية فيما بعد . كان «الحاج مدبولي» عند بدء التعامل معه ، يعرض المنشورات في أسفل سلّم في عمارة في ميدان سليمان باشا المكتظ بالمارة والسيارات مقابل محل «جروبي» الشهير . وكان الرجل أميًا وبسيط المظهر ويتعامل مع عملائه وزبائنه ببراءة شديدة . أذكر أنه كان يضع حصيلة نهاره «وتبلغ بضع جنيهات» فى جيب جلبابه البلدي ، ولا يعرف آلات الحساب والإيصالات والفواتير إطلاقًا . يكتفى بالثقة وبكلمة الشرف ، وكنا نعقد الصفقات بآلاف الجنيهات على قارعة الطريق وأمام المارة . وكان نشاطه وإقبال المثقفين المصريين والعرب المقيمين فى مصر على مكتبته كفيلين بجعله أنشط بائع ، ثم موزع ثم ناشر ، للكتب والمجلات العربية فى مصر . وتوسع أكثر وأسس فروعًا له فى عدد من المدن المصرية والعربية . وهو اليوم من كبار الناشرين العرب .

9 – شهادة الصحفي محمد نوح:

الحاج مدبولي راجل ببلدي وابن بلد وطول عمره فاتح لنا قلبه وعقله علشان ينور طريق كل مثقف وكل قارئ وكل مؤلف . ومدبولي معروف لكل من يقرأ فى العالم العربي يساري يميني ، شمالي جنوبي ، شرقي غربي ، عربي أوروبي ، صبى أو طفل ، امرأة أو رجل .. والحاج مدبولي دائمًا جاهز وحاضر ودائمًا متواضع ومقابلته تشرح القلب واهتمامه بينا صغيرنا وكبيرنا فوق الخيال .. ومدبولي دلوقت أصبح مؤسسة

كبيرة ثقافية وحضارية دون معاونة من حكومة ولا من صاحب سلطة ، مكتباته منتشرة فى أحياء القاهرة أولاده وأولاد أخوه أخذوا نفس المهنة بعد تعليمهم الجامعي وأحفاده كمان . الكتاب اللي مش موجود ، مدبولي يوجده حتى لو خسر أمواله ، تدخل مكتبة مدبولي فى المهندسين وكأنك فى إنجلترا ، صفوف من الكتب مبوبة ومفهرسة ومنظمة .. علوم،فنون،ثقافة،تاريخ،أدب،فكر،سياسة،دين، كمبيوتر، أسطوانات كاسيت، دروس علمية،مراجع.. دوائر معارف. وفوق كل ده وده .. مدبولي الناشر . أمهات الكتب التاريخية والكنوز المصرية والعربية والعالمية ينشرها الآن مدبولي وهو تراث لا يقدر بمال وأيضًا مدبولي وأولاده لا يقدرون بمال وعاشت مصر .

10 – شهادة الروائي الدكتور علاء الأسوانى :

أعتقد أن الحاج مدبولي كناشر وكإنسان هو إنسان استثنائي جدًا ، إنسان يمتلك موهبة حقيقة وملكات ثرية جدًا وإرادة حديدية مكنته من أن يصل إلى ما وصل إليه ، وعلينا أن نتذكر أن الحياة لم تعط للحاج مدبولي ظروف متوارية منذ البداية ، وأنه شق طريقه فعلاً بكثير من الجهد والصبر والعناء .. وأنا أذكر تمامًا عندما كنت طفلاً .. كان والدى الكاتب الراحل «عباس الأسوانى» ، يجلس فى مقاهي وسط البلد ، وكنت أصحبه فى بعض الأوقات ، وكنت أرى الحاج مدبولي وهو يحمل صندوقًا كبيرًا جدًا على ظهره مليئًا بالكتب حتى يبيعها للمثقفين ، وأذكر أنه كان يتذكر بدقة كل ما يطلبه والدى من كتب .. ثم كبرت وكبر الحاج مدبولي فأصبح من أهم الناشرين فى العالم العربي وربما فى العالم وشاءت الظروف أن أتعامل معه ككاتب فى روايتي «عمارة يعقوبيان» شخصيًا فكان رجلاً محترمًا جدًا فى تعاملاته ودقيق يفي بالتزاماته ، فهو يشكل كل ما هو إيجابي فى شخصية ابن البلد المصري ، وأكرر أن الطريق الذي قطعه هو طريق طويل جدًا من مجرد شخص لم تتح له الظروف أن يتعلم القراءة والكتابة إلى واحد من أهم الناشرين فى العالم العربي والعالم .. وأعتقد هذا شيء يبعث إلى الفخر ويبعث إلى الإعجاب بلا شك.. ولقد أضاف مدبولي الكثير إلى حركة النشر لأنه ناشر جيد وأعماله متسعة كما أضاف الكثير أيضًا إلى الحركة

الثقافية .. والحاج مدبولي عنده لجنة قراءة مهمة جدًا تتمتع برؤية نقدية حقيقية ودقيقة ومعرفة موسوعية .. وأعتقد أن عوامل استمرار الحاج مدبولي الزكاء ، والإخلاص فى العمل .. قد يفسد المال وقد يفسد النجاح الإنسان لكنه لم يفسد الحاج مدبولي بالرغم أنه أصاب المال وأصاب النجاح لازال كما هو .. بجد الحاج مدبولي يجسد مجموعة من أفضل صفات ابن البلد المصري .

11 – شهادة السفير اليمني على محسن حميد:

لم تكن مسيرة الحاج مدبولي ثرية ، ولم تكن كلها ناعمة وسهلة فمدبولي بنى مؤسسته من الصغر عبر عصاميته وإصراره على أن يخدم الثقافة العربية وقضايا الأمة، ولقد كان ملتزمًا بقضايا الأمة العربية وحقها في التطور والتقدم والحرية والتخلص من القمع الفكري والرقابة على الرأي ، ولقد سبق مدبولي مؤسسات إعلامية عديدة فى ريادته الثقافية التي توخت تحقيق نفس الهدف .. وكان الحاج مدبولي من محبى اليمن واليمنيين ولست أبالغ إذا قلت إنه لعب دور وزارة الثقافة اليمنية لفترة طويلة ، حيث نشر العديد من الكتب عن اليمن وشجع الباحثين اليمنيين الدارسين فى مصر وخارجها على نشر أطروحاتهم العلمية وأتاح لهم فرصة التفاعل الفكري مع أقرانهم فى مصر وخارجها . وفى هذا المجال كان يخاطر بالفعل لأنه كان ينشر رسالة ماجستير أو أطروحة دكتوراه لباحث أو لباحثة شابة ، وهو يعى أن العائد قد يكون منعدمًا ، ولكن حبه لليمن ولتوق اليمنيين إلى الانعتاق من الجهل والتخلف ورغبته الشخصية فى أن يسهم فى عملية التنوير فيه جعلته يتجاوز حسابات الربح والخسارة .. واليوم يجد الزائر عناوين يمنية كثيرة تتصدر مكتبة مدبولي فى ميدان طلعت حرب تسد فراغًا عانى منه المواطن العربي لفترة طويلة ، وكان للحاج مدبولي علاقة حميمة بطلاب يمنيين درسوا فى مصر فى الستينيات والسبعينيات ، ولن أنسى كيف كان يحتفى برواد المكتبة من اليمنيين الذين كان بعضهم يحرص على أخذ صور تذكارية معه كما لو كان نجمًا شهيرًا ، هكذا كان يقدره اليمنيون ويحترمون عطاءه لبلدهم اعترافًا منهم بدور ثقافي رائد قام به نيابة عنهم فى محيط واسع لا يفهم عن اليمن إلا القليل ، ونشر الحاج مدبولي بانتظام كتبًا عن اليمن لتيارات مختلفة ومتوسط ما كان

ينشره سنويًا خمسة عناوين، وهو بذلك يتفوق على أي دار نشر عربية خارج اليمن ، ولقد كان شديد الحرص على المشاركة الشخصية فى معرض صنعاء للكتاب الذى يقام فى أكتوبر مرة كل سنتين .. وقد كان الحاج مدبولي يحب اليمنيين والسودانيين على وجه الخصوص لتواضعهم ولاهتمامهم بالثقافة .. وقد كان الحاج مدبولي خادم الثقافة العربية المستنيرة لم يتخرج من جامعة ، ولكن عركته الحياة ، وكان من أبناء العروبة المخلصين والعاملين من أجل غد عربي مشرق وواعد ، ومن حق مدبولي على اليمن تكريمه وعدم نسيانه وفاءً لدين صغير هو فى الواقع جزء من دين أكبر لمصر .

12 – شهادة الحاج حسن محمد حسن وكيل مكتبة مدبولي:

لقد عملت مع أخي وصديقي الحاج محمد مدبولي لأكثر من 35 سنة كانت من أفضل أيام حياتي .. وأعتقد أن أهم ما يميز الحاج مدبولي أنه عصامي من الدرجة الأولى ، وأن أخلاقه وطباعه ، هي الطباع الريفية المتأصلة فينا جميعًا .. فلديه عزيمة من حديد وإصرار زائد تفانيه الغير عادى فى عمله ومهنته ولقد كان دائمًا يقف بيننا موجهًا ومبصرًا وداعيًا.. ومجاملاً للناس فى المسرات والأحزان .

13 – شهادة الأستاذ رؤوف عشم أحد مسؤولي النشر بمكتبة مدبولي:

عملت مع الحاج مدبولي لأكثر من 27 عامًا أحببت خلالها مهنة النشر وصناعة الكتاب ، والجد والجدية وحب العمل .. لقد كان الحاج مدبولي ديمقراطيًا يحب الحرية ويعشقها . وله نظرة ثاقبة فى اختيار الكتب وكانت هوايته الوحيدة البحث عن أي كتاب جديد حتى لو كان فى أقاصي الدنيا .. وعلى المستوى الشخصي كان بسيطًا متواضعًا .. صاحب عزة نفس رهيبة .

14 – شهادة الأستاذ أشرف محمد بركات مسئول المبيعات والعلاقات العامة بمكتبة مدبولي :

الحاج مدبولي علامة مضيئة فى تاريخ الثقافة العربية ، وقد تميز دائمًا بالعمل الجاد والطبيعة الجادة التي هي سبب نجاحه بالإضافة إلى عقليته الكبيرة التي تنظر إلى

الأمام والمستقبل دومًا عند اختياره للكتب وانتقائه للمطبوعات وفى تعامله مع الناس والجمهور والطبقة المثقفة .. وعمومًا الحاج مدبولي شخصية نادرة واستثنائية محبة لبلدها وللروح القومية والفكر العربي . وأقول أن مصر مثلما أنجبت أم كلثوم وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ أنجبت الحاج مدبولي الذى أثرى المكتبة العربية بما لا يمكن لي جهة أو فرد القيام به وعلى المستوى الشخصي فقد كان متواضعًا يأكل من أكل العمال ولا يتناول أي طعامًا خاصًا .

15 – شهادة محمود مدبولي «ابن الحاج مدبولي» :

كان أبى صديقًا لى ولكل أفراد الأسرة .. يتكلم معنا بصراحة شديدة ولم يكن يُجبرنا على فعل أيشيء لا نريده سواء كان ذلك فى مجال الدراسة أو العمل أو الزواج .. وأنا أحببت هذه المهنة عن طريقه وعن طريق حبه لها ومن أجل مسيرة كفاحه ونضاله التي امتدت إلى ما يقارب السبعين عامًا فى خدمة الثقافة العربية .. وأرى أن قصة كفاحه ليست بالقصة العادية الطبيعية التي يمكن تكرارها من فترة لأخرى بل هي قصة رجل بدأ حياته من الصفر، بل أدنى من الصفر قليلاً.. قصة كلها معاناة ، كلها أشواك ، كلها مطاردات ، كلها مغامرات ، كلها كفاح ، كلها نضال ، كلها نجاح ، كلها كتاب ، كلها ثقافة ، كلها إصرار ، كلها عزيمة ، كلها حب للكتاب وللقارئ وللثقافة وللفكر وللحرية ، وللمجلة والجريدة .. ولقد تعلمت من والدى حب الحياة والتفاؤل والكفاح والنظر إلى الأمام إلى المستقبل البعيد .. كما تعلمت منه دروسًا فى حب الوطن والكتاب ، وأمور النشر والطباعة ، وحب الخير والإيمان بالنجاح .. تعلمت منه حب الناس،حب العلم، حب المعرفة.. وعندي أمل أكون مثله إلا أنه لا يمكن أن يتكرر.

لحن الوداع

■■■

«ضعوا أيديكم بأيدي بعضكم ، وأنسوا أي خلافات ولا تحزنوا كثيرًا» .

الحاج مدبولي

صخر لوجهك في الممرات القديمة

إن الجراح تخص وجهك وحده

إن الجراح الأن تلفظ ملحها

إن الجراح تُضئُ أبواب المتاجر

ونزيفك اليوم يصعد في بخار الشاحنات

نزيفك اليوم يهبط في ثغاء النائحات

نزيفك اليومي يختزلُ المسافة

بين صدرك والخناجر

فعلام صمتك

«النص للشاعر كمال الجزولي .. القصيدة الجبلية» . في الدورة الأخيرة لمعرض بيروت للكتاب ، تساءل الناشرون والقراء عن سر عدم حضور الناشر المصري الشهير «محمد مدبولي» إلى العاصمة اللبنانية التي طالما أمدته بـ «الكتب الممنوعة» التي ساهمت في صناعة شهرته . لكن الجواب لم يأتي إلا فى السادسة من ديسمبر 2008م عندما أعلن الأطباء في مستشفى القوات المسلحة في ضاحية المعادي «جنوب القاهرة» المستشفى الذي قضى فيه الرئيس محمد أنور السادات ، وسيدة

الغناء العربي أم كلثوم – خبر رحيل «وزير ثقافة العرب الشعبي» عن عمر ناهز سبعين عامًا قضاها في بيع ونشر وتوزيع الكتب .. وقد خرج الحاج مدبولي من مستشفى القوات المسلحة الذى قضى بها آخر أيام حياته تحمله الأيدي إلى مسجد السيدة نفيسة حيث تمت الصلاة عليه ، ومنها إلى مقابر 6 أكتوبر . بعد أن ترك للمكتبة العربية ما يزيد على الاثنين مليون كتاب.

وقد نعى الكاتب والأديب يوسف القعيد الحاج مدبولي قائلاً : «لقد ظل يعانى من المرض سنة كاملة ، وكان يرفض بشدة أن يُعلم رواد مكتبته أو أصدقاؤه بمرضه» وأضاف القعيد «إن الحاج مدبولي كان حالة ثقافية فريدة ، استوعب فروع العلوم المختلفة ، وحافظ على بساطته المعهودة ، وكان مخلصًا لتجربة جمال عبد الناصر ، والقضية العربية» .. وأقول بفقد الحاج مدبولي فقدت المكتبة العربية إنسانًا وناشرًا أسهم إسهامًا حقيقيًا فى نشر الاستنارة والوعى رغم المحاذير السياسية والاجتماعية والرقابية التي يفرضها المتسلطون على حركة الإبداع فى عالمنا العربي .

الوصية الأخيرة:

كانت الوصية الأخيرة للحاج مدبولي بضعة كلمات لموظفي مكتبته جاءت على لسان الأستاذ رؤوف عشم أحد مسؤولي النشر بمكتبة مدبولي الذى قال لي أن تلك الكلمات لم تكن مجرد كلمات ، وإنما شعار يرفعه كل صباح كان يدخل فيه إلى بيته الحقيقي«المكتبة» . ولكن ما هي آخر كلمات الحاج مدبولي؟ هي كلمات من ذهب ، كلمات من أجل الوحدة ، كلمات من حب ، كلمات ضد الخلاف والشتات ، كلمات ضد الحزن .. فقد قال: «ضعوا أيديكم بأيديبعضكم، وانسوا أي خلافات ولا تحزنوا كثيرًا».. هذه الكلمات لا تصدر إلا من شيخ مصري خالص أصيل كالنيل.. ألا رحم الله الحاج مدبولي بعدد حروف الكتب التي باعها ، والتي وزعها ، والتي نشرها ، وبقدر تفانيه فى خدمة المعرفة ، وبقدر ما أخلص لمهنته وجوّد .

شهادات بطعم «النعي»:

1 –شهادة الكاتب بهاء طاهر:

إن مدبولي جزء من تاريخنا كما أنه جزء من تاريخي الشخصي ولا شيء يعوضني

عنه حيث علاقتي به قديمة وكلما عدت من السفر أول ما أفعله هو المرور عليه بمكتبته لمصافحته كما أنه كان حريصًا على مجاملتي فى كل المناسبات فقد حضر يوم أن كرمني مجموعة من الشباب بنقابة الصحفيين دون أن أخبره .

2 – شهادة الدكتورة شيرين أبو النجا – صاحبة رواية «خيانة القاهرة» .

تعرفت على المكان وأنا طالبة بالجامعة ، فكل كتاب لا يتوافر مع بائع الصحف والكتب أمام الجامعة كان معناه أننا لن نجده إلا «عند مدبولي» وكان الأصدقاء يتطوعون للقيام بهذه المهمة ، حتى سألت فى يوم ما «هو فين مدبولي؟» فكانت أول رحلة لى لتلك المكتبة ، رحلة تحولت إلى شبه دورية ، ثم أسبوعية ، ثم كانت أن تصبح يومية .

وتطور الأمر ، فكلما أسافر أعود إلى القاهرة لتكون مكتبة مدبولي هي أول مكان أذهب إليه لأتابع ما فاتني . فى كل تلك الرحلات كنت أسمع عن الحاج مدبولي ، كيف بدأ ، كيف كافح ، كيف .. كيف .. حتى أصبحت رحلته موضوعًا للكثير من التحقيقات الصحفية والأفلام التسجيلية، ورغم كل ذلك لم أكن قد التقيت به ولا مرة واحدة.

منذ سنوات ليست بالبعيدة توجهت إلى تلك المكتبة – كالمعتاد – لأبحث عن رواية ما نشرت فى بيروت ، وقد وجدتها على ما أذكر ، ولم أكن أعرف حينها فى المكان سوى «أشرف» ، ولم يكن سوى «أشرف»يعرفني . حملت الكتاب وتوجهت إلى مكان الدفع فجاءني أحد الشباب المتحمسين ، ونظر إلى ثم أشار لكتاب «فن الحلويات» وقال «كتاب ممتاز ولدينا مجموعة أخرى» احترت تمامًا فى رد الفعل الذى يجب أن أقوم به ، ولم يسعفني خيالي ، إلا بكلمة واحدة «ليه؟» وهو ما جعل الشاب ينظر لي بمنتهى الدهشة، استغرق الأمر بأكمله ثوان ، حتى سمعت صوتًا عميقًا هادئًا يقول «سيبها ، سيبها ، معلش» وأخذ الكتاب من يدى ، أخبرني بسعره دفعت وشكرته ، وحين هممت بالمغادرة قال بوضوح «مع السلامة» كان هذا هو الحاج مدبولي .

لكن حتى تلك اللحظة لم أكن متأكدة ، وفى المرة التالية همست «لأشرف»«مين اللي قاعد هناك ده؟» فابتسم مندهشًا قليلاً وقال «الحاج!» مرة تلو الأخرى حتى

تجرأت وقلت له «إزيك يا حاج» ولم يزد الحوار مطلقًا عن ذلك ، فى كل مرة كان هادئًا ، بشوشًا بطريقته ، مرحبًا بإيماءاته . ثم أتيحت لى فرصة التعرف على جانب آخر من شخصيته ، الجانب المهنة الممتزج بالإنسان . كان ذلك حين تمكنت من طباعة رواية «خيانة القاهرة» عنده . وكانت المرة الأولى التي تقيم فيها مكتبة مدبولي حفل توقيع ، والحقيقة أنه كان يومًا رائعًا بكل المقاييس ، فقد جاء الكثير من الأصدقاء والمعارف فى ذلك اليوم من أجل المكان فى حد ذاته ، ومن أجل ما يفرضه من الالتفات لكل ما يدور حوله ، ولكل ما هو متعلق به .

لم يكن الحاج مدبولي موجودًا بمصر ، فقد كان فى أحد معارض الكتاب بالعالم العربي ، وقرب انتهاء حفل التوقيع قال لىّ كل فرد بالمكتبة إن الحاج قد اتصل تليفونيًا ليهنئني وليطمئن على سير الحفل .

كانت لفتة فى غاية الرقة ، لغته أسرتني رغم الحوارات المختصرة للغاية . بعد أن استنفدت عدد النسخ المتفق عليه من الرواية ، كنت أذهب لأشتري المزيد ، وفى كل مرة تصادف فيها وجود الحاج مدبولي كان يرفض أن يجعلني أدفع ثمن النسخ ، وفى كل مرة كنت أخرج وقد تعلمت شيئًا جديدًا ، لا يصدق الآخرون مطلقًا أن يعلمونا إياه .

كانت آخر مرة التقيت فيها الحاج مدبولي قبل عيد الفطر مباشرة ، سلمت على جميع من فى المكتبة لأنني كنت على وشك السفر وتمنيت للحاج عيدًا سعيدًا ، وغادرت ، ولم أتوقع أن أسمع عن رحيله قبل عيد الأضحى . منذ علمت وأنا أتساءل عن الكيفية التي سأعاود بها دخول المكان فى غياب الحاج مدبولي .

كنت فى الكثير من المرات أذهب ولا أجده ، لكن كان معروفًا أنه موجود فى الخارج أو فى الداخل ، المهم أنه موجود . لم تكن فكرة الغياب الكامل قد طرأت على ذهني ، وها هو الغياب التام يعلن عن نفسه كعادته ، بشكل مفاجئ ومباغت فلا يمهلنا وقتًا للتفكير . كيف نتعامل معه ؟ رحمك الله يا حاج مدبولي وجزاك خيرًا على الكثير مما فعلته ، وعلى الأسماء التي بدأت معك صغيرة ثم كبرت ، وعلى اتساقك الرائع مع ذاتك .

3 – شهادة الكاتب الليبي سالم الهنداوي :

عرفنا مدبولي مبكرًا ، ففي نهاية الستينيات من القرن الماضي ارتبط اسمه فى بنغازي

بروايات مصر القديمة التي كان يفترشها الباعة تحت أقواس «الفندق البلدي» تلك الأقواس التي كادت تتحوَّل إلى سوق للمعرفة مثل سوق «الأوزبكية» فى القاهرة ، لو أمد الله بعمر المناخ الثقافي الذى كان مزدهرًا فى بنغازي ، وأنتج فى تلك الفترة الصحافة المقروءة والكتاب المقروء ، والكاتب المقرئ، مثلما أنتج القارئ الحقيقي المانع المنيع، والمثقف النبراس المضيء فى ضمير الأمة والانتماء لجلال الوطن .

لقد كان الفن والأدب فى ذلك الوقت يعيشان بيننا وفينا وأينما حللنا فى مشاويرنا اليومية ، فبين جرائد الصباح اليومية ، كانت مسارح الليل وسينما الليل ومقاهي الليل ، وكانت الصالونات الأدبية والأغاني القديمة والأفلام القديمة . وأذكر أن الحاج مدبولي كان من بين أهم الأسماء المصرية التي حضرت فى ذاكرتنا الثقافية التي كان الكتاب عنوانها الأبرز ، وهو الكتاب الذى ترجم للسينما أهم روائع نجيب محفوظ .

كنا فى طفولتنا الثقافية عندما نستعير الكتب من «المركز الثقافي المصري» بشارع الاستقلال ، ونقرأ «اللص والكلاب» مثلاً لنجيب محفوظ ، سرعان ما نذهب إليه لنراه فى السينما قصة ماثلة تسحرنا بتفاصيلها وبرائحتها التي تشبه رائحة الكتاب فى طبعته القديمة .

إنها إحدى الحكايات الرمادية التي شكلت صورة مصر فى مخيلتنا آنذاك . فمن خلال المشهد البسيط الذى كان يأخذنا لشوارع القاهرة الخالية من الزحام ، ولمعان ذلك المشهد «الأبيض والأسود» فى الأفلام ، كان مدبولي فى ميدان «سليمان باشا» ينشر تاريخ مصر القديمة بالعناوين التي برزت فى مرحلة التنوير وتشكلت مع الثقافة والسياسة وحقوق المجتمع المدني . وهى المرحلة التي أنتجت تيار الوعى القومي فى عهد عبد الناصر .

ولم يكن مدبولي مكرَّسًا لنشر تلك الثقافة القومية فى أوج ظهورها ، بل كان فى جوهر مسألة الحوار النقدي معها ، فكان ينشر للفكر السائد ومعارفه ، فنشر لثقافة الاختلاف التي قادها ماركسيون ووجوديون وإخوان وعلمانيون . فكان هذا التعدد المعرفي من اهتمامات الناشر الذى سوَّق المعرفة فى الصحافة اليومية ، بأطيافها المختلفة ، وصار لا

يمكنه ، حين أصبح «ناشرًا» بوعيه الجماهيري سوى أن يكون منحازًا لاهتمامات القارئ الذى كان يلتقيه على الناصية ويبيعه الخبر بفلوس على الناحية الأخرى .

وهذا الانتماء للشارع العربي كان من أهم ميزات الحاج «محمد مدبولي» وانحيازه للثقافة الجماهيرية التي كانت تنهل من وعى المثقفين وانشغالهم بالقضايا الفكرية ، وأزماتها . فكان قدره أن يكون فى فرن الصحافة وعمره 5 سنوات ، يبيع أخبارها الطازجة فى منطقة «الدقي» و«داير الناحية» غرب القاهرة ومن ثم تصدَّر أهم الميادين وأغناها بالسابلة والسائلة وبالمثقفين .

لم يكن انتقاله إلى ميدان «طلعت حرب» فى قلب القاهرة إلا رغبة فى المزيد من الاحتكاك بالناس وهمومهم ، يبيعهم الخبر كما يبيعهم الخبز طازجًا فى المدينة ، وعلى مسمع من المثقفين ذوات الناس وهمومهم ، الذين كانوا يعبرون «طلعت حرب» كل مساء باتجاه مقهى «ريش» و«البستان» يتسامرون عند نبض قلب المحروسة وينسجون الأفكار فى محراب ضمير الأمة ، فعقد مدبولي على هذا الهامش الضروري صداقاته العميقة مع معظم كتاب وأدباء مصر ومن على ناصية طلعت حرب تحديدًا ، فكانت الثقافة هي هاجس الناشر الصغير الذى ورث عن أبيه تسويق المعرفة وهو فى سن الخامسة ، وبنى مجده الكبير بالتنوع فى نشر ثقافة الاختلاف عبر كل تلك المراحل الفكرية من حياة مصر العروبة ، وكان شاهدها بامتياز .

لقد كبر حنيني مع الزمن فى أن ألتقى «مدبولي» وأرى الرجل الذى بنى ما تعجز عنه مؤسسات الدول العربية قاطبة ، وكان إن جمعني به فى نهاية الثمانينات صديقي الروائي«يوسف القعيد» فصار منذ ذلك الحين وجه مصر الذى لابد أن أراه وأطمئن عليه وأستمتع بحكاياته عن المحروسة وعمرها المديد رغم الشدائد والحرائق والعواصم التي عبرت نوافذ القصرين خلال مختلف العهود والمتناقضات ، منذ عهد الملك فاروق ، مرورًا بعهد عبد الناصر وأنور السادات .

واللافت فى مظاهرات واعتصامات المثقفين المصريين من الأحداث والقضايا المحلية والعربية إنها كانت إما تنطلق من أمام مكتبة مدبولي أو تنتهى إليها ، حتى أن ناصية المكتبة صارت منصّة للاحتجاج الثقافي فتارة تكون لأحمد فؤاد نجم يلقى منها

بيانات أشعاره ، وتارة تكون لفناني مصر يلقون منها بياناتهم من حادثة تدنيس الأقصى ومن غزو العراق وهى ذاتها المنصّة التاريخية التي هتف منها قديمًا الشاعر «نجيب سرور» ضد الجوع ، وكانت فى وجع أمل دنقل وفى رؤى عفيفي مطر من بعده . وكأن مكتبة مدبولي فى حاضرة الزمن وتناقضاته قد أرادت أن تستنطق محتواها الفكري من معارف وكنوز طال صمتها فى ذلك الميدان.

كانت تستوقفني هذه المعاني والتباساتها التاريخية فى حياة الحاج محمد مدبولي ، فكان يغريني بمعرفة المزيد عن رواده من المثقفين والسياسيين العرب والأجانب الذين التقوا به باعتباره قيمة ثقافية تاريخية مصرية حقيقية عاصرت أربعة عهود سياسية ، من فاروق إلى عبد الناصر إلى السادات إلى حسنى مبارك .

ولعله يحضرني هنا مدى تأثير مدبولي فى ضمير المثقف العربي وقدرته على صُنع الأحداث الثقافية ، خاصة فى حياة أدباء كبار مثل الشاعر نزار قباني الذى منع الرئيس عبد الناصر كتبه من دخول مصر عام 1967م بسبب قصيدة «هوامش فى دفتر النكسة» ، ولا يعرف مدبولي حينها أن عبد الناصر سيعيش إلى الأبد ولا نزار قباني سيعيش إلى الأبد ، لكن الشعر بينهما وقوة الثقافة وقدرتها على التأثير فى الناس كانا سيبقيان فى التاريخ ما بقيت النكسة وما بقيت القصيدة . فجاءت مبادرة مدبولي فى أن بعث برسالة إلى نزار قباني قال فيها : لا تترك أحد يحرق الجسور بينك وبين جمال عبد الناصر . اكتب إليه شارحًا دوافعك النبيلة فى كتابة القصيدة فعبد الناصر زعيم قوى ، لا يرتعش من قصيدة، ولا يخاف من غضب الشعراء . وبالفعل أرسل نزار قباني رسالته الشهيرة إلى جمال عبد الناصر،والتي قال فيها :«وإذا كانت صرختي حادة وجارحة ، فلأن الصرخة تكون بحجم الطعنة ، والنزيف يكون بمساحة الجرح . لم يكن بإمكاني وبلادي تحترق ، الوقوف على الحياد ، فحياد الأدب موت له ، فالذي يحب أمته يا سيادة الرئيس يطهِّر جرحها بالكحول ويكوى ، إذا لزم الأمر المناطق المُصابة بالنار .

ولم يطل صمت عبد الناصر ، فسمح لمدبولي بتوزيع أشعار قباني وتداولها ، وبذا انفتحت أبواب مصر لشاعرها العربي .

وتلك حادثة تاريخية تُسجل للحاج مدبولي على قدر دعمه للثقافة العربية وحق القارئ فى المعرفة مهما اختلفت الآراء وتباينت حول الفكر والسياسة والأيديولوجيا، وهذا ما يجعله يبيح نشر كل الثقافات على اختلاف مستوياتها شرط ألا تسئ للذات الإلهية ، وهو بالضبط ما حدث مؤخرًا مع الكاتبة «نوال السعداوي» عندما أعدم أحدث طبعتين من كتابها «سقوط الإمام» ومسرحية «محاكمة الله أمام مؤتمر القمة» باعتبارهما يسيئان للذات الإلهية .

كنت كلما نزلت إلى القاهرة أمرُّ عليه فور وصولي، لأستلم منه بعض هدايا كتب الأصدقاء. ولأنني لا أمكث طويلاً فى القاهرة ، فقد كان مدبولي هو المؤتمن دائمًا على رسائلي بين الأصدقاء ، ومن وقعه فى القلب ومن وسط البلد ، كان خير وسيط بيننا وخير صديق وخير جليس . ولعل هذا الاعتياد كان أحد أهم أسباب ارتباطي بطبائع شيخ الناشرين العرب وبشخصه النبيل الذى جعلني أحافظ على تقاليد زيارتي له فى كل مرة . أتناول معه الكوب الأول من «شاي الكشري» وأستعيد معه الحكايات التي مضت بنا فى الزمن .

كان مدبولي مثل خزانة معرفة على زمن لم أعشه من قبل وإن قرأته فى روايات مصر القديمة وشاهدته على شاشة السينما القديمة واستمعتُ إليه عبر إذاعة «صوت العرب» وفى أشعار صلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودي . حكى لي ذات مرة عن حادثة «نجيب سرور» عندما هام يبيع ابنه فى ميدان طلعت حرب وهو يصرخ فى وجه الجوع . وحكى لي عن علاقته بأحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وعن علاقاته بمثقفين كبار نشر لهم ثم رحلوا وتركوه وحيدًا مع طلعت حرب لمنتصف الليل. لكنه وقد عاش مع الكِتاب أكثر من ستين سنة ، كان حاضرًا أيضًا مع أجيال تعاقبت من مثقفين عاصر محناتهم كما عاصر محنات أسلافهم ، ومن قدره المحتوم أن يرى مصر فى ضمير كل هؤلاء الذين رحلوا وكل الذين كانوا يمرُّون عليه حتى وفاته عن عمر ناهز السبعين وقد عاش حياة الناس ببساطة ، يلامس أوجاعهم كما يلامس كل يوم ورق الجرائد والمجلات والكتب .

منذ تعرَّفت إليه أول مرة فى نهاية الثمانينات ، سألني عن روايتي «الطاحونة» التي

كان قرأ عنها فى مجلة «روز اليوسف» فى حينها وهو الاهتمام الذى حرص عليه منذ ذلك الزمن . فكان يسألني عنها مرارًا دون بقية أعمالي اللاحقة التي كانت تصدر تباعًا فى ليبيا وقبرص ولبنان ، وهو الاهتمام اللافت الذى جعله بعد مرور كل تلك السنوات يفوز بتقديره الخاص لـ «الطاحونة» ويعيد نشرها بعد ربع قرن من طبعتها الأولى، فكانت العمل الأول الذى يصدر لي فى القاهرة ، وعن مكتبة مدبولي بالذات .

وبما أيضًا كنت أول كاتب ليبي ينشر له مدبولي . فكان لهذا الاهتمام الكبير موضع تقدير خاص أكنه لمدبولي «الإنسان» الذى مثلما تعاقدت معه على نشر أعمالي فى مصر ، تعاقدتُ معه على الحب والتقدير والوفاء له حيًا وميتًا .

مكتبة مدبولي لم تكن تضيق فقط بالكتب العامرة ، وإنما كانت تضيق أيضًا بأفكار عقول تنهل من ذلك الميدان وتكبُّ جوالات أوجاعها فى حضن مدبولي «الإنسان» الذى كان «أبو المصريين» الذى عاش معهم قدر العيش المر . فهو ليس من سلالة صعيد سوهاج فقط ، وإنما أيضًا من سلالة قرى «الجيزة» التي كانت كلما التهمتها القاهرة الكبرى ، صارت فى قلبها وفى صميم أوجاعها .

ولم يكن مدبولي شاهدًا فقط على المعارك الثقافية بين مختلف التيارات الفكرية التي عاشتها مصر من خلال الستة عقود الماضية ، ولكنه كان شاهدًا أيضًا على أزمات الماضي والحاضر معًا . فكان بذاته المصرية السمراء وجلابيته الصعيدية ، وبذاكرته الشعبية الثقافية ، ومن موقعه بميدان القاهرة الكبرى ، أهم مثقف شفوي حفظ تاريخ مصر عن ظهر قلب . فكل المثقفين الذين عرفهم ونشر لهم أفكارهم فى سلسلة منشوراته المتنوعة فى الفكر والفلسفة والتاريخ والأدب والسياسة والاقتصاد، كانوا فى ذاكرته علامات فارقة استوعبت تاريخها الكامل ، ولعله كان يحفظ للكثيرين منهم ما لم تستطع أن تسطره أقلامهم على الورق.

كان عندما يحكى لى عن تلك الشخصيات التي عرفها عن قرب ونشر لها عن قرب أراها أمامي عن قرب ماثلة تعبر الميدان فى مشوارها اليومي إلى مقهى ريش أو مقهى البستان ، رأيت أمل دنقل ، ورأيت نجيب سرور وصلاح عبد الصبور، ورأيت

العقاد والمازني وطه حسين، ورأيت محمود تيمور ويوسف إدريس ومحمد عبد الحليم عبد الله وإحسان عبد القدوس وثروت أباظة ، وفى هؤلاء جميعهم رأيت فى وجه مدبولي سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ورأيت أحمد شوقي ولطفى المنفلوطي ورأيت سيد درويش وأحمد رامي وأم كلثوم والكحلاوي وعبد المطلب .

رأيت نجيب الريحاني ويوسف وهبي وزينات صدقي وماري منيب وتحية كاريوكا . رأيت شكوكو وإسماعيل ياسين وعبد السلام النابلسي والشاويش عطية ومحمد رضا ومحمد عوض ، ورأيت توفيق الدقن ومحمود المليجي وفريد شوقي وستيفان رستم ورشدي أباظة ويحيى شاهين وعماد حمدي وشكري سرحان وأحمد رمزي ويوسف فخر الدين وعبد المنعم إبراهيم وفاتن حمامة وسميرة أحمد وزهرة العُلا وماجدة ومريم فخر الدين ولبنى عبد العزيز .

رأيت مصر القديمة التي كنت أشاهدها فى السينما القديمة ، سمعت فريد وعبد الوهاب وسيد مكاوي وليلى مراد وأسمهان وشادية وهدى سلطان ، ورأيت شباب مصر فى نادية لطفى وسعاد حسنى وعبد الحليم ومحرم فؤاد ومحمد رشدي ومحمد قنديل .

ورأيت الملك فاروق واحتلال الإنجليز واحتراق القاهرة ، ورأيت ثورة 23 يوليو/ تموز والعدوان الثلاثي ، ورأيت نكسة يونيو / حزيران 67 وعبور أكتوبر / تشرين الأول 1973 ، ورأيت الانفتاح وكامب ديفيد ومصرع أنور السادات . ورأيت طلعت حرب وحيدًا يبكى مدبولي فى شتاء ليلة السادس من شهر ديسمبر / كانون الأول 2008م.

القاهرة

فى 10 / يناير كانون الثاني 2009م

أحمد موسى قريعي

المصادر والمراجع

أولاً : المقابلات الشخصية : وهى على النحو التالي :

1 – مقابلة مع الحاج محمد مدبولى.

2 – مقابلة مع الدكتور عبد المنعم الحفنى.

3 –مقابلة مع الأستاذ يوسف القعيد.

4 – مقابلة مع الدكتور علاء الأسوانى.

ثانيًا : الكتب والدوريات :

1 – ذكريات أنيس صايغ عن أنيس صايغ / دار رياض الريس / طبعة أولى / مايو 2006 .

2 – مكتبة مدبولي السيرة والمسيرة.

3 – حوارات الحاج محمد مدبولي مع الصحافة المصرية والعربية والعالمية. وأحاديثه لوسائل الإعلام الأخرى من راديو وتلفاز .

كتب للمؤلف

كتب صدرت :

- كتاب ضمير الصحافة «دليل الصحفي والطالب إلى فن النشر والتحرير الصحفي» ط 1مكتبة مدبولي 2008م.
- كتاب ضمير الصحافة «دليل الصحفي والطالب إلى فن النشر والتحرير الصحفي» ط. 2 مكتبة جزيرة الورد2018م.
- فن الإعلان والصورة الصحفية– المكتبة الأكاديمية –القاهرة.
- الجنجويد والنزاع المسلح في دارفور– مكتبة مدبولي الصغير– القاهرة.

كتب تحت الطبع :

– معجم شخصيات مدبولي «المعجم العشوائي».

– محركات البحث والصحافة الإلكترونية.

– الخرطوم(حكايات وشوارع).

– معجم شخصيات الشيخ البرعي.

– المشي على اليدين (رواية).

– قهاوي القاهرة حكايات وأسرار.

المحتويات

الإهداء 7
المقدمة 9
مدخل 15
أول الطريق 19
مدبولي بائع جوال 23
كشك مدبولي 29
مكتبة مدبولي 43
مدبولي ناشرًا 49
26 قضية أمن دولة 81
لا .. لإسرائيل 97
جلباب مدبولي 103
مدبولي وهؤلاء 113
مدبولي وتحولات الزمن 127
مدبولي .. مفكرًا 145
مدبولي وحوار الصحافة 155
لحن الوداع 175
المصادر والمراجع 183
كتب للمؤلف 183